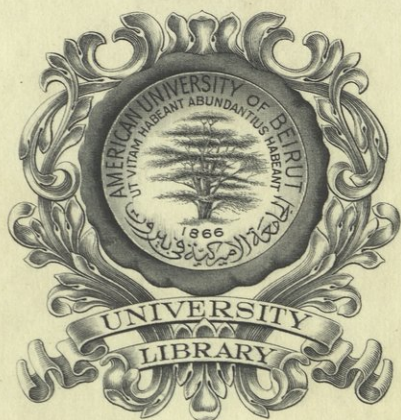
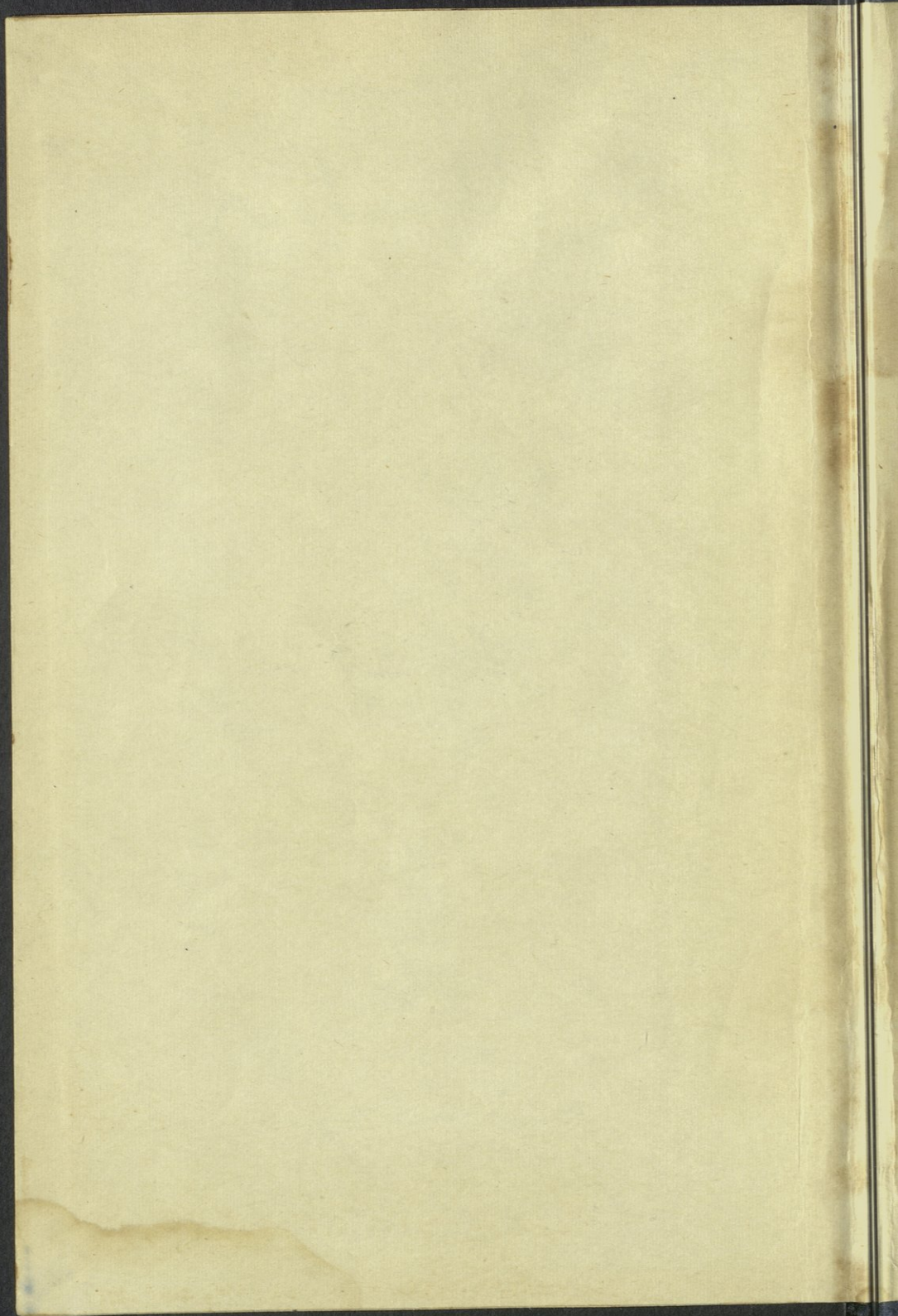


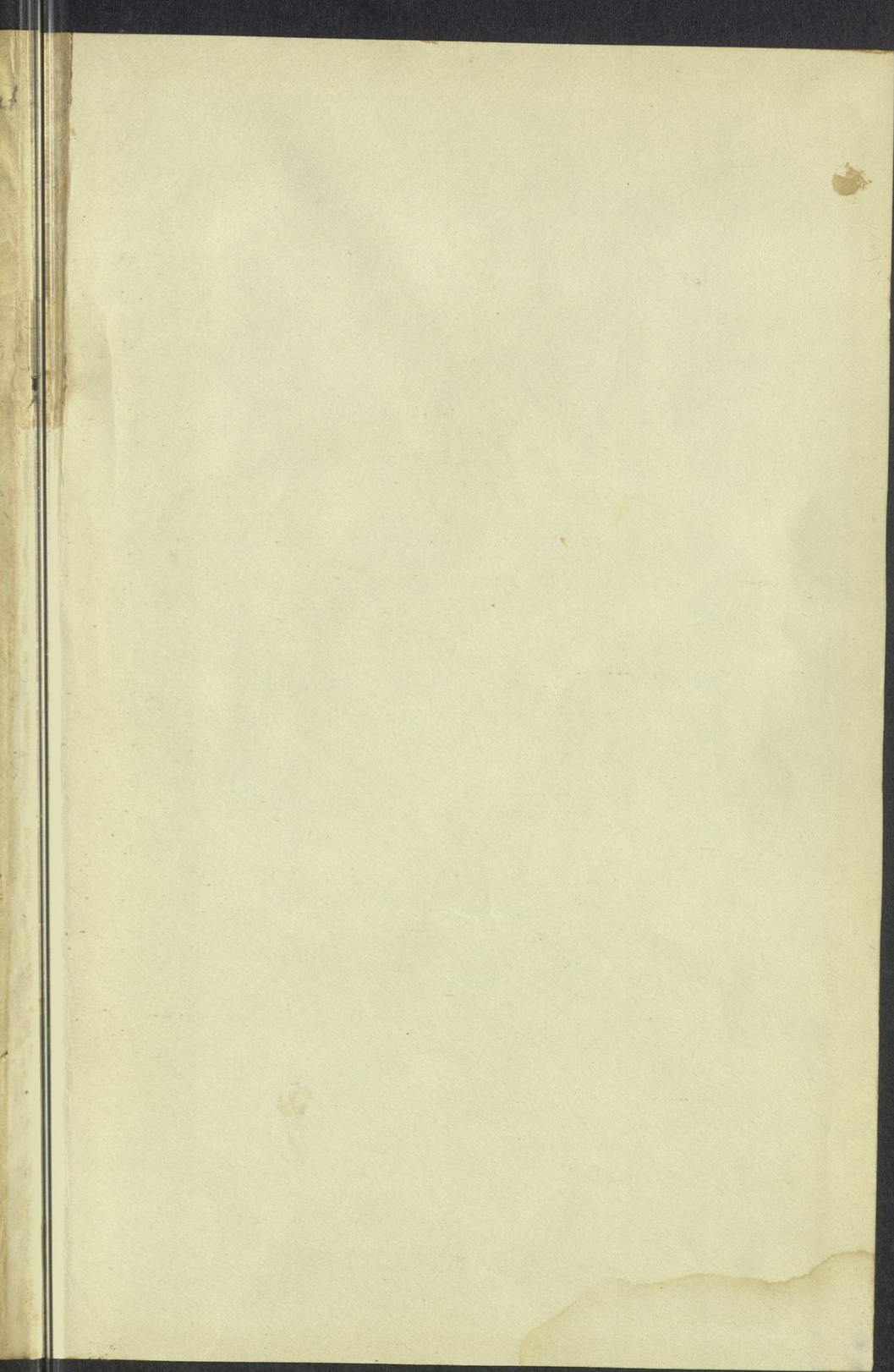
AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT



تجليد صالح الدقر

تلفون ٢٢٩٧٧





فن التشبيه

بلاغية . أدب . نقد

الجزء الأول

تأليف

عبدالحق الطنطاوي

كلية دار العلوم . جامعة فؤاد الأول

الطبعة الأولى

١٩٥٢

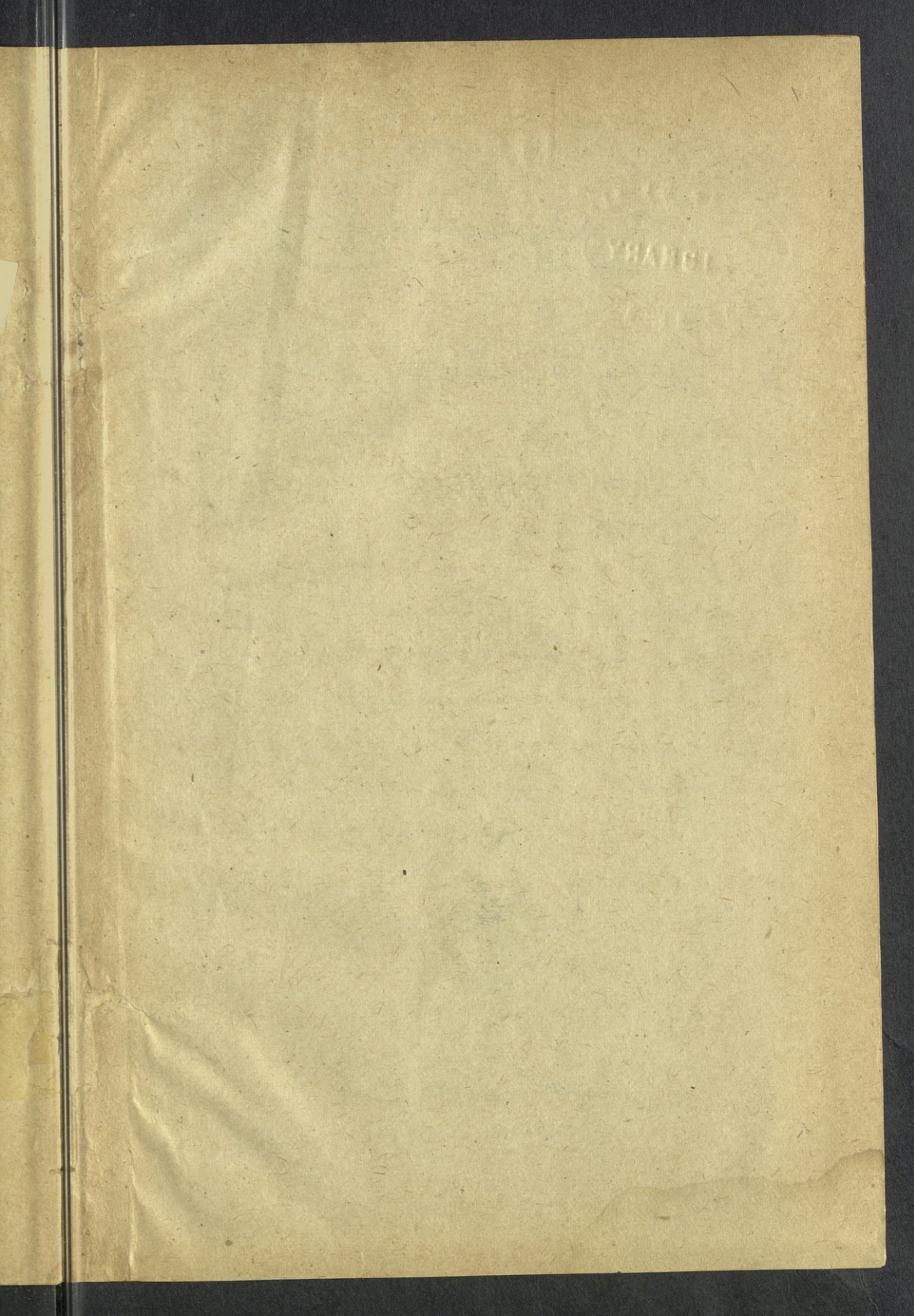


مكتبة النهضة المصرية

مكتبة النهضة مصر

١٠ شارع كامل صدقي باشا « الفجالة سابقاً »

مطبعة النهضة مصر



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله على سوابغ نعمه والصلاة والسلام على خيرته من خلقه ، وعلى إخوانه من النبيين والمرسلين ، ومن تابعهم بإحسان إلى يوم الدين . وبعد فهذه فصول في « التشبيه » تناولته من جميع نواحيه تناولاً دقيقاً شاملاً ، لم أفرغ إلى تحريرها إلا بعد التهيؤ لها بالقراءة الطويلة المستوعبة ، وجمع النصوص من مختلف مظانها العلمية والأدبية ، وتخير الشواهد والأمثلة الحية من نثر البلغاء وشعر الفحول ، فتألف من مجموعها موسوعة ضخمة ترضى عقل العالم ، وعاطفة الأديب وذوق الفنان ، وهي — فوق ذلك — تغني عن الرجوع إلى المصادر البلاغية المتعددة ؛ بما ضمت من قديم يفرض وجوده على كل عصر ، وما حوت من جديد قضى به تقدم الحضارة ، ورقى الفكر ، وتغير البيئة ، وتطور اللغة ، وتشعب أساليب البيان .

وكان من همي ألا أقبل رأياً بدون نظر وبحث ، وأن أدرس المذاهب المختلفة وأنخلها ، وأميز عليها من صحيحها ، وغثها من سمينا ، دون تأثر بهوى أو عصبية ، وأن أجعل من بينها للدراسات الحديثة مكاناً ملحوظاً: من تحليل أدبي ، ونقد قويم ، وموازنة عادلة ، مستعينا على ذلك بما لا يصح للدارس جهله من مباحث علم النفس ، وفلسفة الفن والجمال .

ولست أدعى العصمة من الخطأ والبراءة من الزلل ، فالكمال لله وحده ، وهو ولي الإينعام والتوفيق ، وهو نعم المولى ونعم النصير .

الفصل الأول

حد البيان

معناه في اللغة :

البيان في اللغة : اسم بمعنى الفصاحة واللسن مع الذكاء ، وهو أيضاً : ما يبين به الشيء من الدلالة وغيرها .

وفعله « بان » الثلاثي يستعمل لازماً فقط ، وغيره من الأفعال وهي :

أبان ، وبين ، وتبين ، واستبان تستعمل لازمة ومتعدية .

ومادته كلها تفيد الوضوح والانكشاف .^(١)

البيان في رأى قدماء :

والبيان عند قدماء على أربعة وجوه :

١ - بيان الأشياء بذواتها وإن لم تبين بلغاتها ، وهو ما يسمى : لسان الحال ،

أو دلالة الحال ؛ كقول بعضهم : سل الأرض فقل : من شق أنهارك

وغرس أشجارك ، وجنى ثمارك ، فإن لم تجبك حواراً أجابتك اعتباراً .

وكقول نصيب يمدح سليمان بن عبد الملك :

فعا جوا فأنشوا بالذى أنت أهله ولو سكتوا أثنت عليك الحقائق

٢ - البيان الذى يحصل فى القلب عند أعمال الفكرة واللب ، فيصير صاحبه

عالماً بمعانى الأشياء مستيقناً لها ، ويخص باسم « الاعتقاد » .

٣ - البيان الذى هو نطق باللسان للإخبار عما فى النفس من الحكمة المستفادة

والمعرفة المكتسبة ، وهو أوضح مما تقدم وأعم نفعاً .

(١) المعجمات اللغوية مادة « بان »

٤ - البيان بالكتاب ليبلغ من بُعد أو غاب ، وهو والذي قبله يتغيران بتغير اللغات ، ويتباينان بتباين الاصطلاحات. (١)

وهذه الوجوه كما ترى مرتبة ترتيباً تصاعدياً ، يأخذ بعضها بحجز بعض ، فالأول يفضى إلى الثاني ، والثاني يسلم إلى الثالث ، والثالث يؤدي إلى الرابع .
البيان في رأى الجاهظ . (٢)

وقد سبق الجاحظ قدامة بالتكلم في فضل البيان وتقسيمه ، وهو عنده مرادف للدلالة .

يقول : جميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ : خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد .
١ - اللفظ .

٢ - الإشارة باليد وبالرأس وبالعين والحاجب والمنسكب - إذا تباعد الشخصان - وبالثوب وبالسيف .

والإشارة واللفظ شريكان ، ونعم العون هي له ، ونعم الترجمان هي عنه وما أكثر ما تنوب عن اللفظ ، وما تغني عن الخط .

وقد قال الشاعر في دلالات الإشارة : (٣)

أشارت بطرف العين خيفة أهلها إشارة مذعور ولم تتكلم
فأيقنت أن الطرف قد قال مرحباً وأهلاً وسهلاً بالحبيب المقيم
وقال الآخر :

وللقب على القلب دليل حين يلقاه
وفي الناس من الناس من مقاييس وأشياء
وفي العين غنى للسر أن تنطق أفواه

(١) قد التزم من ص ٩ إلى ١١ « طبع وزارة المعارف »

(٢) انظر البيان والتبيين ج ١ ص ٧٧ إلى ٨٣ « طبع السندوني »

(٣) أكثر هذه الأمثال من اختيار المؤلف .

وقال أبو الشيص :

دموع العاشقين إذا تلاقوا
بظهر الغيب ألسنة القلوب

وقال إبراهيم بن المهدي :

إذا كنتي بالعيون الفواتر
رددت عليها بالدموع البوادر

فلم يعلم الواشون ما دار بيننا
وقال ابن المعتز أو غيره :

تفقد مساقط لحظ المريب
فإن العيون وجوه القلوب

وطالع بوادره في الكلام
فإنك تجني ثمار الغيوب

وقال بعض الأعراب :

وليل لم يقصره رقاد
وقصر طوله وصل الحبيب

نعيم الحب أورك فيه حتى
تناولنا جناه من قريب

بمجلس لذة لم نقو فيه
على شكوى ولا عد الذنوب

بخلنا أن نقطعه بلفظ
فترجت العيون عن القلوب

وقال آخر :

تكلم منا في الوجوه عيوننا
فنحن سكوت والهوى يتكلم

ونغضب أحياناً ونرضى بطرفنا
وذلك فيما بيننا ليس يعلم

وقال آخر :

إذا نحن خفنا الكاشحين فلم نطق
كلاما تكلمنا بأعيننا شزرا

نصد إذا ما كاشح مال طرفه
إلينا ونبدى ظاهراً بيننا هجرا

فإن غفلوا عنا رأيت خدودنا
تصافح أو ثغراً قرعنا به ثغرا

وقال آخر :

جعلنا علامات المودة بيننا
دقائق لحظ هن أمضى من السحر

فأعرف منها الوصل في لين لحظها وأعرف منها الهجر في النظر الشرر
وهو مأخوذ من قول بعض البلغاء : اللحظ يعرب عن اللفظ (١)
وقال الفرزدق (٢) في لغة الحوارج :

هل تذكرين إذ الركاب مُنَاخَةٌ برجالها لرواح أهل الموسم
إذ نحن نسترق الحديث وفوقنا مثل العجاج من الغبار الأقم
وكذلك نخبر بالحوارج بيننا ما في النفوس ونحن لم نتكلم
وقال إسحاق الموصلي في لغة العيون والحوارج :

ولما رأينا البين قد جد جدّه ولم يبق إلا أن تبين الركائب
دنونا فسلمنا سلاماً مخالساً فردت علينا أعين وحوارج
وقال الناشئ في أكثر من ذلك :

فلما تلاقينا كتبنا بأعين لنا كتباً أعجمها بالحوارج
فلما قرأناهن سرّاً طوبى لها حذار الأعادي بازورار المناكب

٣ — العَقْد : وهو الحساب ويكنى في فضيلته قوله تعالى : « هو الذي جعل
الشمس ضياءً والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ،

٤ — الخط : وقد قالوا القلم أحد اللسانين .

٥ — النَّصْبَة ؛ وهي الحال الناطقة بغير اللفظ والمشيرة بغير اليد ، وقد سماها
قدامة فيما سبق : « بيان الأشياء بذواتها ،

وذلك ظاهر في خلق السموات والأرض ، وفي كل صامت وناطق ،
وجامد ونام ، ومقيم وظاعن ، وزائد وناقص ؛ فالدلالة التي في الموات
الجامد كالدلالة التي في الحيوان الناطق ، فالصامت ناطق من جهة الدلالة ،
والعجاء معربة من جهة البرهان .

وما أحسن قول بعض الخطباء : أشهد أن السموات والأرض آيات
دالات وشواهد قائمات ، كل يؤدي عنك الحجة ، ويعرب عنك بالربوبية ،
موسومة بآثار قدرتك ، ومعالم تديريك التي تجليت بها لخلقك ، فأوصلت
إلى القلوب من معرفتك ما آنسها من وحشة الفكر ورجم الظنون ، فهي
على اعترافها لك وذلتها إليك ، شاهدة بأنك لا تحيط بك الصفات ، ولا تحدك
الأوهام ، وأن حظ الفكر فيك الاعتراف لك .

وبذلك يتفق قدامة مع الجاحظ في بيان اللفظ ، وبيان الخط ، وبيان الحال .
وينفرد قدامة ببيان القلب وهو الاعتقاد .

وينفرد الجاحظ ببيان الإشارة ، وبيان العقد وهو الحساب .

وصفوة القول أن البيان عند الجاحظ : اسم جامع لكل شيء كشف لك
قناع المعنى ، وهتك الحجب دون الضمير ، حتى يفرض السامع إلى حقيقته ،
ويهجم على محضه ، كائناً ما كان ذلك البيان ، ومن أي جنس كان ذلك
الدليل ، لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع إنما هو الفهم
والإفهام ، فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى ، فذلك هو البيان
في ذلك الموضع .

ويقول الحصري في قول أبي الطيب يمدح أبا العشائر الحمداني :

تنشد أثوابنا مدائحَه بألسن ما لهن أفواه
إذا مررنا على الأصم بها أغنته عن مسمعيه عيناه

وهذا المعنى من القضية الدالة بذاتها التي ذكرتها عن الجاحظ في أقسام البيان .

معناه في الاصطلاح

وقد عرف علماء البلاغة البيان : بأنه علم يعرف به إيراد المعنى الواحد
بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه .

والمراد بالطرق : التراكيب

ومعنى الاختلاف في الوضوح : أن يكون بعض هذه التراكيب أوضح
دلالة من بعض مع وجود الوضوح في الجميع .

فالوضوح هنا أمر نسبي بحسب إضافة بعضها إلى بعض ، والتراكيب كلها جلية بينة ، والتفاوت بينها إنما هو في شدة الوضوح وضعفه تبعاً لمقتضيات الأحوال وتباين المقامات ؛ وأما الخفاء الحقيقي الذي ينصرف إليه اللفظ عند الإطلاق ، لعلّه تلحق صورة الكلام أو معناه ، فهو التعقيد والاستغلاق والإبهام الذي يناقض البيان في سره وجوهره ، وغايته وغرضه .

أمثلة لإيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة .

مثال ذلك الوصف بالكرم ، فقد أورد فيه المتنبي ما يتعب حصره من العبارات ؛ مثل قوله :

لم أعرف الخير إلا مذكرفت في لم يولد الجود إلا عند مولده
يعطيك مبتدراً فإن أعجلته أعطاك معتدراً كن قد أجرما
يا من لجود يديه في أمواله نقم تعود على اليتامى أنعما

* * *

أرجو نداك ولا أخشى المطال به يا من إذا وهب الدنيا فقد بخلا
تمثلوا حاتمًا ولو عقلوا لكنت في الجود غاية المثل (١)

* * *

يا ذا الذي يهب الكثير وعنده أنى عليه بأخذه أتصدق
أمطر على سحاب جودك ثرة وانظر إلى برحة لا أغرق (٢)

* * *

غمام علينا بمطر ليس يقشع ولا البرق فيه خلباً حين يلمع
إذا عرضت حاج إليه فنفسه إلى نفسه فيها شفيع مشفع

* * *

(١) تمثلوا حاتمًا : أي ضربوه مثلاً في الجود .
(٢) ثرة : غزيرة .

يا من ألوذ به فيما أومله ومن أعوذ به بما أحاذره
ومن توهمت أن البحر راحته جوداً وأن عطاياها جواهره

* * *

فما بفقر شام برقك فاقة ولا في بلاد أنت صيِّبها محل

* * *

تباعد ما بين السحاب وبينه فنائلها قطر ونائله غمر
ولو تنزل الدنيا على حكم كفه لأصبحت الدنيا وأكثرها نزر

* * *

ماذا البهاء ولاذا النور من بشر ولا السماح الذي فيه سماح يد
أى الألف تبارى الغيث ما اتفقاً حتى إذا افترقا عادت ولم يعد

* * *

حقيق على يدّر اللجين وما أنت بإساءة وعن المسمى صفوح^(١)
لو فرّق الكرم المفرق ما له فى الناس لم يك فى الزمان شحيح
لو كنت بحرأ لم يكن لك ساحل أو كنت غيثاً ضاق عنك اللوح^(٢)
وخشيت منك على البلاد وأهلها ما كان أنذر قوم نوح نوح

* * *

كأنك فى الإعطاء للمال مبغض وفى كل حرب للمنية عاشق
فما ترزق الأقدار من أنت حارم ولا تحرم الأقدار من أنت رازق

* * *

وثقنا بأن تعطى فلو لم تجد لنا لخلقناك قد أعطيت من قوة الوهم
وأطمعنى فى نيل ما لا أناله بما نلت حتى صرت أطمع فى النجم

* * *

أَتَيْنَاهُ نَطَالِبُهُ بِرَفْدِ فَطَالِبِ نَفْسِهِ مِنْهُ بَدِينِ

* * *

كَأَنَّ سَخَاءَكَ الْإِسْلَامُ تَخْشَى إِذَا مَا حُلَّتْ عَاقِبَةُ ارْتِدَادِ

* * *

إِذَا عُدَّ السَّكْرَامُ فَتَكَ عِجْلُ كَمَا الْآنَوَاءُ حِينَ تَعْدُ عَامُ (١)
وَلَوْ يَكْمُمُتُهُمْ فِي الْحَشْرِ تَجْدُو لِأَعْطَوْكَ الَّذِي صَلَّوْا وَصَامُوا (٢)

* * *

سَنَى الْعَطَايَا لَوْ رَأَى نَوْمَ عَيْنِهِ مِنْ اللَّوْمِ آلَى أَنَّهُ لَا يَهْوِمُ (٣)
وَلَوْ قَالَ هَاتُوا دَرَاهِمًا لَمْ أَجِدْ بِهِ عَلَى سَائِلٍ أَعْيَا عَلَى النَّاسِ دَرَاهِمَ

* * *

وَلَجَدْتَ حَتَّى كَدْتَ تَبْخُلُ حَائِلًا لِلْمُنْتَهَى وَمِنْ السَّرُورِ بَكَاهُ (٤)
لَمْ تَحْكُ نَائِلَكَ السَّنَابَ وَإِنَّمَا حَمَّتْ بِهِ فَصِيْبُهَا الرُّحْضَاءُ (٥)

* * *

إِنَّكَ مِنْ مَعْشَرٍ إِذَا وَهَبُوا مَا دُونَ أَعْمَارِهِمْ فَقَدْ بَخَلُوا

* * *

مَا بِهِ قَتْلُ أَعَادِيهِ وَلَكِنْ يَتَّقِي إِخْلَافَ مَا تَرْجُو الذَّنَابَ

* * *

سَفَكَ الدَّمَاءَ بِجُودِهِ لَا بِأَسِهِ كَرَّمَا لِأَنَّ الطَّيْرَ بَعْضُ عِيَالِهِ

* * *

أَخْلَعْتَ مَوَاهِبَكَ الْأَسْوَاقَ مِنْ صَنْعٍ أَغْنَى نَدَاكَ عَنِ الْأَعْمَالِ وَالْمِهْنِ

(١) عجل : قبيلة الممدوح . (٢) تجدو : تسأل العطاء .

(٣) آلى : أقسم ، وهوم : هز رأسه من النعاس .

(٤) يقول قد جدت إلى نهاية الجود ولم تترك مزيداً فسكنت تحول إلى البخل ، لأنه ليس بعد التام غير التقصان عملاً بسنة الطبيعة ؛ وهو من معانيه الدقيقة . (٥) الرحضاء : عرق الحمى .

ذا جود من ليس من دهر على ثقة وزهد من ليس من دنياه في وطن

* * *

يعطى المبشر بالقصاد قبلهم كمن يبشره بالماء عطشاناً

* * *

وإن سحاباً جوده مثل جوده سحاب على كل السحاب له نخر

* * *

إن كان فيما نراه من كرم فيك مزيد فزادك الله

* * *

وكأنما جدواه من إكثاره حسد لسائله على إقلاله^(١)

* * *

تشبيه كفك بالأمطار غادية جود لكفك ثان ناله المطر

* * *

لا تطلبن كريماً بعد رؤيته إن الكرام بأسخاهم يدأ ختموا

* * *

فنى لا يرجى أن تتم طهارة لمن لم يطهر راحتيه من البخل

* * *

ما سمعنا بمن أحبَّ العطايا فاشتبهى أن يكون فيها فؤاده

* * *

لو فطنت خيله لنائله لم يُرضها أن تراه يرضها^(٢)

لا تجد الخمر في مكارمه إذا انقش خلة تلافها^(٣)

(١) يقول كأنه يحسد سائله على فقره فيعطيه كثيراً ليفتقر مثله !

(٢) أى لو علمت خيله حقيقة جوده لم يسرها أن تعجبه لأنها إن أعجبتته وهبها للناس.

(٣) الخلة لفتح : الخصلة ، والمعنى أنت نشوة الشراب لا تریده مروة على مروهته ؟

لأن مكارمه تامة قبل أن يشرب .

هذه أبيات تعمدنا أخذها بمقالة شاعر واحد في معنى واحد وهو الكرم .
 فيا ليت شعري كم عسى يبلغ ما قاله الشعراء جميعا فيه ، ولا سيما إذا عرفنا أن
 هذا الخلق من الأخلاق السامية التي مدح بها الناس كثيراً منذ أن عرف المديح .
 وإنك لو اجد إذا نظرت في هذه الأبيات فنونا من القول وضروبا
 من الكلام ؛ فمن تشبيه إلى استعارة إلى كناية إلى لون آخر لا ينتظم فيها ،
 وكل منها يتشقق إلى شعب كثيرة تختلف في الزى وتنسب إلى أصل واحد .
 ثم هي — إلى ذلك — تتنافس في الحسن وتبأري في الجمال ، وتبرز في
 معارض متباعدة من الوضوح ، فهذا يسفر حتى يفهمه العامة ، وذلك يلطف حتى
 لا يدركه غير الخاصة ، ولكن أحداً من الناس لا يستطيع أن يقول : إن
 آفة لفظية أو معنوية عسرت مسلكه ، وطمست معالمة .

وهذه أبيات وردت في وصف الخال لعدة شعراء مع ملاحظة أن
 الخيلان لم تشغل أذهان الشعراء كما شغلها غيرها من سمات الملاحظة والجمال ،
 ومع ذلك استطاعوا أن ينوعوا التعبير ، ويتفننوا في الأداء ، بالرغم من
 وحدة المعنى :

قال ابن منير الطرابلسي :

ما خاله من فتيت عنبر صدغيه م ولا قطر صبغة الكحل^(١)
 لكن سويداء قلب عاشقه طفت على نار ورده الخجل
 وقال أيضاً :

أنكرت مقلته سفك دمي وعلى وجنته فاعترفت
 لا تخالوا خاله في خده قطرة من صبغ جفن نطفت^(٢)

(١) الكحل بفتح الكاف والخاء : سواد العين خلقة ، وفي ذلك يقول الشاعر :

ليس التكحل في العينين كالكحل

(٢) نطف : سال .

تلك من نار فؤادى جذوة
وقال آخر :

لا تخالوا الخال يعلو خده
ذاك قلبي سلبت حبيته
وقال آخر :

كم قلت للنفس إليه اذهبي
مهفف القد له شامة
وقال حسام الدين الحاجري :

ومهفف من شعره وجبينه
لا تتكروا الخال الذى فى خده
وقال آخر :

بدا على خده خال يزينه
كأن حبة قلبي عند رؤيته
وقال آخر :

لهيب الخد حين رآته عيني
فأحرقه فصار عليه خالا
وقال آخر :

خيلا ن خدك ردت
فى العين سود ولكن
وقال آخر :

حجّت إلى وجهك أبصارنا
طائفة يا كعبة الحسن

تمسح خلا منك في وجنة
وقال العباس بن الأحنف :

ومحجوبة في الخدر عن كل ناظر
بخال بذاك الخد أحسن منظراً
وقال كشاجم :

فديت زائرة في العيد واصله
فلم يزل خدها زكناً ألوذ به
وقال آخر :

وبين الخد والشفتين خال
تحيّر في الرياض فليس يدرى
وقال الشاب الطريف :

أدنته لى سنة الكرى فليثمة
ما راعنى إلا بلال الخال من
وقال ابن نباتة :

لله خال على خد الحبيب له
أورثته حبة القلب القليل به
فانظر كيف دار هذا الشعر كله حول معنى واحد ، وهو وصف الخال
بالسواد وصف تزيين ، مع التعليل الشائق لهذا السواد .

وهكذا قل أن نجد معنى لم يتناول به الشعراء بأساليب متنوعة وبخاصة
في العصور السالفة ، لأن الشعراء حصرُوا أنفسهم في دائرة ضيقة ، وحجروا
ما وسعه الله عليهم ، فقلّت لديهم المعاني وكثرت الألفاظ ، فالمدائح مثلاً
لا تسكاد تخرج عن الشجاعة والكرم ، والغزل كله أنفق في وصف مفاتن
المرأة البدنية .

فلهذا كثر الاغتصاب الأدبي والأخذ والسرقة حتى وجدنا من يستحل ذلك جهرة ولا يتحرج منه كالفرزدق^(١).

واختلاف التراكيب من الأدباء والشعراء مع الاتفاق في المعاني ، مما تحتمه الطبيعة الإنسانية ، فكما يختلف الناس في ألوانهم وسماتهم وأخلاقهم وأمزجتهم وعواطفهم ، ونظرهم إلى الأشياء وكيفية تناولهم لها ، لا بد أن يختلفوا في صياغة كلامهم ونسجه وتحبيره وتنميقه شعراً ونثراً وخطباً ، حتى لا تجد تعبيرين يتحدان إلا أن يكون أحدهما سرقة أو تقليداً للآخر ؛ أو يكون من باب اتفاق الخواطر وهو نادر لا يعتد به ، ومن ثم صح قولهم : إن الأسلوب هو السكايب ، أو هو الرجل^(٢).

الفصاحة والبلاغة والبيان :

والفصاحة والبلاغة والبيان تشترك في كثير من المعاني ، ويختص كل واحد منها بما ليس عند الآخر .

فالفصاحة أصلها الخلوص من الشوائب ، وتكون بالنسبة إلى اللفظ من وجهين : أحدهما أن يُخرج المتكلم الحروف من مخارجها ، ويخلص بعضها من بعض .

والثاني أن يكون اللفظ مما تداوله فصحاء العرب وكثر في كلامهم . وتكون بالنسبة للمعنى : خلوصه من غيره . ومعنى البلاغة : انتهاء الشيء إلى غايته المطلوبة .

وتتعلق بالمعنى فقط ، وهو أن يبلغ من نفس السامع مبلغه .

والبيان في عرف الكلام أتم من الفصاحة والبلاغة ؛ لأن كل واحد منهما من مادته وداخل في حقيقته ، لذلك قلنا : علم البيان ، وتكلمنا فيه عن

الفصاحة والبلاغة وغيرها ، ولم يوضع علم للفصاحة ولا علم للبلاغة (١) .

ومما تقدم نفهم أن البيان يطلق على معنيين :

١ - معنى أدبي واسع يشمل الإفصاح عن كل ما يختلج في النفس من المعاني والأفكار والأحاسيس والمشاعر بأساليب ، لها حظها الممتاز من الدقة والإصابة والوضوح والجمال ، وهو بهذا التعميم يجمع فنون البلاغة الثلاثة : المعاني والبيان والبديع .

وهذا المعنى هو المراد عند إطلاق لفظ البيان ، وإياه يعنى جعفر البرمكي - حين سئل عن البيان - فقال : أن يكون الاسم يحيط بمعناه ، ويكشف عن مغزاه ، ويخرجه عن الشركة ، ولا يستعان عليه بالفكرة ، ويكون سليماً من التكلف بعيداً عن الصنعة ، بريئاً من التعقيد ، غنياً عن التأويل (٢) .

وقال فيه الرماني : هو إحضار المعنى للنفس بسرعة إدراك .

وإنما قيل ذلك لئلا يلتبس بالدلالة ، لأنها إحضار المعنى للنفس وإن كان بإبطاء .

وقال : الكشف عن المعنى حتى تدركه النفس من غير عقلة .

وقد قيل ذلك ، لأنه قد يتأقن التعقيد في الكلام الذي يدل ولا يستحق اسم بيان (٣) .

٢ - معنى علمي ضيق ، وهو التعبير عن المعنى الواحد بطريق الحقيقة أو المجاز ، أو الكناية كما سلف .

وهو أحد فروع البلاغة عند أهل الاصطلاح .

(١) الأقصى القريب لزبن الدين التنوخي - ٢٣٣

(٢) زهر الآداب ١ - ١٥٠ (٣) العمدة ١ - ١٦٩ - ١٧٠

(م - ٢ - فن التشبيه)

الفصل الثاني

الدلالات

قد اقتضاهم جعل الدلالة جزءاً من تعريف البيان ، أن يعرضوا لتقسيمها
وبيان الدلالة المقصودة هنا ، فقالوا . إن الدلالة اللفظية ثلاثة أقسام :

١ - دلالة المطابقة .

وهي دلالة اللفظ على تمام ما وضع له ، كدلالة الإنسان على مجموع
الحيوان والناطق ، ودلالة البيت على مجموع الجدار والسقف .
سميت بذلك لتطابق اللفظ والمعنى : أى توافقهما ، أو لتطابق الفهم
والوضع : بمعنى أن ما فهم هو ما وضع له اللفظ .

٢ - دلالة التضمن .

وهي دلالة اللفظ على جزء ما وضع له ، أو جزء مسماه مع دخوله فيه
كدلالة الإنسان على الحيوان فقط ، ودلالة البيت على الجدار أو السقف .
سميت بذلك لأن الجزء المفهوم من اللفظ هو فى ضمن المعنى السكلى ، فيفهم
عند فهمه .

٣ - دلالة الانتراس .

وهي دلالة اللفظ على معنى خارج عن مسماه لازم له ^(١) ؛ كدلالة
الإنسان على معنى الضاحك ، ودلالة السقف على الجدار ، فإنه خارج عنه ،
لازم له لا جزء منه .

سميت بذلك لأن المدلول فيها لازم للمعنى الموضوع له اللفظ .

(١) يكتب بالزوم هنا بالزوم الذهبى ، وهو ما يثبت ذهن المخاطب بسبب عرف عام

أو خاص أو قربة حال .

وتسمى دلالة المطابقة عند البيانين وضعية أيضا ، لأن السبب في حصولها عند سماع اللفظ أو تذكره ، هو معرفة الوضع فقط دون حاجة إلى شيء آخر .

وتسمى دلالة التضمن والالتزام عقليتين ، لأن حصولها بانتقال العقل من الكل إلى الجزء في الأولى ، ومن الملزوم إلى اللازم في الثانية ، بمعنى أن الواضع وضع اللفظ ليفيد جميع المعنى ، غير أن العقل اقتضى أن الشيء لا يوجد بدون جزئه أو لازمه .

وأكثر المناطق يجعلون الثلاث وضعيات ، لأن للوضع مدخلا فيها سواء أكان سببا تاما كما في الأولى ، أو لا بد من انتقال عقلي كما في الثانية والثالثة .

ويرى ابن الحاجب والآمدي : أن الأولى والثانية وضعيتان ، وأن الثالثة هي العقلية فقط ^(١) .

ويسمى السهروردي دلالة المطابقة : دلالة القصد . ودلالة التضمن : دلالة الحيلة ، ودلالة الالتزام : دلالة التطفل ^(٢) .

وقد عبر عبد القاهر عن الدلالة الوضعية والعقلية بعجالة مختصرة ، وهي أن نقول : المعنى ، ومعنى المعنى .

فنعني بالمعنى : المفهوم من ظاهر اللفظ ، وهو الذي يفهم منه بغير واسطة وبمعنى المعنى : أن يفهم من اللفظ معنى ، ثم يفيد ذلك المعنى معنى آخر ^(٣) .

المقصود بالدلالة العقلية :

وهم يذكرون : أن محاولة إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة بالزيادة والنقصان في وضوح الدلالة عليه ، لا يتأتى بالدلالات الوضعية ^(٤) .

(١) راجع شروح التلخيص - ٣ - ٢٦٣ إلى ٢٧٣

(٢) مناهج البحث عند مفكرى الإسلام الأستاذ سائى النشار .

(٣) نهاية الانحياز في دراية الإعجاز للرازي - ٩

(٤) مفتاح العلوم للسكاكي - ١٧٦

لأن السكالم والنقص والوضوح والخفاء لا يتطرق إليها ، فإذا قلت مثلاً : وجه كالدرد في الحسن ، فقد أعربت عن المعنى بالفاظ تدل عليه دلالة وضعية لغوية ، ومن المحال أن يعتور هذا المدلول نقص أو زيادة ، لأنك إن زدت في ألفاظها زدت في المعنى قطعاً ، وإن نقصت منها نقصت من المعنى حتماً ، وإن استبدلت بهما يرادفها لم تتغير الإفادة في ذهن السامع إذا كان عارفاً أنها موضوعة لإفادة المعاني التي فهمها من سابقتها ، وإن كان يحجل ذلك لم يفهم منها المعنى أصلاً .

وعلى هذا فلا يمكن وجود الوضوح والخفاء في الدلالة الوضعية ، لأن كل الأساليب التي تؤدي معنى بهذه الدلالة يمتنع أن يكون بعضها أتم وضوحاً أو أنقص عند العالم بوضع الألفاظ ، وأما غير العالم فليس له من سبيل إلى فهمها لتوقف الفهم على معرفة الوضع .
فالدلالة العقلية إذن هي التي يمكن بها إيراد المعنى بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه .

وقد نص عليها الخطيبي صراحة في تعريف آخر للبيان حيث يقول : هو علم يبحث عما يعلم منه كيفية إيراد المعنى في أفضل الطرق دلالة عقلية .^(١)
ويقول العلوي : محاسن الكلام لا يجوز أن تكون راجعة إلى الدلالات الوضعية لسببين :

أولاً : لأن الكلمة قد تكون فصيحة إذا وقعت في محل ، وغير فصيحة إذا وقعت في محل آخر .

فلو كان الأمر في الفصاحة والبلاغة راجعاً إلى مجرد الألفاظ الوضعية لما اختلف ذلك بحسب اختلاف المواضع .

وثانياً لأن الاستعارة والتشبيه والتمثيل والسكنانية من أعظم أبواب

الفصاحة وأبلغها ، وإنما كانت كذلك باعتبار دلالتها على المعاني لا باعتبار ألفاظها .

فصارت الدلالة على وجهين :

١ — دلالة وضعية ، وهذه لا تعلق لها بالبلاغة والفصاحة .

٢ — دلالة معنوية :

ودلالتها إما بالتضمن أو بالالتزام وهما عقليان من جهة أن حاصلهما هو انتقال الذهن من مفهوم اللفظ إلى ما يلزمه سواء أكانت تلك الملازمة تدل على جزء المفهوم وهي التضمنية ، أو على معنى يصاحب المفهوم ، وهي الدلالة الخارجية أو الالتزام^(١) .

وباتخاذهم الدلالة العقلية وحدها أساساً للوضوح والخفاء انحصر عندهم علم البيان ضرورة في بابين أصليين ، وهما المجاز والسكناية .
وخرج التشبيه لأن دلالة وضعية ، فهو من وادى الحقيقة لا المجاز .

وقد قرر عبد القاهر ذلك جلياً بقوله : إن كل متعاطٍ لتشبيه صريح لا يكون نقل اللفظ من شأنه ولا من مقتضى غرضه ، فإذا قلت : زيد كالأسد وهذا الخبر كالشمس في الشهرة ، وله رأى كالسيف في المضاء ، لم يكن منك نقل اللفظ عن موضوعه .

ولو كان الأمر على خلاف ذلك لوجب ألا يكون في الدنيا تشبيه إلا وهو مجاز ، وهو محال ، لأن التشبيه معنى من المعاني ، وله حروف وأسماء تدل عليه ، فإذا صرح بذكر ما هو موضوع للدلالة عليه كان الكلام حقيقة كالحكم في سائر المعاني ، فاعرفه^(٢) .

وإنما خصوا الاستعارة بالذكر — وهي مندرجة في المجاز فلشرفها وكثرة

(١) الطراز — ٣ — ٤١٣ — ٤١٤

(٢) أسرار البلاغة — ١٩٤ — ١٩٥

أنواعها ومباحثها وكونها معظم مقاصد علم البيان^(١) .

وإذ قد ذكر التشبيه في علم البيان ؟

أورد التفنازي هذا السؤال في شرح المفتاح وتولى هو بنفسه الإجابة عنه ، فقال : اعلم أن البيان إنما ينظر في الدلالات العقلية ، والتشبيهات من حيث هي تشبيهات تكون بالدلالة الوضعية ، فكيف يكون التشبيه من مقاصد البيان كما يشعر بذلك جعله أصلاً ثالثاً ؟

والجواب : إنما أخذ أصلاً من علم البيان لضرورة ابتناء الاستعارة عليه فلا يكون من أصوله بالذات ، فلا يلزم أن يكون البحث فيه عن الدلالات العقلية^(٢) .

وهو مختصر قول السكاكي . . . إن المجاز — أعني الاستعارة — من حيث أنها من فروع التشبيه لا تتحقق بمجرد حصول الانتقال من الملزوم إلى اللازم ، بل لا بد فيها من تقدم تشبيه شيء بذلك الملزوم في لازم له ، تستدعي تقديم التعرض للتشبيه ، فلا بد من أن نأخذه أصلاً ثالثاً ونقدمه^(٣) . وبذلك أصبحت أصول البيان أربعة .
أصلان ذاتيان وهما المجاز والكناية .
وواحد وسيلة وهو التشبيه .

وواحد جزء من أصل وهو الاستعارة .

سواء هم بالمرجع في هذا المختصر .

وكانهم شعروا بالاعتراض على جعل التشبيه أصلاً في البيان ، لا شيء غير بناء الاستعارة عليه ، فقالوا — يبررون عملهم : — بأنه لما كان في التشبيه

(١) شرح الفوائد الغيائية للعولي عصام الدين — ١٩٤

(٢) حاشية المرشدي على شرح عقود الجمان — ٢ — ٦

(٣) المفتاح — ١٧٧

مباحث شريفة وفوائد لطيفة . جعل مقصداً برأسه لا مقدمة ، وإن كان هو في الحقيقة كذلك (١) .

وقد حمل المولى عصام على السكاكى حملة عنيفة لعهده التشبيه أصلاً ثالثاً في البيان ! فقال : إن ما قرره السكاكى يستدعى تقديم التشبيه على الاستعارة وجوباً ، وعلى المجاز استحساناً ، كيلا يقع الفصل به بين أنواع المجاز ، وأما أخذه أصلاً ثالثاً فلا يستدعيه أصلاً ، بل الواجب أن يجعل مقدمة خارجة عن مقاصد هذا الفن ، ويؤيده ما قيل : من أن دلالات التشبيهات من حيث هي ، دلالات وضعية لا عقلية .

ثم ساق عذره : بأنه وإن كان في الحقيقة مقدمة خارجة ، ولكن له لكثرة مباحثه وأقسامه ، وعموم تفاصيله وأحكامه ، وتشعب فروعه ، وقوة نفعه في المطالب البيانية قد ارتقى عن أن يجعل مقدمة ، فلهذه الضرورة قد اتخذها أصلاً ادعائياً لاحقياً ، ولا يذهب عليك أن في جعل التشبيه أصلاً ثالثاً من البيان بهذا القدر تكلفاً بارداً أراد السكاكى ترويجه بالمبالغة في العبارة حيث قال هنا : فلا بد من أن نأخذه أصلاً ثالثاً ، مع أنه قال في الأصلين الحقيقيين « المجاز ، و « السكناية » : « فلا علينا أن نتخذهما أصليين » (٢) .

والحق أن هذا الحصر لا يستقيم لهم ما داموا يسلمون بأن التشبيه مقصد غير أساسى في البيان ، وأنه وسيلة أو مقدمة لبعض أنواع المجاز ، ولا ينفعهم أن يقولوا : إنه أمحل ادعائى .

ويظهر أن السكاكى قد لحظ هذا التناقض ، فاعترف بأنه تكلف هذا الحصر للضبط . (٣)

وقد سلك بعضهم في الحصر طرقاً أخرى بعيدة عن تمحل السكاكى ، يصير بها التشبيه ركناً أصيلاً في البيان ، وهى الحقيقة التى لا يصح الامترام فيها .

(١) حاشية المرشدى - ٢ - • (٢) شرح الفوائد الغياية - ١٩٥

(٣) المفتاح - ١٧٧

فالطبيعي يقول : اعتبار المبالغة في إثبات أصل المعنى للشيء إما على طريق الإلحاق أو الإطلاق ، والثاني إما إطلاق الملزوم على اللازم أو عكسه ، وما يبحث فيه عن الأول : لتشبيهه ، وعن الثاني : المجاز ، وعن الثالث : الكناية .
فانحصر الكلام في الثلاثة .^(١)

ويقول كمال الدين البحراني : إن اللفظ إما أن يستعمل في المعنى الموضوع له فهو الحقيقة ، أو فيما له علاقة به بحيث ينتقل الذهن من الموضوع له في الجملة — وهو المسمى عندهم باللازم — وهو إما أن تكون علاقته المشابهة أو غيرها ، فعلى الأول إن كانت معه قرينة تنافي إرادة المعنى الموضوع له كان استعارة وإن لم يكن كان تشبيها .

وعلى الثاني أيضا إن كانت معه تلك القرينة المانعة كان مجازاً مرسلًا ، وإن لم تكن كان كناية .

فأصول البيان أربعة ، فإذا ضمنت الاستعارة إلى المجاز المرسل للاشتراك في المجاز صارت ثلاثة .

ويظهر من هذا أن التشبيه أصل حقيقي من أصول هذا الفن ، ألا يرى أن له مراتب متفاوتة في الوضوح ، وأن فيه من النكت واللطائف البليغة ما لا يحصى .

وما يقال من أن المقصود الأصلي في التشبيهات هو المعاني الوضعية فقط ليس بشيء ، فإن قولك : وجه كالبدر مثلا لا تريد به ما هو مفهومه وضعا ، بل تريد أن ذلك الوجه في غاية الحسن ونهاية اللطافة ، لكن إرادة هذا لا تنافي لإرادة المفهوم الوضعي^(٢) .

ويقول التفتازاني : إنه لا يلزم أن نظر البياني مقصور على الدلالات العقلية فقط ، وإنما اللازم ألا يكون في الوضعية وحدها ، بل في العقليات

(١) شرح السيوطي لمنظومته عقود الجمان - ٢ - ٥

(٢) هامش شرح الفوائد الغيائية - ١٩٥

الصرقة، أو في الوضعيات والعقليات جميعاً، لأن إيراد المعنى الواحد بالطرق المختلفة الوضوح يمكن بجميع ذلك بأن يكون الطريق الأوضح غاية الوضوح من الوضعيات وما سواه من العقليات. (١)

ويقول المولى عصام: دلالة التشبيهات من حيث هي: دلالات وضعية لا عقلية... ولكن ليس المقصود الأصلي هو المعاني الوضعية فقط، فإن قولك: وجه كالبدر مثلاً لا تريد به ما هو مفهومه وضعاً، بل تريد ذلك الوجه المتناهي في الحسن، لكن ذلك لا يناقض إرادة المفهوم الوضعي. (٢)

ويقول ابن يعقوب: إذا قلت وجه كالبدر، فمدلوله المطابق أن الوجه يشبه البدر في الاستدارة والاستنارة، وهو المراد مع إرادة لازمه وهو أنه في نهاية في الحسن... ولصحة أن يراد في التشبيه المعنى المطابق - وهو اتصاف المشبه بوجه الشبه - أو لازمه صح وجود الخفاء والوضوح فيه. مع أنه ليس من السكناية ولا من المجاز بل من المطابقة اتفاقاً.

وعلى هذا ينبغي أن يجعل من الحقيقة أيضاً فهم خواص التراكيب ومناسبتها لمقتضى الحال، فلا يكون من المجاز ولا من السكناية أيضاً.

وكل ذلك مما يقدح في حصر وجود دلالة الخفاء والوضوح في التضمن والالتزام اللتين هما العقليتان، وهما أصل للمجاز والسكناية دون المطابقة. (٣)

ويقول الدسوقي: ويمكن أن يقال: إنه - أي التشبيه - باب مستقل لذاته؛ لأن الاختلاف في وضوح الدلالة وخفائها موجود فيه، فهو من هذا

(١) حاشية المرشدي - ٢ - ٦

(٢) شرح الفوائد الغيائية - ١٩٥

(٣) مواهب الفتاح - ٣ - ٢٨٨

الفن قصد آ وإن توقف عليه بعض أبوابه ، لأن توقف بعض الأبواب على بعض لا يوجب كون المتوقف عليه مقدمة للفن ^(١) .

ومن هذه الأقوال المتقدمة نخرج بالتأنيج الآتية :

- ١ — أن الوضوح والخفاء يتأنيان بدلالة المطابقة .
- ٢ — ليس دقيقا مذهب من يقصر الوضوح والخفاء على الدلالة العقلية وحدها .

٣ — يدخل التشبيه في البيان دخولا أساسيا ، وهو أصل حقيقى فيه لا ادعائى ، كما أنه ليس بمقدمة للاستعارة ولا وسيلة لها .

ويجب أن يكون مفهوما أن هذه : الأحكام جارية على القول المشهور من أن دلالة التشبيه وضعية .
فأما على قول السعد فى شرح المفتاح : تشبيهات البلغاء قلما تخلو من مجازات وكنائيات ^(٢) .

وقول الحموى : والمجاز جنس يشتمل على أنواع كثيرة ؛ كالاستعارة والمبالغة والإرداف والتمثيل والتشبيه ، وغير ذلك مما عدل فيه عن الحقيقة الموضوعية للمعنى المراد ^(٣) .

وعلى رأى من يقول : بأن بعضه مجاز وهو المحذوف الأداة ، أو كله مجاز كما يرى ابن الأثير ^(٤) وكما يفهم من قول ابن رشيق فى العمدة ^(٥) ، وكانقله ابن

(١) حاشية الدسوقي — ٣ — ٢٩٠

(٢) طراز المجالس للخفاجى — ٤٨ (٣) خزانة الأدب — ٥٣٢

(٤) اللؤلؤ السائر — ١٤١ وذكر ذلك فى كتابه كنز البلاغة كما نقل ابن السبكي . عروس

الأفراح — ٣ — ٢٩٠

(٥) العمدة — ١ — ١٧٨ « باب المجاز »

السبكي عن والده في تفسيره ^(١)، فدخوله في البيان أصالة لا يحتاج إلى بيان .
ومن هنا نفهم أنه لم يكن معنى لهذا الحصر الذي تكلفه السكاكي وشغل
به الأذهان والأقلام دون فائدة .

بل لا معنى لإيقام الدلالات في هذا الفن فضلا عن التفرقة بينها في الوضوح
والخفاء ، لأن ذلك من مقاصد المنطق ، وموضوع البيان - كما يقول العلوي -
هو الفصاحة والبلاغة ومعرفة أساليبيهما وهما بمعزل عن علم المنطق ، فلا ينبغي
أن يمزج أحدهما بالآخر لاختلاف حقائقهما ^(٢) .

وأحسب أنهم فطنوا إلى تطفل الدلالات على البيان ، فرأينا السيوطي
في شرحه لمنظومته عقود الجمان يوجه لنفسه هذا السؤال : ما بالك تكلمت على
تقسيم الدلالة وذلك من علم المنطق ؟

وقد تبرع بالجواب كما تبرع بالسؤال فقال : قلت : ليست منه بل هذا
أمر لغوي ، وهم مصرحون بأنه ليس من عملهم ، وأنهم يذكرونه في كتبهم
لاحتياجهم إليه .

وقد ظهر لنا جليا أنهم ليسوا في حاجة إلى ذلك ، ومن الغريب أن يصدر
هذا القول ممن يقول : رزقت التبحر في سبعة علوم : التفسير والحديث
والفقه والنحو والمعاني والبيان والبديع على طريقة العرب والبلغاء لا على
طريقة العجم وأهل الفلسفة ^(٣) .

ونحب أن نبين لهذه المناسبة : أن تعرضنا لمبحث الدلالات لا يعني
اعتقادنا بغنائها فيما نحن بسبيله ، ولكن لنصل إلى مقطع الحق في هذا الجدل
الذي استحرَّ بينهم في موضوع الخفاء والوضوح بلا طائل ، ثم لنصل بعد
ذلك إلى رفع الضم عن التشبيه الذي كادوا يقطعون نسبه عن البيان أو ينزلونه
منه منزلة الواو من عمرو ، وهو عمدة هذا الفن وركنه الركين !

(٢) الطراز - ١ - ٣٧٠

(١) عروس الأفراح - ٣ - ٢٩٠

(٣) حسن المحاضرة - ١ - ١٥٥

وإلا فنحن مع الأستاذ أمين الخولى بك : فى أن مقدمة الدلالات
مقحمة بين يدى علم البيان، وأنها مقدمة منطقية لا ينفع عليها فى إدراك صور
البيان التعبيرية ولا يضر جهلها ، بل تضر معرفتها حين تصرف عن تحرير
المنهج^(١).

ومع هذا لم يكن من الضرورى أن يتقيدوا بهذا التعريف الذى حمل
فى تضاعفه هذا البحث النظرى المجذب ، فقد كان فى الإمكان أن يقولوا
فى تعريف البيان : هو العلم الذى يعرف به أسرار التراكيب المختلفة ، أو العلم
بجواهر الكلمة المفردة والمركبة كما عرفه العلوى^(١).

(١) فن القول — ١٩٥

(٢) الطراز — ١ — ١٢

الفصل الثالث

حد التشبيه

النسبية في اللغة .

معنى التشبيه في اللغة : التمثيل ، تقول : شبهته إياه وشبهته به تشبيها : مثله (١)
فاللغة — كما رأينا — لا تفرق بين التشبيه والتمثيل .

وقد تعلق ابن الأثير بهذا النص اللغوي فعاب على البلغاء هذه التفرقة
فناه يقول : وجدت علماء البيان قد فرقوا بين التشبيه والتمثيل ، وجعلوا
لهذا باباً مفرداً ولهذا باباً مفرداً ، وهما شيء واحد لا فرق بينهما في أصل
الوضع ، يقال : شبهت هذا الشيء بهذا الشيء كما يقال : مثله به ، وما أعلم
كيف خفي ذلك على أولئك العلماء مع ظهوره ووضوحه . (٢)

وما عابه ابن الأثير ليس بعيب ، واتحاد التشبيه والتمثيل في أصل الوضع
لا يخفى على العلماء ، ولكن المعروف أنه يوجد فرق دائماً بين العرف
اللغوي والاصطلاحي .

والزحخشري لا يفرق بينهما كذلك ، فالتشبيه عنده مرادف للتمثيل (٣) .
ويرى عبد القاهر : أن التشبيه عام والتمثيل أخص منه ، فكل تمثيل تشبيه
وليس كل تشبيه تمثيلاً ، وكل ما لا يصح أن يسمى تمثيلاً فلفظ المثل لا يستعمل
فيه أيضاً (٤) .

(٢) المثل السائر — ١٥٣

(٤) أسرار البلاغة — ٧٢

(١) القاموس المحيط والصاح .

(٣) حاشية المرشدي — ٢٧

والتشبيه اللغوي - ويسمى المعنوي أيضاً - يشمل التجريد^(١)، والاستعارة التصريحية التحقيقية بلاخلاف، والمسكنى عنها على مذهب الجمهور، والتخييلية على مذهب السكاكي، لأن كلا منها مبني على التشبيه، والتشبيه أصل له.

التشبيه في الاصطلاح

وقد وردت له في الاصطلاح عدة تعريفات تختلف في وضوحها ودقتها وشمولها:

فعند العسكري: هو الوصف بأن أحد الموصوفين ينوب مناب الآخر بأداة التشبيه، ناب منابه أو لم ينب^(٢).

وعند عبد القاهر أن يثبت لهذا معنى من معاني ذاك أو حكماً من أحكامه كإثباتك للرجل شجاعة الأسد، وللحجة حكم النور في أنك تفصل بها بين الحق والباطل كما تفصل بالنور بين الأشياء^(٣).

وعند ابن الأثير: أن يثبت تشبيه حكم من أحكام المشبه به^(٤).

وعند السكاكي: وصف الشيء بمشاركته المشبه به في أمر^(٥).

وعند الرماني: هو العقد على أن أحد الشئيين يسد مسد الآخر في حال^(٦).

وعند التتوخي: هو الإخبار بالشيء، وهو اشتراك الشئيين في صفة أو أكثر^(٧).

(١) التجريد أن يكون المشبه مذكوراً أو مقدراً، ولا يكون اسم المشبه به خبراً للمشبه ولا في حكم الخبر مع حذف أداة التشبيه نحو لقيت من زيد أسداً؛ فأنت في الأصل شبهت زيدا بالأسد ثم بالغت في زيد فانتزعت منه الأسد

والتشبيه هنا ضمنى ولا يسمى تشبيها اصطلاحاً وهو الأقرب إذ لم يذكر الطرفان على وجه ينبي عن التشبيه، وقيل: إنه تشبيه حقيقة لذكر الطرفين فيمكن التعويل فبهما إلى هيئة التشبيه لولا قصد التجريد، وهو رأى السكاكي

وقد يقال: إن الخلاف لفظي راجع إلى الاصطلاح كما قال الخليلي

(٢) الصناعتين - ٢٢٦ (٣) أسرار البلاغة - ٦٣ - ٦٤

(٤) المثل السائر - ١٦٣ (٥) مفتاح العلوم - ١٧٧

(٦) خزائن الأدب للحموي - ٢١٦ (٧) الأقصى القريب - ٤١

وعند الخطيب : الدلالة على مشاركة أمر لآخر في معنى ^(١) .
وعند ابن رشيق : صفة الشيء بما قاربه وشاكله من جهة واحدة
أو جهات كثيرة ^(٢) .
وعند المطرزي والحلي : الدلالة على اشتراك شيئين في وصف من
أوصاف الشيء الواحد في نفسه ^(٣) .
وعند اللطواط : أن يشبه الكاتب أو الشاعر شيئاً بشيء آخر في صفة
من صفاته ^(٤) .
وعند آخر : إلحاق أدنى الشئين بأعلاهما في صفة اشتركا في أصلها .
واختلفا في كيفية قوة وضعفها .
وفي هذا التعريف الأخير يقول الحموي : وهذا حد مفيد ^(٥)
ويلاحظ أن هذه الحدود جميعاً تتفق في الجوهر ، وهو اتفاق المشبه
والمشبه به في وصف يجمعهما .
ولكن يلاحظ كذلك أنها ليست دقيقة ، فمثلاً تعريف الخطيب - وهو
أشملها - اعترض عليه بأنه لا يمنع من دخول نحو : قاتل زيد عمرا ، وجاء في
زيد وعمرو ، مما جمع فيه بصيغة المشاركة أو واو العطف .
ولا يعد مثل ذلك من التشبيه لخلوه من الوصف الجامع بين الطرفين .
مع أن الخطيب من مدرسة السكاكي المشهورة بجودة الضبط والتقسيم
ودقة التعريف .
وقد انبرى العلوي لتعريف المطرزي السابق فزيفه ، كما أورد تعريفا

(١) الإيضاح - ١٥٢ - التلخيص - ٢٣٠ « طبع البرقوقى »
(٢) العمدة - ١ - ١٩٤
(٣) الطراز - ٢٦٢ - حسن التوسل - ١٣
(٤) حدائق السحر للوطواط - ١٣٨ « ترجمة الدكتور الشواربي »
(٥) خزنة الأدب - ٢١٦

آخر لعبد الكريم السناكي ذكره في كتابه « التبيان » وهو : أنه ركن من أركان البلاغة ، لإخراجه الخفي إلى الجلي ، وإدناؤه البعيد من القريب . فعابه بأنه تعريف بالفائدة والمقصود ، لا لبيان الماهية .

ثم اختار هذا التعريف الذي وضعه بنفسه ، وهو : أنه الجمع بين الشيتين أو الأشياء بمعنى ما بواسطة الكاف ونحوها .

وقد حلل العلوي تعريفه هذا ليقفنا على مزاياه التي انفرد بها .

فقوله : « هو الجمع بين الشيتين » ، ليدخل فيه التشبيه المفرد مثل زيد كالأسد .

وقوله : « أو الأشياء » ، ليدخل فيه التشبيه المركب على اختلاف أوصافه

ومراتبه .

وقوله « بمعنى ما » ، عام لجميع الأوصاف كلها العقلية والحسية ، المفردة

والمركبة .

وقوله « بواسطة الكاف » ، يخرج العطف ، لأنه جمع بين شيئين أو أشياء

لكن بغير الكاف .

ويخرج منه مضمرة الأداة كقولنا : زيد أسد .

فإنه ليس من التشبيه ^(١) .

ثم نخر بوقوعه على هذا التعريف الصحيح في نظره — وهي عادة اقتبسها

من ابن الأثير — فقال : هكذا يكون تعريفه بما ذكرناه ، ولقد حام من أسلفنا

ذكره في تعريف التشبيه حول ما قررناه ، فما وقع ، وصاصاً فما فتح ^(٢) .

ومن حق من أراد ماهية من الماهيات أن يورد في حدها أخص أوصافها

وأن يصونها عن النقوص ^(٣) .

وأصرح بأنه لم يحل في نفس كل ما تقدم من التعريفات .

(١) هذا رأى لبعضهم .

(٢) صاصاً الجرو : إذا التمس النظر قبل أن يفتح عينيه . وفتح بتشديد القاف : إذا

فتح عينيه ، وقد ضرب ذلك مثلاً لمن طلب شيئاً ولم ينله .

(٣) الطراز — ١ — ٢٦٢ — ٢٦٤

وأصرح بأنه لم يحل في نفسى كل ما تقدم من التعريفات .
والتعريف الذى غر العلوى باختراعه ، لعله أن يكون أكثرها ثقلاً
وتكلفاً ! وأحسب أن السر فى ذلك محاولته أن يجعله جامعاً مانعاً ليسد
السلف ، ويتعب الخلف ، فزلت به القدم ، وعند التعمق الزلل !
وقد عثرت على تعريف للتشبيه فى بعض كتب اللغة ، هو عندى أخف
وأعذب وأكمل من هذه التشبيهات المأثورة ، وهذا من النوارد التى يفوق
فيها نظر اللغوى نظر الاصطلاحى فى الدقة والضبط والشمول ، وهو : شبهت
الشيء بالشيء : أقمته مقامه بصفة جامعة بينهما ^(١) .

(١) المصباح المنير مادة « شبه »

الفصل الرابع

التشبيه عند القدماء

لم يعن القدماء بحد التشبيه حدّاً يضبطه كما فعل المتأخرون ، وإن كنا نستطيع أن نستخلص له حدوداً جيدة من ثنايا أقوالهم فيه .

فالجاحظ أغفل تعريف التشبيه ، ولكن رأياه من جهة أخرى يسد إليه نظرات نافذة تتناول كثيراً من مناحيه ، وتلقى ضوءاً على جملة من قضاياها مما أعان المتأخرين على تصور مفهومه وضبطه ، ووضع القواعد الثابتة له . بل إن كثيراً مما قرره الجاحظ لم يستطيعوا الزيادة عليه .

فمن ذلك إدراكه :

١ — أن التشبيه في جميع أحواله يفيد الغيرية لا العينية .

فهو يقرر : أنه قد يكون في الشيء بعض الشبه من شيء ، ولا يكون ذلك مخرجاً لهما من أحكامهما وحدودهما ؛ فالإنسان يشبه بالقمر والشمس والغيث والبحر والأسد والسيف والحية والنجم في حال المدح ، ولا يخرجونها بهذه المعاني إلى حد الإنسان .

وإذا ذموا قالوا : هو الكلب والخنزير والقرود والحمار والثور والتمسك والذئب والعقرب والجمل ، ولا يدخلون هذه الأشياء في حدود الناس ولا أسمائهم ، ولا يخرجون بذلك الإنسان إلى هذه الحدود وهذه الأسماء . وسماوا الجارية غزالاً وخشفاً^(١) ومهرة وفاخنة^(٢) وزهرة وقضياً وخيزراناً على ذلك المعنى .

(١) الخشف : ولد الطيبة الصغير . (٢) الفاخنة : ضرب من الحمام .

وصنعوا مثل ذلك بالبروج والكواكب ، فذكروا الأسد والثور
والحمل والجدى والعقرب والحوت والسنبلة والميزان وغيرها .
وقد روى عن النبي — صلى الله عليه وسلم — قوله : ﴿ نعمت العمة
لكم النخلة . ١ ﴾

وهذا الكلام صحيح المعنى لا يعيبه إلا من يجهل مجاز الكلام (١) .

٢ — وجه التشبه يكتب في أن يكون وصفا يجمع بين الطرفين ، فلا
ينظر إليه على جهة الاستيعاب ؛ فالسنور يشبه بالأسد في الصورة والأعضاء
والوثوب والتخلع في المشي لافي اللون ، لأن في السنانير ، السود والثمر
والباق والخانجية ، وليس في ألوان الأسد من ذلك شيء إلا في الندرة .
وإذا سموا امرأة : خنساء ، فليس الخنس والفطس يريدون ، بل كأنهم
قالوا : مهارة وظيفية (٢) .

٣ — عند عقد التشبيه يتجه الخاطر إلى الصفة البارزة في المشبه به ،
فليس الطاوس بأحسن من الإنسان ، ولا الفرس الرائع ، ولا البازي في
حسن تركيبه وتنصبه ، ولا الديك في عامة صفاته ، وإنما ذهبوا من حسنه إلى
حسن ريشه وتلاوينه (٣) .

٤ — قد يشبه الشيء بشيء آخر من جهتين مختلفتين ، فالعرب يقولون :
ما هو إلا شيطان يريدون القبح ، وما هو إلا شيطان ؛ يريدون الفطنة وشدة
العارضة ، أو على معنى الشهامة والنفاذ (٤) .

٥ — أورد كثير آ من التشبيهات المأثورة عن العرب (٥) ، كتشبيه الرجل

(١) الحيوان — ١ — ٩٩ — ط . الساسي

(٢) المصدر السابق — ٥ — ٨٤ — ٤ — ١٢٨ (٣) المصدر السابق — ٢ — ٨٢ .

(٤) المصدر السابق — ١ — ١٤٥ — ٥ — ٦٥

(٥) المصدر السابق — ٤ — ١١٠ فما بعده .

بالبيضة ، والأبكار بيض النعام ، والغيوم بصور النعام ^(١) .
قال الشاعر :

كأن الرباب دُوين السحاب نعام تعلق بالأرجل
وقال الأعشى :

مثل النعام معلق لمارقا ودنا ربابه
وتشبيه الشراب ، والوجه المشرق ، والشئ الأحمر : بالنار .
وتشبيه الزجاج : بالماء في الفيافي .
وتشبيه المرأة الحديدة الطرف والذهن ، السريعة الحركة ، الممشوقة
المحضنة : بالسعلاة .

وتشبيه البنان إذا كانت مطرقة ، بينات النقا والاساريع والغنم .
وصاحب البلاغة من العامة يقول : كأن بنانها اليباح والدراج ^(٢) .
وتشبه أيضا بالدمقس ^(٣) .

(١) كانت العرب ترى في الغيوم صوراً كالنعام والنوق وما أشبه ذلك .
ومن هذا قول أبي تمام يشبهها بالنجائب :
نجائب وليس من نجيب شبيهه الأعناق بالعجوب
والعجوب : الأذنان جمع نجب بفتح فسكون .
أى هي نوق غير متولدة من خل ، وتشبه أعناقها أذنانها .
وقول أبي حفص بن برد :

ويوم تفنن في طبيبه وجاءت مواقيته بالعجب
تجلى الصباح به عن حيا يصبوعن زهر قد شرب
وما زلت أحسب فيه السحاب ونار بوارقها تلتهب
بخسائي توضع في سيرها وقد فزعت بسياط الذهب
وقول شوقي :

وترى الفضاء كخائط من مرمر نضدت عليه بدائم الألواح
القيم فيه كالنعام بدينة بركت وأخرى خلقت بجناح
(٢) اليباح ككتاب وكتان : نوع من السمك ، والدراج كرماني : طائر .
(٣) الحيوان - ٦ - ١١٩ .

٦ — ذكر ألوانا من التشبيهات النادرة المستكرة ، كقول امرئ القيس^(١) :
له أبطالا ظبي وساقا نعامة وإرخام سرحان وتقريب تنفل
وقوله في تشبيه شئين بشئين في حالين مختلفتين في بيت واحد :
كأن قلوب الطير رطبا ويابسا لدى وكرها العناب والحشف البالي
وقول بشَّار :

كأنما النقع فوق رؤوسهم سقف كواكبه البيض المباير
٧ — وردت له لمحات فنية دقيقة في نقد التشبيه ، كما في قول أبي نواس
يصف داراً وقف فيها :

كأنها إذ خرست جارم بين ذوى تقنيده مطرق
فذكر : أنه لا يقول أحد : لقد سلكت هذا الحجر كأنه إنسان ساكت ،
وإنما يوصف خرس الإنسان بخرس الدار ، ويشبه صممه بصمم الصخر .
وهو في هذا يقرر ضمناً : أن وجه الشبه في المشبه به يجب أن يكون
أظهر وأكمل منه في المشبه .

فإن كان أبو نواس أراد القلب فهو يقرر أيضاً : أنه ليس كل تشبيه يحسن
فيه القلب ، وأن لذلك شروطاً يجب أن تتحقق ، كما نبه عليه البلاغ من
بعده بأجبال .

وذكر ما عابوا به أبا نواس في قوله يصف الأسد :

كأنما عينه إذا التهبت بارزة الجفن عين مخنوق
وهم يصفون عين الأسد بالغُور^(٢) .

٨ — أدرك بذوقه اللامح وفطنته الثاقبة أشياء خفيت على أهل عصره ،
مثل عدم ملاحظتهم الوصف الجامع بين طرفي التشبيه في قوله — تعالى — :

(١) الحيوان — ٣ — ١٥ — ٣٩ (٢) المصدر السابق — ٤ — ١٤٦

« واطل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض وأتبع هواه فثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا، فقد زعم المعارضون: أن هذا المثل لا يجوز؛ فما يشبهه حال من أُعطي شيئاً فلم يقبله ويذكر غير ذلك، بالكلب الذي إن حملت عليه نبح وولى ذاهباً، وإن تركته شد عليك ونبح، مع أن قوله: يلهث لم يقع في موضعه، وإنما يلهث الكلب من عطش شديد، وحر شديد، ومن تعب، وأما النباح والصياح فمن شيء آخر.

وقد رد الجاحظ بقوله: . . . ليس بمعيد أن يشبه الذي أوتي الآيات والأعاجيب والبرهانات والكرامات في بدء حرصه عليها وطلبه لها، بالكلب في حرصه وطلبه؛ فإن الكلب يعطى الجِد والجهد من نفسه في كل حالة من الحالات، وشبه رفضه وقذفه بها من يديه ورده لها بعد الحرص عليها وفرط الرغبة فيها، بالكلب إذا رجع ينبح بعد إطرادك له، وواجب أن يكون رفض قبول الأشياء الخطيرة النفيسة في وزن طلبها والحرص عليها، والكلب إذا أتعب نفسه في شدة النباح مقبلاً إليك ومدبراً عنك، لهث واعتراه ما يعتريه عند التعب والعطش، وعلى أننا ما زئى بأبصارنا إلى كلابنا — وهي رابضة وادعة — إلا وهي تلهث من غير أن تكون هناك إلا حرارة أجوافها، والذي طبع عليه من شأنها، إلا أن لهث الكلب يختلف بالشدة واللين (١).

وفطن كذلك إلى التشبيه الوهمي، كما في قول امرئ القيس .
أيقناني والمشرقي مضاجعي ومسنونة زرق كأياب أغوال
فقد علق على قوله — تعالى — : « إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم طلعها كأنه رموس الشياطين » بأنه (٢) ليس أن الناس رأوا شيطانا قط على

صورة ، ولكن لما كان الله قد جعل في طباع جميع الأمم استقباح صور الشياطين واستسماجها وكرامتها ، وأجرى على السنة جميعهم ضرب المثل في ذلك ، رجع بالإيحاء والتفكير وبالإخافة والتقريع إلى ما قد جعله الله في طباع الأولين والآخرين ، وعند جميع الأمم على اختلاف طبائع جميع الأمم .

ثم يقول وهذا التأويل أشبه من قول من زعم من المفسرين : أن رموس الشياطين نبات ينبت باليمن .

ومن ذلك رده على من لم يفهم مبلغ العلاقة بين طرفي التشبيه في قول حسان — ض — :

لعمرك إن إلك من قريش كإل الفيل من رأل النعام^(١)
فقد غاب عليه هذا البيت ناس ، وظنوا أنه أراد التبعيد ؛ فذكر شيتين قد يتشابهان من وجوه .

وحسان لم يرد هذا ، وإنما أراد ضعف نسبه في قريش ، وأنه حين وجد أدنى نسب اتحل ذلك النسب^(٢) .

٩ — أشار إلى سرقة التشبيهات ؛ فذكر ما روى عن يونس : أن قول جرير :

مازلت تحسب كل شيء بعدهم خيلاً تشد عليهم ورجالا

(١) الإل بالكسر : الرحم والقربة ، والرأل بوزن نأى : ولد النعام ، والمعنى أنه دعى .

وفي الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٢١٢ :

وأشهد أن إلك من قريش كإل السقب من ولد النعام

والسقب كسقف : ولد الناقة الذكر .

وفي رواية : كإل السقب من رأل النعام

وقد أخذه ابن مفرغ فقال في معاوية :

فأشهد أن رحمك من زياد كرحم الفيل من ولد الأتان

والأتان : الحمار . (٢) الحيوان — ٤ — ١١٧

مأخوذ من قول الله تعالى : « يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو »^(١)
وتكلم المبرد على التشبيه في إفاضة ممثلاً للنوع المصيب منه في أشعار
القدماء والمحدثين ، مبتدئاً بامرئ القيس ، ولعله كان قدوة لابن المعتز في ذلك .
ولم يكتف بالمبرد بل حلل كثيراً من الأمثلة تحليلاً يعتمد على النون
والحاسة الفنية ، وقرر في بيان ناصع ما أثبتته الجاحظ : من أن التشابه يقع في
بعض الصفات لا كلها ، فقال ^(٢) « واعلم أن للشبه حداً ؛ فالأشياء تشابه من
وجوه وتباين من وجوه ، فإنما ينظر إلى التشبيه من حيث وقع .
فإذا شُبه بالشمس فإنما يراد الضياء والرواق ، ولا يراد العظم والإحراق
قال الله — جل وعز — « كأنهن بيض مكنون »

ويقول : والعرب تشبه النساء ببيض النعام : تريد نقاءه ونعمة لونه ^(٣) .
ويقول : والعرب تشبه المرأة بالشمس والقمر والغصن والغزال والبقرة
الوحشية والسحابة البيضاء والدررة والبيضة .
وإنما تقصد من كل شيء إلى شيء ^(٤) .

وقال في الآية الكريمة « طلعها كأنه رموس الشياطين » : قد اعترض معترض
من الجهلة الملاحدين في هذه الآية ؛ فقال : إنما يمثل للغائب بالحاضر ، ورموس
الشياطين لم نرها فكيف يقع التمثيل بها ؟

(١) الحيوان — ٥ — ٧٥

(٢) السكامل المبرد « شرح المصنف » — ٦ — ١٧٨

(٣) النعمة بفتح النون المشددة : اسم للنعيم والرفقة .

وقد أنكر المصنف على المبرد إضافتها للون ، لأنه لا يوصف بها ، وكان الأجود أن

يقول : في صفاء لونه . رغبة الأمل — ٦ — ١٧٨

ولا بأس به عندي على معنى أنه لون حي جديد غير شاحب ولا ناصع ؛ وقد جاء في
وصف جارية : كأنها جان ، وكأنها خوط بان ، وكأنها جدل عنان ، وكأنها الياسمين نعمة

وبياضاً . الحيوان — ٦ — ٨٢

فوصف الياسمين بالنعيم .

(٤) السكامل المبرد « شرح المصنف » — ٦ — ١٨٠

وقد أجاب على ذلك : بأنه قد جاء تفسير الآية في ضربين :

١ — أحدهما : أن شجرا يقال له « الأستن » ، على وزن خردل ، منكر الصورة يقال ثمره : روس الشياطين .

والقول الآخر — وهو الذي يسبق إلى القلب — : أن الله — جل ذكره — : شنع صورة الشياطين في قلوب العباد ، وكان ذلك أبلغ من المعاينة ، ثم مثل هذه الشجرة بما تنفر منه كل نفس ^(١) .

وعقد ابن المعتز بابا سماه : « حسن التشبيه » ^(٢) ، عرض فيه أمثالا كثيرة للتشبيهات الرائعة البديعة لجماعة من الشعراء القدامى والمحدثين مبتدئا بامرئ القيس أيضاً كما ابتدأ المبرد .

ولكنه اكتفى — بالسرد والإشارة المائلة إلى أنها حسنة أو عجيبة — عن تحليلها وبيان موطن الجمال فيها .

وقدامة في « نقد الشعر » ^(٣) شرح معنى التشبيه ، وذكر وصفه الذي يزيد به حسنا ، مع التدليل على ذلك بالأمثلة المستجادة .

ونبه على أن الشيء لا يشبه بنفسه ولا بغيره من كل الجهات ، لأن التشابه من جميع الوجوه اتحاد .

وخرج من ذلك على أن التشبيه إنما يقع بين شيئين يشتركان في معان تعمهما ويوصفان بها ، ويفترقان في أشياء ينفرد كل واحد منهما بصفتهما .

وأن التشبيه يقاس حسنه بقدر كثرة الصفات التي يشترك فيها الشئان حتى يقربا من الاتحاد .

وفي نقد النثر ^(٤) ، بين منزلته من الكلام العربي وقيمه في نفوس العرب

وعرض للرابطة بين لطافة المشبه في تشبيهه وحذقة بالشعر .

(١) الكامل للبرد « شرح المصنف » — ٦ — ٢٣٩

(٢) البديع — ١٢١ « طبع الأستاذ خفاجي »

(٣) نقد الشعر — ٦٥ — ٦٧

(٤) نقد النثر — ٥٨ — ٥٩ « ط . وزارة المعارف »

ثم قسمه بعد ذلك إلى قسمين :

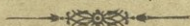
١ — تشبيه حصى يتناول الأشياء في ظواهرها وألوانها وأقذارها .

٢ — تشبيه معنوى .

ومثل لكل منهما من النثر والشعر .

ومن السهل علينا أن نستنبط من هذه القواعد والأصول التي وردت في أقوال القدامى ، وبخاصة الجاحظ والمبرد وقدامة تعريفاً صائباً للتشبيه .

ولا خلاف أن بلغاء الأدباء — وإن لم يحدوا التشبيه — فإنهم قد كشفوا عن مزاياه وخصائصه ، ومبلغ الصلة بين طرفيه ، وموضع الحسن والقبح فيه ، فهدوا السبيل للخلف في بنائه على قواعد محكمة وأسس متينة . ولعل أبا هلال أول بليغ تصدى لتعريف التشبيه على الطريقة الاصطلاحية ، وكتب عنه كتابة مفصلة منظمة تقوم على بحث ودرس وتقص ، ويسودها التقنين والتقسيم والنقد الفنى .



الفصل الخامس

التشبيه من الخصائص الطبيعية

التشبيه لون من ألوان التعبير الممتاز الأنيق ، تعتمد إليه النفوس بالفطرة حين تسوقها الدواعي إليه ، سواء في ذلك العرب والعجم ، والخاصة والعامة ، والبلدى والقروى ، والحضرى والبدوى ، والعالم والجاهل ، والذكى والغبي .

فهو من الصور البليانة التى لا تختص بجنس ولا لغة ؛ لأنه من الهبات الإنسانية ، والخصائص الفطرية ، والتراث المشاع بين الأنواع البشرية جميعاً . ذلك لأن أساسه هذه الصفات المشتركة أو المتشابهة أو المتضادة التى يراها الإنسان فى الأشياء ، ويترتب على ذلك استساغته استعمال الألفاظ بعضها مكان بعض تجوزاً .

ومن يلق سمعه إلى الحشوة والدهماء من لم يؤتوا نصيباً من العلم والآداب والثقافة ، يجد كثيراً من التشبيهات تسقط فى كلامهم بلا كلفة ولا عناء ، كتشبيههم القوطة ، بالجواهر ، والملوخية بأوراق العنب ، والكلام الحسن باللوز والملمن ، وسواد القلب بالليل ، والطبع الحاد بالنار ، والشئ الناعم بالحرير ، والخشن بالليف ، والخفيف بريش النعام ، والثقيل بالحجارة والرصاص ، والصبيبة اللطيفة بالقطة ، والبضة بالبطة ، والسمنية بالدبة ، والطويل بالنخلة والنحيل بالعصا ، والخبيث بالنمس ، والوجه المجذور بالغربال ، والأنف الجليل بحد السيف والبلحة ، والدميم بالضفدعة ، والعيون المليحة بعيون الغزلان ، إلى غير ذلك .

وهم يلتقون مع الخاصة فى كثير من التشبيهات ، كتشبيه الشجاع بالأسد ،

والوجه الجميل بالقمر ، والقَد المعتدل بالغصن ، والثدى النواهد بالرمان ،
والخذ بالتفاح والورد .

بل يلقون معهم أحيانا في تشبيهات تحتاج إلى دقة نظر ؛ كتشبيه الفم
بالخاتم ، أو خاتم سليمان كما يقولون .
فالحريري يقول :

سألته حين زارت نضو برقعها القاني م وإيداع سمعي أطيب الخبر^(١)
فزعزعت شفقاً غشى سنا قمر وساقطت أولواً من خاتم عطر
والمتنبى يقول^(٢) :

لاعبت بالخاتم إنسانة كمثل بدر في الدجى الناجم^(٣)
ولما حاولت أخذني له من البنان المترف الناعم
ألقته في فيها فقلت انظروا قد أخفت الخاتم في الخاتم
وقول كشاجم :

فا أنسها لا أنس منها إشارة بسبابة النبي إلى خاتم الفم
وكتشبيهم الرقة بكوز الفضة ، والخاصة يقولون : إبريق الفضة .
وكتشبيهم الساق بجمار النخل ، والمأثور عن العرب قولهم : الجمر
في كبدي والجمار في خلاخلهن .

وبعض العصريين يقول :

هذه السيقان جما ر ذكا في القلب جمرآ

وقد تقع لهم تشبيهات غاية في الإيجاز وإصابة الغرض وعمق المعنى ،

(١) نضا الشيء : خلعه .

(٢) حكى الصقدي في شرح لامية العجم : أن ابن المستكفي اجتمع بالمتنبى في مصر
وروى عنه هذه الأبيات . العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب - ٢ - ٦٤٠ للشيخ
إبراهيم ناصيف اليازجي .

(٣) الناجم : الطالع .

كقولهم فيمن لا يرجى نفعه ولا يؤمل خيره : إنه كعظم السمك لا يمتنع ولا يمتص .

إلى غير ذلك مما يعز حصره ، ولا يفرق بينه وبين تشبيهات الصفوة المثقفة إلا بأن القسم الأول ساذج ، سهل المأق ، قريب الغور ، سوقى اللفظ والآخر مصقول الكلمات ، طلى العبارة ، دقيق المعنى ، كثير الماء والرونق غنى بالظلال والألوان والتحاسين ؛ لأنه نتاج عقل حصيف مهذب ، ووثبة خيال واسع خصب .

فتشبيه الألفاظ بالماء في السلاسة ، والنسيم في الرقة ، والعسل في الحلاوة قد تجده في كلام العاصي ، فأما ما كان مذهبه في اللطف مذهب قوهم : هم كالحلقة المفرغة لا يدري أين طرفاها . فلا تراه إلا في الآداب والحكم الماثورة عن الفضلاء وذوى العقول الكاملة^(١) .

ولقائل أن يقول . إن التشبيه أقدم صور البيان ؛ إذ هو مبنى على ما تلححه النفس من اشتراك بعض الأشياء في وصف خاص يربط بينها .

ولهذا يقول « سيرمان » العالم النفسى الإنجليزى : إن الأساس النفسى الذى يقوم عليه التشبيه وغيره من الأساليب البيانية من حيث تأليفها وإدراكها وتقديرها ، هو فى الواقع عملية أساسية فى التفكير ؛ تلك هى ما بين بعض الأشياء وبعض من تشابه وعلاقات^(٢) .

فالتشبيه فى حقيقة أمره ، قياس والقياس - كما يقول عبد القاهر : يجرى فيما نعية القلوب وتدركه العقول ، وتستفتى فيه الأفهام والأذهان ، لا الأسماع والأذان^(٣) .

(١) أسرار البلاغة ٦٨ - ٧٠

(٢) دراسات فى علم النفس الأدبى للاستاذ حامد عبد القادر - ٤١

(٣) أسرار البلاغة - ١٤

وإذن فليس بمستنكر على إنسان مهما قل حظه من العلم أن يقيس بعض الأشياء إلى بعض ، ويحكم عليها بالتشابه على ما توافى منها على معنى أو أكثر . بل إن الطفل لا يتعاضمه أن يدرك العلاقة بين الأشياء المختلفة ، فيقيس بعضها إلى بعض ، فهو يمش إلى الثدى الصناعي ويبادر إلى التقامه ، لأنه قاسه إلى الثدي الطبيعي فصيح عنده أنه يشبهه .

وقد فطن أهل الجاهلية إلى هذا المعنى من زمن بعيد ، فقد ذكر بعض اللغويين : أن اسم امرئ القيس : مُجندج ، وأن امرأ القيس لقب له . وأنه لقب به لجماله ، لأن الناس قيسوا إليه في زمانه فكان أفضلهم ^(١) . وقايس النابغة في شعره فأحسن ، وذلك حيث يقول للنعمان حين فارقة إلى الغساسنة .

ولكنني كنت امرأ لى جانب من الأرض فيه مُسترد ومذهب ملوك وإخوان إذا ما أتيتهم أحكم في أموالهم وأقرب كفعلك في قوم أراك اصطفتهم فلم ترهم في فعل ذلك أذنبوا ^(٢) يقول : اجعلني كقوم صاروا إليك وكانوا مع غيرك فاصنعتهم وأحسنيت إليهم ولم ترهم مذنبين إذ فارقوا من كانوا معه . ثم يقول : فإني مثلهم صرت عنك إلى غيرك ، فاصطنع إلى فلا تر مذنباً إذ لم تر أولئك مذنبين ^(٣) .

وأوجز من ذلك قول أبي هلال العسكري : لا تلمني على شكركى وقد أحسنوا إلى إذ لجأت إليهم وإن كانوا أعداءك ، كما أحسنيت إلى قوم فشكروك عند أعدائك ، فقد أحسنوا ولم يذنبوا ^(٤) .

(١) خزانة الأدب للبغدادى - ١ - ٢٩٩ ط . المكتبة السلفية »

(٢) في ديوان المعاني - ١ - ١٦ : كحكمك في قوم أراك اصطفتهم .

(٣) مختار الشعر الجاهلى « شرح الأستاذ مصطفى السقا » - ١٢٧

(٤) ديوان المعاني - ١ - ١٦

وقد جاء القياس بمعنى التشبيه صراحة في قول بعض الشعراء :
 عبث النسيم بقده فتأودا وسرى الحياء بخذه فتوردا
 رشاً تفرد فيه قلبي بالهوى لما غدا بجماله متفردا
 قاسوه بالغصن الرطيب جهالة تالله قد ظلم المشبه واعتدى
 حسن الغصون إذا اكتست أوراقها وتراه أحسن ما يكون مجردا
 ومن هنا انفسحت آفاق التشبيه ، وتعددت قوالبه ، وتشعبت فروعها ،
 وكثر في كلام العرب كثرة لفتت إليه الأنظار ، فسمعنا المبرد يقول :
 والتشبيه جار كثير في كلام العرب ، حتى لو قال قائل : هو أكثر كلامهم
 لم يعد .

ويقول : والتشبيه : من أكثر كلام الناس .
 ويقول : والتشبيه كثير ، وهو باب كأنه لا آخر له (١) .

الفصل السادس

منزلة التشبيه من البلاغة

لم يقصر علماء البلاغة في بيان منزلة التشبيه ، وما له من أثر في رفع شأن الكلام ، وخلع أشعة البهاء عليه ، وإلباسه رَوْع الإعجاب ، وتمهيد طريق معبّد له في ثنّايا النفوس ، وفتح باب القبول أمامه في أطواء الصدور ، فإنه أشبه شيء بوسائل الإيضاح ونماذج الدروس التي تسبق الشرح أو يعقب بها عليه ، فتذلل ماعسى أن يكون من عسر في الفهم ، وثبتت معانيها في الذهن . هذا إلى خلاصة البيان التي تنبعث منه انبعاث أشعة السحر والفتون من العيون النجل ، فتفعل فعلها العجيب بالقلوب ، فتصرّفها كإشياء بسطاً وقبضاً ، ورغبة ورهبة ، ومحبة وبغضة ، وتقودها إلى ما تهوى بزمّام سلس وعنان لين . يقول قدامة : . . . وأما التشبيه فهو من أشرف كلام العرب ، وفيه تكون الفطنة والبراعة عندهم ، وكلما كان المشبه « بالسكسر » منهم في تشبيهه أطف كان بالشعر أعرف ، وكلما كان بالمعنى أسبق كان بالحدق أليق ^(١) . ويقول العسكري : وقد جاء عن القدماء وأهل الجاهلية من كل جيل ما يستدل به على شرفه وفضله وموقعه من البلاغة بكل لسان ^(٢) . ويقول ابن قتيبة ^(٣) : وليس كل شعر يختار ويحفظ على جودة اللفظ والمعنى ، ولكنه قد يختار ويحفظ على أسباب منها الإصابة في التشبيه ؛ كقول القائل :

بدأن بنا وابن الليالي كأنه حسام جلت عنه القيون صقيل ^(٤)

(١) قد النثر - ٥٨ (٢) الصناعتين - ٢٣١

(٣) الشعر والشعراء - ٢١ - ٢٢ (٤) ابن الليالي : كناية عن القمر .

فما زلت أفنى كل يوم شبابه إلى أن أتته العيس وهو ضئيل وكقول الآخر في مغن :

كأن أبا الشموس إذا تغنى يحاكي عاطساً في عين شمس
يلوك بلحيه طوراً وطورا كأن بلحيه ضربان ضرس
ويقول الباقلاني : والتشبيه تعرف به البلاغة (١).

ويقول البطين : أجمع العلماء بالشعر على أن الشعر وضع على أربعة أركان : مدح رافع ، أو هجاء واضع ، أو تشبيه مصيب ، أو فخر سامق (٢) .
ويقول عبد القاهر : وهل تشك في أنه يعمل عمل السحر في تأليف المتباينين حتى يختصر ما بين المشرق والمغرب ، ويجمع ما بين المشم والمعرق وهو يريك للمعان الممثلة بالأوهام شبيهاً في الأشخاص المائلة ، والأشباح القائمة ، وينطق لك الآخرس ، ويعطيك البيان من الأعجم ، ويريك الحياة في الجمد ، ويريك التمام عين الأضداد ، فيأتيك بالحياة والموت بمجموعين ، والماء والنار مجتمعين (٣) . . .

ويقول السكاكي : فهو الذي إذا مهرت فيه ملكت زمام التدريب في فنون السحر البياني (٤) .

ويقول الخطيب : إنه مما اتفق العقلاء على شرف قدره ونفامة امره في البلاغة ، وأن تعقيب المعاني به لا سيما قسم التمثيل منه ، يضاعف قواها في تحريك النفوس إلى المقصود بها مدحا كانت أو ذما أو افتخاراً أو غير ذلك (٥) .

ومن رأى الدكتور شوقي ضيف : أن التشبيه لا يحتاج بعداً في الخيال ولا عمقاً في التصوير (٦) .

(١) لمغاز القرآن — ٢٠٧ (٢) الموشح العرزياني — ١٧٢

(٣) أسرار البلاغة — ١٠٤ (٤) مفتاح العلوم — ١٧٧

(٥) الإيضاح — ١٥٣ (٦) الفن ومذاهبه في الشعر العربي — ١٤٥

(م ٤ — فن التشبيه)

وأنه لون مفرد بل هو صبغ من أصباغ لون مفرد هولون التصوير^(١).
ولا أحسب الزميل يريد بهذا أن يهون من قدر التشبيه ، أو يصوره
في صورة الشيء السهل المسلك ، القريب المتناول .

وإنما لعله أراد أنه دون الاستعارة في يسر بنائه وصياغته ، وأنه أقل
منها شأناً في إبراز المعاني وصبها في قوالب المحسوسات ، وإن كان هو
أساسها وعمادها ، وإلا فليس التشبيه سهل الانتزاع ، ولا هو على طرف
الثمالة من كل متناول ؛ فابن الأثير يقول : إنه من بين أنواع علم البيان
مستوعر المذهب ، وهو مقتل من مقاتل البلاغة ، وسبب ذلك أن حمل
الشيء على الشيء بالمثالة إما صورة وإما معنى يعز صوابه ، وتيسر الإجابة
فيه ، وقلها أكثر منه أحد إلا عثر كما فعل ابن المعتز من أدباء العراق وابن وكيع
من أدباء مصر ، فإنهما أكثرا من ذلك لاسيما في وصف الرياض والأشجار
والأزهار والثمار ، لاجرم أنهما أتيا بالغث البارد^(٢).

وابن رشيق — وهو من النقاد الشعراء — يصرح بأن أشد ما تكلفه
الشاعر صعوبة التشبيه ، لما يحتاج إليه من شاهد العقل ، واقتضاء العيان^(٣).
وأن المعاني إنما اتسعت لاتساع الناس في الدنيا وانتشار العرب بالإسلام
في أقطار الأرض ، فمضروا الأمصار ، وحضروا الخواضر ، وتألقوا في
المطاعم والملابس ، وعرفوا بالعيان عاقبة ما دلتهم عليه بداهة العقول من
فضل التشبيه وغيره .

ثم يقول : وإنما خصصت التشبيه ، لأنه أصعب أنواع الشعر وأبعدها
متعاطى^(٤) .

ونحن لا ننكر أن التشبيه أقل أهمية من الاستعارة في النثر الأدبي وفي

(١) الفن ومذاهبه — ١٥٢ (٢) المثل السائر — ١٥٥

(٣) العمدة — ١ — ١٩٤ (٤) المصدر السابق — ٢ — ١٨٣

الموضوعات الشعرية لميزتها الواضحة في التجسيم والتشخيص ، وفي المبالغة والتحويل .

وبخاصة الشعر ؛ لأن لها فيه قيمة بالغة بحيث يكاد يستحيل أن يكون شعراً بغيرها (١) .

أو كما يقول أرسطو : إن الصورة في التشبيه تجرى في النثر كما تجرى في الشعر ، ولكنها بأشعر الصق (٢) .

ولكن هذه الفنون الأدبية لا تستغنى مطلقاً عن التشبيه ، وقد مر قريباً : أن العلماء أجمعوا على عد التشبيه المصيب من أركان الشعر .

ثم هو يمتاز عنها بأنه أكثر دورانا في النثر العلمي ، وفي الموضوعات التي تخاطب العقول ؛ لأنه يراد منها أن تكون واضحة دقيقة محدودة ، سهلة الإدراك ، بعيدة عن وثبات الخيال ، وطفرة التصوير ، وترف الألفاظ ، وأناق الصياغة .

فإن أريد بالتشبيه ما يدل على كمال المشبه وادعاء اتحاده بالمشبه به لم يكن هناك مناص من الترقى إلى مرتبة الاستعارة وعدم القناعة بالتشبيه :

ولا يخفى أن الفرق بينهما : هو أن التشبيه يحتفظ للمشبه والمشبه به بذاتيتها ، وكل ما يفعله أن يربط الصلة بينهما ، وأما الاستعارة فتندمج الواحد في الآخر وتجعلهما شيئاً واحداً .

ففرق بين أن يقول الشاعر : فأمطرت لؤلؤاً من زرجس ، وبين أن يقول : فأمطرت دمعاً كاللؤلؤ من عين كالزرجس ، فالتشبيه كما ترى أقرب إلى تصوير الواقع ، وأما الاستعارة فأمعن في الخيال ، لأنها تطمس الأشياء طمسا ، وتستبدل بها أشباهها .

(١) فنون الأدب لشارلتز — ٧٩

(٢) بلاغة أرسطو للدكتور إبراهيم سلامة — ١٥٨

فالفئة الباكية في « فأمطرت لؤلؤا ، لم تسفح من عينها دمعاً كاللؤلؤ
وإنما سفحت لؤلؤا ، لهذا كان التشبيه أكثر شيوعاً من الاستعارة في العصور
الاتباعية التي يكون فيها الشعراء أقل حدة في الخيال ، وأكثر انصياعاً لأحكام
العقل والمطلق ، وكانت الاستعارة أكثر شيوعاً من التشبيه في العصور
الإبداعية التي يشطح فيها الخيال ويجمع فلا يكون عليه ضابط .^(١)
ولا خلاف أن التشبيه يختلف باختلاف حظ القائل من البلاغة وقسمه
من البيان .

فكل شيء يصف الشيء بمقدار ما في نفسه من ضعف أو قوة ، أو عجز
أو قدرة .

وصفة الإنسان مارأي ، يكون - لاشك - أصوب من صفته بما لم ير ،
وتشبيهه ماعين بما عان أفضل من تشبيهه ما أبصر بما لم يبصر .
ومن هنا يحكى عن ابن الرومي أن لائماً لأمه ، فقال لم لا تشبه تشبيه
ابن المعتز وأنت أشعر منه ؟

قال أنشد لي شيئاً من قوله الذي استعجزتني في مثله .
فأنشده في صفة الهلال :

فانظر إليه كزورق من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر
فقال زدى .
فأنشده :

كان آزر يونها^(٢) والشمس فيه كاليه^(٣)
- مداهن من ذهب فيها بقايا غالية

(١) فنون الأدب لشارلتن - ٨٢ ترجمة الأستاذ زكي نجيب .
(٢) الآزريون : ورد أصفر لا ربح له ألبة ، وهو صنف من الأفخوان ، ومنه ما
نواره أحر ؛ واسمه بالفارسية : آزركون ومعناه : لون النار . نهاية الأرب - ١١ - ٢٧٧
وانظر معجم أسماء النباتات ص ٣٦ ، وكتاب الألفاظ الفارسية العربية ص ٨ . وفي رواية :
تحت سماءها ميه .
(٣) كالية : ناظرة .

فصاح واغوثاه ! يا لله ! لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ، ذلك إنما يصف
معاون بيته لأنه ابن الخلفاء وأنا أى شيء أصف !

ولكن انظروا إذا وصفت ما أعرف أين يقع الناس كلهم منى !
هل قال أحد أملح من قولى فى صفة الرقاقة :

ما أنس لا أنس خبازا مررت به يدحو الرقاقة وشك الملح بالبصر
ما بين رؤيتها فى كفه كرة وبين رؤيتها زهراء كالقمر (١)
إلا بمقدار ما تنداح دائرة فى صفحة الماء يرمى فيه بالحجر (٢)
ولهذا نرى التشبيهات تأتى تبعا لمنزلة أصحابها ، حتى ليكون منها المطرب
المعجب المرقص ، كقول بشار (٣) — يصف جارية مغنية — :

ورائحة للعين فيها مخيلة إذا برقت لم تسق بطن صعيد
من المستهلات الهموم على الفتى خفا برقها فى عصفر وعقود
حسدت عليها كل شيء يمسها وما كنت لولا حبها بحسود
وأصفر مثل الزعفران شربته على صوت صفراء الترائب رُود
كان أميرا جالسا فى ثيابها تؤمل رؤياه عيون وفود
من البيض لم تسرح على أهل ثلة سواما ولم ترفع حداج قعود (٤)
تمت به ألبابنا وقلوبنا مرارا وتحيين بعد همود
إذا نطقت صخنا وصاح لنا الصدى صياح جنود ووجهت لجنود
ظللنا بذاك الديدن اليوم كله كأننا من الفردوس تحت خلود
ولا بأس إلا أننا عند أهلنا شهود وما ألبابنا بشهود

(١) فى بعض الروايات « قوراء » وهو أصوب . (٢) العدة ٢ — ١٨٤

(٣) قال على بن هارون : وما فى الدنيا شيء لقديم ولا محدث من منشور ولا منظوم

فى صفة الغناء واستحسانه مثل هذه الأبيات . آمالى المرتضى ٣ — ٤٩

(٤) الثلة : الجماعة من الغنم ، والحداج : مركب النساء ، والقعود : ما يقتضيه الراعى من الإبل فى كل حاجة .

أرأيت إلى هذا الجمال الذى يطالعك فى قوله :
كان أميرا جالسا فى ثيابها
جمال فى هذا التعاطف بين الألفاظ ، وفى هذا التناغم النافع من
جرس الصياغة .

وجمال فى تصوير هذه الهبة المرهوبة المحبوبة التى خلعتها الفن الأنيق
على هذه المغنية الحسنة ، فإذا هى أمير خطير الشأن سقى المنزلة محجب إلى النفوس
يزدحم الوفود على حضرته خضوع الرقاب ، نواكس الأبصار ، لاخوفا من
بطشه ، ولكن ليمتلأوا طاعته المحبوبة الشائقة ، ويمتلأوا منظره المرموق ،
وينالوا رفده السابغ .

أليس هذه حالتنا تماما حينما ترفع الستارة عن أم كلثوم ، ونرميها
بأبصار نامتخشين ، ونزهف إليها أسماعنا متلهفين ! مستطيلين هذه الفينة التى
تأهب فيها للتغريد بهذا الصوت الشاجى المسكر !
وكقول أبى عبد الله بن مرزوق الأندلسى فى علة الكتابة بالسواد
فى البياض :

ولما أن نأت منكم ديار وحال البعد بينكم وبينى
بعثت لكم سوادا فى بياض لأنظركم بشىء مثل عيني
ألست ترى أن هذا الشاعر قد استطاع أن يخذعنا بهذا التعليل البديع
المخترع .

ثم ألست تحس نغمة الحزن والسكمد التى تسود الشعر وتنضح بلوعة
الشاعر وتفجعه وتوجعه !

لأنظركم بشىء مثل عيني !
ما أشجى هذه الكلمة ! لقد تركزت فيها تجربة الشاعر ، وانتقلت إلينا
كاملة غير منقوصة ، فإذا نحن مثله نتشكى نأى الديار وبعد المزار !

وكهذا الشعر الذى نسب إلى إبليس نفاسة به على الناس لعلو قيمته
وارتفاع منزلته .

وحرام قبل المزاج صفراء بعده بدت بين ثوبى نرجس وشقائق
حكمت وجنة المعشوق صرفا فسلطوا عليها مزاجا فاكست لون عاشق^(١)

فانظر كيف استطاع هذا الشاعر سواء أكان إبليس أم غيره أن يصف
الخرق في حالين مختلفتين وصفاً دقيقاً كاشفاً ، ويصورها في عدة ألوان متباينة
مستعياً بجملة من التشبيهات الجميلة المفوفة ، دون أن يخل بالصيغة ، أو
يدخل على المعنى ضيماً ، أو يهجن الديباجة بغموض أو تعقيد أو تكلف ،
مع مراعاة الترتيب والتقسيم .

هذا إلى حسن آخر تلمسه في هذا التقابل : حرام وصفراء ، وقبل وبعد ،
والصرف والمزاج ، ووجنة المعشوق ولون العاشق^(٢)

(١) هذا الشعر لابن دريد . ويروى عنه أنه قال : سهرت ذات ليلة ، فلما كان آخر
الليل غمضت عيني ، فرأيت رجلاً طويلاً أصفر اللون كوسجاً دخل على وأخذ بعضادى الباب
فقال : أنشدنى أحسن ما قلت فى الخمر . فقلت . ما ترك أبو نواس لأحد دخولاً فى هذا الباب
فقال : أنا أشعر منه ! فقلت : من أنت ؟ قال : أبو ناجية من أهل الشام .
وقد أخذ عليه ابن دريد : أنهما من ألف والنشر المشوش . فقال له : وما هذه المشاحة
فى هذا الوقت يا بغيض . وفيات الأعيان لابن خلكان — ١ — ٢٢١ — تزيين الأسواق
للأنطاكى — ١٩٠

وفى رواية أخرى أنه قال له : لم لا تقول فى الخمر شيئاً ؟ فقال ابن دريد : وهل ترك
أبو نواس لأحد فيها قولاً ! فقال له : نعم . أنت أشعر منه حيث تقول وأنشد البيتين .
قال ابن دريد : فقلت له : من أنت ؟ فقال شيطانك أبو راجية !
وأخبره أنه يسكن الموصل . نزهة الألبا للأنبارى — ٣٢٥

(٢) يقول بعض الأدباء : لأنه لم يبق فى وصف المعشوق بالاحمرار والعاشق بالاصفرار
ألطف من قول ابن دريد المتقدم . وفى لون العاشق والمعشوق كتب بعض الأدباء إلى الفاضل
الأندلسى منذرين سعيد : =

وإلى هذا الجو الصاحب البهيج الذى تعيش فيه برهة كأنك فى حانة
عامرة بالدنان والكسوس والسقاة والندمان ، ترى فيها كيف تنتقل الخمر
من حال إلى حال ، وتلبس لونا بعد لون ، ولكنك ترى مع هذا التغير
ما يفسجى مع الشراب ظاهراً وباطناً !

وهل تتم أداة الشرب بغير النرجس والشقائق ، والمعشوق والعاشق !
ثم ألتست تحس هذا الشعور بعينه فى قول الخليفة الراضى ^(١) :

سقانى صفواً من سلاف كريقه وحياً فأحيا قلب لفان وامق
بنيلوفر مثل الكسوس شممته حكى ريحه ريح الحبيب الموافق
حكى رقدة المعشوق قبل انفتاحه وبعد انفتاح الجفن تسهيد عاشق
وبجانب هذه التشبيهات النادرة الفاخرة نجد تشبيهات هزيلة متهافة ،
كقول الشاعر :

مات الخليفة أيها الثقلان فكأننى أفطرت فى رمضان
وقول ابن العباس الجراوى يمدح بعض الخلفاء ^(٢) :

== مسألة جئتكَ مستفتياً عنها وأنت العالم المستشار
علام تحمر وجوه الطلاب وأوجه العشاق فيها اصفرار
فأجابه بقوله :

احمر وجه الظبي إذ لحظه سيف على العشاق فيه احمرار
واصفر وجه الصب لما نأى والشمس تبنى للمغب اصفرار

(١) الأوراق للصولى ٢ — ١٣٨

(٢) ذكر المربزبانى أنه المؤمل بن أميل ، وأنه دخل مسجد الكوفة فى يوم جمعة وقد
عمى إلى الناس خبر وفاة المهدي وهم يترقبون قراءة الكتاب عليهم بذلك ، فقال رافعا صوته :

مات الخليفة أيها الثقلان

فقال جماعة من الأدباء هذا أشعر الناس ! نعى الخليفة إلى الجن والإنس فى نصف بيت .
وأمدد الناس أبصارهم متوقعين لما يتم به البيت ، فقال :

فكأننى أفطرت فى رمضان

فضحك الناس وصار شهرة . الموشح — ٢٩٧

ونسبه ابن رشيق إلى أبى العتاهية . يريد أنى بمجاهرتى بهذا القول كأنما جاهرت ==

إذا كان أملاك الزمان أراقما فإنك فيهم دائم الدهر ثعبان
وقول آخر في الوصف :

كأنتا والماء من حولنا قوم جلوس — ولهم ماء
فإن هذه التشبيهات يبلغ من سخفها أنها تستخرج الضحك من الأعماق
بل منها ما أضحك الناس في مقام خلق الوقار لمثله ، وهو موت خليفة المسلمين !

== بالإفطار في رمضان نهائراً ، وكل أحد ينكر ذلك ويستعظمه من فعلى .

ثم قال : وهذا معنى جيد غريب في إفطار دى غير معرب عما في النفس — العمدة — ١١٨ —
والحق أن المعنى على رداءة لفظه غير جيد ولا غريب ، وكل ما فيه أنه يدلنا على عظم حرمة
رمضان في هذا العهد ، وأن الناس كانوا لا يجرءون على المجاهرة بإفطاره .

(٢) نفح الطيب — ٣ — ١٩٩ .

الفصل السابع

فائدة التشبيه

حيثما وقع التشبيه لا يخلو من فوائد يمتاز بها من الكلام المجرد منه ،
ولهذه الفوائد أثر المتكلم أن يتخذ أداة للتعبير دون غيره من فنون القول .
وهذه الفوائد توجد مجتمعة لقوة القرابة والتناسب بينها ، وإن كان
بعضها يبدو أوضح من بعض في بعض الأمثال ، لأنه يكون مقصوداً في التشبيه
أكثر من غيره .
وأول هذه الفوائد :

١ - الإيجاز والاختصار :

وقد كانت العرب تختصر في التشبيه وربما أومأت به إيماء ؛ كقول
أحد الرجار :

حتى إذا كاد الظلام يختلط جاءوا بمدق هل رأيت الذئب قط ^(١)
يريد في لون الذئب .

واللبن إذا جهد : أي أخرج زبده كله وخلط بالماء ضرب إلى الغبرة . ^(٢)
فحكي لون الذئب .

فكلمة الذئب هنا أغنتنا عن تفصيل كثير كنا في حاجة إليه لو لم يأت
التشبيه .

وقول زهير من معلقته : ^(٣)

(١) المذق : اللبن المعزج بالماء . (٢) السكامل للبرد « شرح المصنف » ٦ - ٧ -

(٣) شرح المعلقات السبع للزوزني - ٨٠ .

بكرن بكورا واستحرن بسحرة فهن ووادي الرّس كاليد للقم
يريد ابتدأن السير وسرن سحرا ، وهن قاصدات لهذا الوادي بعينه
قصداً دقيقاً صائباً لا يخطئنه في الاتجاه إليه والاندفاع نحوه ، كاليد القاصدة
للقم بالطعام ؛ لا تخطئه في قصدها ولا تنحرف عنه .
فانظر كيف نابت هذه الحكمة عن كلام طويل مع البراءة من التعسف
والوفاء بحق المعنى !

وقول النابغة في اعتذاره للنعمان بن المنذر :

فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المتأى عنك واسع

لأنه قصد شدة سخطه ، وراعى حال المسخوط عليه ، وترحم أن الدنيا تظلم
في عينيه ، حسب الحال في المستوحش الشديد الوحشة .

ولم يشبه بالنهار مع أنه بمنزلة الليل في وصوله إلى كل مكان ؛ فما من
موضع من الأرض إلا ويدركه كل واحد منهما ، فكما أن الكائن في النهار
لا يمكنه أن يصير إلى مكان لا يكون به ليل ، كذلك الكائن في الليل لا يجد
موضعا لا يلحقه فيه نهار ، فاختصاصه الليل دليل على أنه قد روى في نفسه ،
فلما علم أن حالة إدراكه — وقد هرب منه — حالة السخط ، رأى التمثيل
بالليل أولى .

ويستعان على بيان ذلك بقول الشاعر في مثل هذا المقام :

نعمة كالشمس لما طلعت بثت الإشراق في كل بلد

وذاك أنه قصد ههنا ما قصده النابغة في تعميم الأقطار ، والوصول إلى كل
مكان ، إلا أن النعمة لما كانت تسر وتؤنس أخذ المثل لها من الشمس ،
ولو أنه ضرب المثل لوصول النعمة إلى أقاصي البلاد وانتشارها في العباد
بالليل ، ووصوله إلى كل بلد وبلوغه كل أحد لكان قد أخطأ خطأ فاحشا .
ويمكن أن يحاجب بتركة التمثيل بالنهار — وإن كان بمنزلة الليل فيما أراده —

بأن هذا الخطاب من النابغة كان بالنهار لا بحالة ، وإذا كان يكلمه وهو بالنهار ، كان الظاهر أن يمثل بإدراك الليل الذي إقباله منتظر وطرآنه على النهار متوقع ، فكأنه قال : — وهو في صدر النهار أو أواخره — : لو سرت عنك لم أجد مكانا يقيني الطلب منك ، ولـ كان إدراكك لى وإن بعدت واجبا ، كيادراك هذا الليل المقبل في عقب نهاري هذا إباى ، ووصوله إلى أى موضع بلغت من الأرض . (١)

هذا إلى أن الليل يوحى بالرهبة والخوف والوجل حتى لتخشاه النفوس بالنظرة ، يستوى في ذلك الإنسان والوحش والطير ، فينطوى فيه كل شيء على نفسه ، ويحيطها بوسائل أنجاة والمنعة لا يدخر وسعا في ذلك . فهذه الكلمة « كالليل » على قصرها ، لاتسد مسدها الجمل الطويلة الكثيرة ، زيادة على أنها متعينة في مقامها هذا .

وقد تداول الناس معنى بيت النابغة (٢)

فإنك كالليل . . .

فقال الفرزدق :

ولو حملتني الريح ثم طلبتني
لكنت كشيء أدركته مقادره
وهو دون قول النابغة ؛ لأن الليل أعم من الريح ، والريح أيضا يمتنع منها بأشياء ، والليل لا يمتنع منه بشيء .

وقال العكوك :

وما لمرىء حاولته منك مهرب
ولو رفعته في السماء المطالع
بلى هارب لا يهتدى لمكانه
ظلام ولا ضوء من الصبح طالع
وقال البحترى :

ولو انهم ركبوا السكواكب لم يكن
لمجدّم من خوف بأسك مهرب

وقال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر :
 وإني وإن حدثت نفسي بأني أفوتك إن الرأي عني لعازب
 لأنك لي مثل المـسكان المحيط بي من الأرض أئني استنهضتني المذاهب
 وقال أبو الطيب :

ولـسكنك الدنيا إلى حبيبة فـما عنك لي إلا إليك ذهاب
 وقول شاعر في مغنية :

جاءت بوجه كأنه قمر على قوام كأنه غصن
 غنت فلم تبق في جارحة إلا تمنيت أنها أذن

أليس يريد بذكر القمر والغصن أن يصفها بالحسن والجمال ، والبهاء
 والإشراق ، والعصارة واللين والتثني ؟
 فاكتمني عن كل هذه الألفاظ وما يتصل بها بلفظتين جامعتين .
 وقول آخر يهجو رجلا بالرياء :

فأنت بالليل ذئب لا حريم له وبالنهار على سميت ابن سيرين ^(١) ✓

فالدئب مضرب المثل في الخيانة والغدر والعدوان .
 وكان ابن سيرين مضرب المثل في الورع ، وفي ذلك يقول الجاحظ :
 كان يقال : زهد الحسن ، وورع ابن سيرين ، وعقل مطرف ، وحفظ
 قتادة ، وكلهم من أهل البصرة ^(٢) .
 وقد قامت هاتان الكلمتان : « ذئب » و « ابن سيرين » . مقام أوصاف
 كثيرة في الذم والمدح .

وإنك لتجد هذا الإيجاز بيناً في الآيات الآتية :

(١) السميت : هيئة أهل الخير ، وقد أقامه هنا مقام الورع .

(٢) ثمار القلوب - ٧٠ .

في قول الحياز البلدى :

غنى وللايقاع فو ق بيان منطقته بيان
وكأنما يده فم وقضييه فيها لسان

وقول ابن دراج القسطلى :

ألم تعلبى أن الثواء هو التوى وأن بيوت العاجزين قبور^(١)
وقول كشاجم :

أقبلت ثم عرجت ليتها لم تعرج
في حداد كأنها ورده في بنفسج

وقول السميصر الأندلسى ، في أمير غرناطة :

يبنى على نفسه سفاهها كأنه دودة الحرير

وقول دعبيل الخزاعى - وفيه يقول محمد بن يزيد : ماسمعت أجهى منه :

قوم إذا دُعروا أو نابههم فزع كانت حصونهم الأعراض والحرَم

وقول المتنبى :

أقامت في الرقاب له أياد هى الأطواق والناس الحمام
وقول ابن خالويه في همدان :

بلاد - إذا ما الصيف أقبل - جنةٌ ولسكنها - عند الشتاء - جحيم

وقول إبراهيم الصولى - يظهر الشماتة بموت ابن الزيات - :

لما أتانى خبر الزيات وأنه قد عد في الأموات

أيقنت أن موته حياى

وقول ابن الرومى :

كان مواهبه في المحو ل آراؤه عند ضيق الحيل

فله كان غنياً لعم البلاد ولو كان سيفاً لكان الأجل
ولو كان يُعطى على قدره لأغنى النفوس وأفنى الأمل
وقوله :

قل لأبي القاسم المرجى قابلك الدهر بالعجائب
مات لك ابن وكان زينا وعاش ذو الشين والمعائب
حياة هذا كموت هذا فلست تخلو من المصائب
وقول صاحب بن عباد :

ما بالها قد عرضتني م عند شبي للأذى
تقول بئس بعد ما كانت تقول حيناً
وكنت كحل عينها فصرت فيها كالقذى
وقول شاعر في قتل عبد الملك بن مروان لعمر بن سعيد الأشدق :
كأن بني مروان إذ يقتلونه بغاث من الطير اجتمعن على صقر
وقولهم : كلام كالعسل ، وفعل كالأسبل .
يضرب في اختلاف القول والفعل (١) .

ومن المعجز قول الرسول — صلوات الله عليه — : « المعروف
كاسمه » .
وهو أجمع ما قيل فيه (٢) .

وتفاوت التشبيهات في الإيجاز حتى يكون بعضها أوجز من بعض
فيوصف بأنه أفضل وأجود .
وذلك كقول ابن الرومي — يصف الخمر — :

رأت نار إبراهيم أيام أوقدت وحازت من الأوصاف أوصافها الحسنى
حكمت نورها في بردها وسلامها وجاءت بطيب لا يوازي ولا يحكى

(١) نهاية الأرب — ٣ — ٤٦ . (٢) ديوان المعاني — ١٥٣ .

فجاء ابن المعتز فأوجز في قوله :
ومشمولة قد طال بالذن لبها حكمت نار إبراهيم في اللون والبرد
وقال الأعشى :

وتبرد برد رداء العروس بالصيف رقرقت فيه العبير
وتسخن ليلة لا يستطيع نباحها السكب إلا هريرا^(١)
فتقبل منه هذا الكلام واستحسن .
ثم قيل في عيبه أنه أتى به في بيتين وطول به الخطاب .
وأجود منه قول طرفة :

تطرد البرد بحر ساخن وعكيك^(٢) القبط إن جاء بحر
فقيل فيه : إنه أجمع وأخصر^(٣) .
ومنها ما يبلغ في إيجازه درجة التركيز ، وذلك كقول جرير :

كأن رسوم الدار ريش حمامة محاها الليلى واستعجمت أن تكلم
قيل الحمام هنا : القطاة ، وأنه شبه ألوان الرسوم : من الرماد ، وموقد
النار ، والدمنة ، ومجر الطنب ، وما أشبه هذه الأشياء بألوان ريش القطاة^(٤) .
وقول ابن زيدون — وقد كتب به من سجنه إلى أبي حفص بن برد — :
لا يكن عهدك وردا إن عهدى لك آس
وذلك أن الورد قصير العمر والآس طويله .
وقد شرح ذلك العباس بن الأحنف في قوله :

ولكننى شبت بالورد عهدا وليس يدوم الورد والآس دائم
وقول البحترى في إسرائيل النخاس النصراني الأعور — وقد قوم
غلاما له فارسيا بشمن بنحس — :

(١) الهريير : صوت السكب دون نباحه من قلة صبره على البرد .

(٢) العكيك كأميز : شدة الحر مع ركود الريح . (٣) الموشح — ٥٥ .

(٤) أمالي المرتضى — ٣٢ — ١٢٢ .

متى أرضى ودجال النصارى يقوم ما أبيع بفرد عين
وكيف وهل ترى طائوس حسن يحكم في شراه غراب بين
فانظر إلى حسن ما جمع بين الطائوس والغراب في بيت واحد .
ولما كان المهجوة أعور شبهه بالدجال وغراب البين ، والغراب يقال له :
أعور (١)

وقول المتنبي :

رأيت الحميا في الزجاج بكفه فشبهتها بالشمس في البدر في البحر

وقول الصنوبري في نظم قصة عرقوب :

قالوا لنا نخلة وقد طلعت نخلتنا فاصطبر لطلعتها

حتى إذا صار طلوعها بلحا قالوا توقع بلوغ بُسرتها

حتى إذا بُسرها غدا رطباً فازوا بأعذاقها برُمته

عدمته نخلة كنخلة عرقوب ومن قصة كقصتها

فتنبأ له أن يختصر قصة في بيت من أبيات التشبيه .

ومن البدائع أن الرشيد حين حج ، دخل مسجد الرسول - صلى الله
عليه وسلم - فبحث إلى الإمام مالك بن أنس - ض - فلما قام بين يديه
وسلم عليه بالخلافة ، قال يا مالك ، صف لي مكان أبي بكر وعمر من رسول الله
في الحياة الدنيا .

فقال مالك : يا أمير المؤمنين ، مكانهما منه مكان قبريهما من قبره .

فقال الرشيد : شفيتني يا مالك (٢) !

ولا شك أن في هذا التشبيه الموجز الصائب شفاء الصدور !

(١) ثمار القلوب - ٣٧٨ .

(٢) العقد الفريد - ٣ - ٦٤ .

٢ — التبيين والتوضيح :

وهو ميزته الكبرى ، لأن وظيفته الأساسية أن يزيل عن المعنى اللبس والغموض ، ويجلوه على الأنظار ، ويقربه إلى الأذهان .

لذلك كان أشد عيوبه قبحاً أن يأتي مبهماً مستغلقاً ، فإن ذلك ضد الغرض الذى سيق من أجله ، وذلك كقول النابغة يصف ثوراً :

من وحش وجره موشى أكارعه طأوى المصير كسيف الصيقل الفرد^(١)
أراد بالفرد : أنه مسلول من غمده ، فلم يبن بقوله : الفرد عن سله بياناً واضحاً .

والجيد قول الطرمّاح فيه :

يبدو وتضمّره البلاد كأنه سيف على شرف يسل ويغمد^(٢)
وهذا غاية فى الوصف^(٣) .

وقول البحترى :

وأثاف أثت لها حجاج دو ن لظى النار مثل كالأثاف
فقوله « مثل » : أى قائمة ثابتة ، ويريد بالأثافى الثانية : الكواكب التى عند الفرقدين ، وهى ثلاثة قيل لها : أثاف ، لشبهها بالأثافى المعروفة التى يوقد فيها .

فشبه البحترى الأثافى بها لثبوتها وأنها مثل على مر الدهر .

قال أبو حنيفة الدينورى فى كتابه الأنواء : ولو شبهها البحترى

(١) وجره : فلاة بين مران وذات عرق ، ستون ميلاً وماؤها قليل ، فبى تجم الوحش ويقل شربها للماء هناك فتكون بطونها طاوية ، والأكارع : قوائم الدابة ، والمصير : واحد مصران وجمعه مصارين ، كنى به عن البطن .

(٢) الشرف : المكان المرتفع . (٣) الصناعتين — ٨٢ — ٨٣ .

بالنسر الواقع^(١) — لأنه أشهر وأظهر وأقرب شبيهاً — لكان ذلك أحسن
وأكشف للمعنى من أن يشبها بشيء إنما استعير له اسمها ، وليس يعرفه كل
أحد ، ولسكنه جاء من أجل القافية^(٢) .
وقول أبي بكر بن ظهار :

وكان الظلام لما تولى نمر راعه من الفجر ليث
فالنمر لا يشبه الظلام في اللون ، والأسد لا يشبه الفجر ، هذا إلى أن النمر
لا يرتاع من الأسد ارتباع الثور منه ، أو ارتباع الشاة من الذئب حتى يمثل به
بل المعروف أن النمر يقاوم الأسد ويصارعه ولا يستسلم لمهاكمه معه .
ولهذا اشترط الرماني في التشبيه أن يخرج الأغصص إلى الأوضح ،
ويقرب البعيد^(٣) .

كما عرفه السماكي في كتابه « التبيان » : بأنه ركن من أركان البلاغة ،
لإخراجه الخفي إلى الجلي ، وإدناؤه البعيد من القريب^(٤) .
وتجلى لك هذه المزية واضحة في قول المتنبي :

كل ذي مر يزيد في الموت حسنا كبدور تمامها في المحاق
الذمر : الشجاع ، والمعنى أنهم يقتلون في سبيل المعالي فيزدادون بالموت
نفراً وشرفاً وذكرأ سائراً ، كالبدور لا تستفيد تمامها وكما لها إلا بعد أن
يلحقها المحاق .

فهذا التشبيه جلا المعنى المشكل في المصراع الأول ، لأنه مما يدق فهمه
أن الإنسان يزيد حسنه بالموت !
وترى مثل ذلك في الأمثلة الآتية التي لا يحتاج بيانها إلى بيان :

(١) النسر الواقع : أحد كوكبين في السماء .

(٢) الموازنة بين الطائيتين — ٤٥٣ .

(٣) العمدة — ١ — ١٩٥ . (٤) الطراز — ١ — ٢٦٢ .

قال الأخطل :

إن العداوة تلقاها وإن كنت
كالعرّ يكمن حينا ثم ينتشر^(١)
وقال أبو العيناء :

ما في يدى من الصبا
إلا الصباة والأسف
جاء الشباب فما أفا
م ولا ألم ولا وقف
كان الشباب كزائر
ملّ الزيارة وانصرف

وقال سعيد بن حميد :

أهاب وأستحي وأرقب وعده
فلا هو يبدانى ولا أنا أسأل
هو الشمس مجراها بعيد وضوءها
قريب وقلبي بالبعد موكل
وهذا المعنى - كما يقول الحصرى - وإن كان كثيراً مشهوراً ، فليكاد
يدانى فى الحسن^(٢) .

وقال البحتري :

تبسم وقطوب فى ندى ووغى
كالبرق والرعد تحت العارض البرد
وقال الزيادة فىمن خلقت فروته :
خلقوا رأسه ليكسوه قبجاً
غيرة منهم عليه وشجاً
كان صبحا عليه ليل بهم
فحوا ليله وأبقوه صبحا

وقال ابن الرومى :

رب ليل تراه كالدهر طولا
قد تناهى فليس فيه مزيد
ذى نجوم كأنهم نجو
م الشيب ليست تغور لا بل تزيد

(١) العر يفتح العين وضمها : الجرب ، أو بالفتح : الحرب ، وبالضم : قروح بأعناق
الفصان ، وداء يأخذ البعير فيمتعض عنه وبره حتى يبدو جلده . السكامل المبرد و شرح
المرصنى ٥ - ٦ - ٩٩ . (٢) زهر الآداب - ٤ - ١٦٨ .

وقال إبراهيم الصولي :

دعوتك في بلوى أملت صروفها
وإن إذ أدعوك عند ملبة
وقال ابن الزيات يتغزل :

تمكنت من نفسي فأزمت قتلها
كعصفورة في كف طفل يسومها
وقال ابن العميد :

آخ الرجال من الآبا
إن الأقارب كالعقا
وقال أبو نواس :

ترجو وتخشى حالتك الوري
وقال أبو تمام :

ولم أفهم معانيها ولكن
فكنت كأنني أعمى معنى
وقال المتنبي :

كرم خشن الجوانب منهم
وقال :

ولا ملك إلا أنت والملك فضلة
وقال :

متفرق الطعمين مجتمع القوى
وقال ابن شرف القيرواني :

تقلدتي الليالي وهي مدبرة

فأوقدت من ضغن على سعيها
كداعية بين القبور نصيرها

على غير عمد منك والروح تذهب
ورود حياض الموت والطفل يلعب

عد والآقرب لا تقارب
رب بل أضر من العقارب

كأنك الجنة والنار

شجت قلبي فأعجبني شجهاها
بحب الغايات وما يراها

فهو كالماء في الشفار الرقاق

كأنك نصل فيه وهو قراب

فكأنه السراء والضراء

كأنت صارم في كف منهزم

وقال الوزير المهلبى :

وسَمَّوه مع القربى غربيا كنور العين سَمَّوه سوادا
وقال أبو الفتح البستي :

لا يغرُنك أتى لين المسّ م فعزى - إذا انتضيتُ - حسام
أنا كالورد فيه راحة قوم ثم فيه لآخرين زكام
وقال ابن أبي عيثة :

هل أنت إلا كلحم ميت دعا إلى أكله اضطرار
وقال ناصر الدين بن النقيب :

لى بغلة من ضعفها حزامها يُثقلها
كأنها رجلى كما تحملنى أحملها

وقال شاعر :

أضحى فلان أدام الله صرعه كراكب اثنين يرجو قوة اثنين
حتى إذا أخذنا فى حال شوطها تفرقا فهو فى بين الطريقين
طال الزمان ولم يظفر بحاجته كذاك حال الذى يدعو إلهين
وقال بعض العصريين :

بسمات تحت الدموع كما افترت م عن البرق مُمزنة وطفاء^(١)
٣ - المبالغة :

وسر ذلك أنك لم ترد تشبيه الشئ بغيره ، إلا وأنت تقصد به تقرير
المشبه فى النفس بصورة المشبه به أو بمعناه ، فيستفاد من ذلك المبالغة فيما
قصد من التشبيه على جميع وجوهه : من مدح أو ذم ، أو ترغيب أو ترهيب
أو كبر أو صغر .

(١) الوطفاء : السخرية لكثرة ماها ، أو هى الدائمة السح الخبيثة .

وهذا القول ينسحب على جميع وجوه التشبيه ، فإنه لا يخلو من إفادة
المبالغة في حال من الأحوال ، وإلا لم يستحق أن يكون تشبيها ، لأن إفادة
المبالغة هي مقصده الأعظم وبابه الأوسع .

وذلك كقول امرئ القيس :

مَكْرٌ مَفَرٌّ مَقْبِلٌ مَدْبِرٌ مَعَاً بَجَلْهُودٍ صَخْرٌ حَطَّ السَّيْلُ مِنْ عَلٍ
شبهه في سرعة مره وصلابة خلقه ، بحجر ضخم رمى به السيل من مكان
مرتفع إلى حضيض .

وغالى بعض من فسره من المحدثين فقال : إنما أراد الإفراط فزعم أنه
يرى مقبلا ومدبرا في حال واحدة عند الكر والفر ، لشدة سرعته ،
واعترض على نفسه واحتج بما يوجد عياناً ، فثُل بالجلهود المنحدر من قنة الجبل
فإنك ترى ظهره في النصبه على الحال التي يرى فيها بطنه وهو مقبل عليك .
قال ابن رشيق : ولعل هذا ما مر قط ببال امرئ القيس ، ولا خطر
في وهمه ، ولا وقع في خلده ولا روعه^(١) .

وصدق ابن رشيق لأن امرأ القيس يريد : أن الكر والفر والإقبال
والإدبار مجتمعة في قوته لا في فعله لأن فيها تضاداً .
وقوله :

كَأَنَّ الْمَدَامَ وَصُوبَ الْغَمَامِ وَرِيحَ الْحُزَامِ وَنَشْرَ الْقَطْرِ^(٢)
يُعْلُ بِهِ بَرْدُ أَنْبَاهَا إِذَا غَرَدَ الطَّائِرُ الْمُسْتَحِرَّ
فوصف فاهاً بهذه الصفة سحراً عند تغير الأفواه بعد النوم ، فكيف
تظنها في أول الليل ؟

(٢) القطر : عود طيب الرائحة يتبخر به .

وقوله يصف ناراً :

✓ نظرت إليها والنجوم كأنها مصابيح رهبان تُشَبُّ لِقْفَالٍ
وإنما يرجع القفال من الغزو والغارات وجه الصبح ، فإذا رأوها من
مسافة أيام أول الصباح ، وقد خمد سناها وكلَّ موقدها ، فكيف كانت
أول الليل !

وشبه النجوم بمصابيح الرهبان لأنها في السحر يضعف نورها كما يضعف
نور المصابيح الموقدة ليلاً أجمع ، لا سيما مصابيح الرهبان لأنهم يكلون من
من سهر الليل ، فرمما نعسوا ذلك الوقت .

وزعم بعض المتعقبين أن الذي كثر هذا الباب أبو تمام وتبعه الناس ،
فإذا صرت إلى أبي الطيب صرت إلى أكثر الناس غلواً وأبعدهم فيه همة ، حتى
لو قدرما أدخل منه بيتاً واحداً^(١) .

والحقيقة أن المتنبي يفرط في الغلو فيسخر حيناً ، ويأتي بالمحال حيناً
آخر ، وبخاصة حينما يفخر بنفسه .

وإليك أمثالا من غلوه وإغراقه تجعلك تعتقد أنه أحق أو كان يتحاقق
ويجعلك تعجب كيف يقول هذا الهراء من يقول هذه الحكم الغالية الغضة
على مدى الزمان !

فمن ذلك قوله :

تلج جفوني بالدموع كأنما جفوني لعيني كل باكية خد
وقوله :

✓ أنا في أمة تداركها الله م غريب كصالح في ثمود
ومن قوله يصف سيفاً :

ليس التجميع عليه وهو مجرد من غمده وكأنما هو مغمّد

ومن مدحه لمحمد بن زريق الطرسوسي :

لو كان ذو القرنين أعمل رأيه لما أتى الظلمات صرن شُموسا^(١)
أو كان صادف رأس عازر سيفه في يوم معركة لأعيا عيسى^(٢)
أو كان لج البحر مثل يمينه ما انشق حتى جاز فيه موسى
أو كان للنيران ضوء جبينه عُبِدَت فـكان العالمون مجوسا
وقوله في رثاء والده سيف الدولة :

مشى الأمراء حولها حفاة كأن المرو من زف الرثال^(٣)
والنقاد يختلف رأيهم في مثل هذه المبالغات ، فمنهم من يكرها ، وفي ذلك
يروى عبد الرحمن عن عمه الأصمعي : أن رجلا أنشده قول مالك بن أسماء
الفزاري :

وإذا الدرزان حسن وجوه كان للدر حسن وجهك زينا
وتزيدن أطيب الطيب طيبا إن تسميه أين مثلك أينا
والرجل يظهر إعجابه بهما ، فقال له الأصمعي : لانهجب بهما فما يساويان
فلسا ، وأجود الشعر ما صدق فيه وانتظم المعنى ؛ كقول امرئ القيس :
ألم ترياني كلها جمّت طارقا وجدت بها طيباً وإن لم تطيّب
وقال محمد بن يزيد النحوي : أحسن الشعر ما قارب فيه القائل إذا شبه ،
وأحسن منه ما أصاب به الحقيقة ، ونبه فيه بفطنته على ما يخفى على غيره ،
وساقه بوصف قوى واختصار قريب ، ، وعدل فيه عن الإفراط .^(٥)

(١) لدى القرنين حديث مشهور في التأريخ الديني .

(٢) عازر : رجل من بني إسرائيل أحياه عيسى بإذن الله .

(٣) الزف بالسكسر : أصفر الريش وألينه ولا سيما ريش النعام ، ولم يرض بذلك حتى
جعله زف الرثال ، وشبه به المرو وهو ما صغر من الحصى .

(٤) الموشح - ٢٢٠ .
(٥) المصدر السابق - ٢٤٤ .

ومنهم من يؤثر المبالغة ويقول بتفضيلها ويرأها غاية الغايات في الجودة .

والنابعة رأس هذا المذهب وقد رأينا نقده لحسان في قوله :
لنا الجففات الغر يلعن في الضحا وأسيافنا يقطرن من نجدة دما
وقوله — وقد سئل من أشعر الناس ؟ — : من استجيد كذبه ،
وأضحك رديته .

ولما أنشد كثير عبد الملك مدحته التي يقول فيها :
على ابن أبي العاصي دلاص حصينة أجاد المسدّي سردّها وأذالها
يثود ضعيف القوم حمل قتيرها ويستضلع القرم الأشم احتمالها^(١)
قال له عبد الملك : قول الأعشى لقيس بن معد يكرب أحب إلى
من قولك :

✓ وإذا تجي كستية ملبومة خرساء يخشى الدارعون نهالها
كنت المقدم غير لابس جنة بالسيف تضرب معلما أبطالها
فقال : يا أمير المؤمنين : وصف الأعشى صاحبه بالتميش والخرق ،
ووصفتك بالحزم والعزم .
فأرضاه .

قال المرزبانى : رأيت أهل العلم بالشعر يفضلون قول الأعشى في هذا
المعنى على قول كثير ، لأن المبالغة أحسن عندهم من الاختصار على
الامر الوسط .

والأعشى بالغ في وصف الشجاعة حتى جعل الشجاع شديد الإقدام ،
وإن كان لبس الجنة أولى بالحزم وأحق بالصواب ، ففي وصف الأعشى
دليل قوى على شدة شجاعة صاحبه^(٢) .

٤ - التوكيد :

وذلك أن التشبيه من شأنه أن يقرر شكل المشبه في الذهن ، ويعمق معناه ، ويلح عليه بالتثبيت ، ويرسم له في لوح الخاطر صورة بارزة المعالم . فإنك إذا مثلت الشيء بالشيء ، فإنما تقصد به إثبات الخيال في النفس بصورة المشبه به أو بمعناه ، وذلك أوكد في طرفي الترغيب فيه والتنفير منه . (١)

وقد صرح العسكري بذلك في قوله : والتشبيه يزيد المعنى وضوحا ويكسبه تأكيداً ، ولهذا ما أطبق جميع المتكلمين من العرب والعجم عليه ، ولم يستغن أحد منهم عنه (٢) .

ويتجلى التوكيد في معرض واضح في التشبيه المحسوس ، وبخاصة إذا كانت أداته « كان » ، كقول الشاعر :

وتَنقَلُّ من معشر في معشر فكأن أمك أو أباك الزئبق .
وقول المتنبي بصف الخيل في الحرب :

قد كَلَّمَتْها العوالى فهي كالحة كأنما الصاب مذرور على اللجم (٣)
وقوله :

أرى كل ذى ملك إليك مصيره كأنك بحر والماولك جداول

(١) المثل السائر - ١٥٥ . (٢) الصناعتين - ٢٣١ (٣) كالمثما : جرحتها .

الفصل الثامن

تقسيم التشبيه

سلك البلغاء في تقسيم التشبيه طرقاً تختلف باختلاف أمزجتهم ولون ثقافتهم ونظرتهم العلمية أو الفنية .

وبعض هذه الطرق قاصد ، وبعضها طويل شاق ، وهو على طوله ومشقته لا ينتهي إلى فائدة تذكر .

ويكفي أن نعلم أن ابن السبكي بلغ بأقسامه إلى تسعة وثمانين ومائتي قسم^(١) حتى يقين لنا مبلغ غلوهم في هذا الشأن .

وقد لفت هذا الإسراف نظر المرشدي ، فاعترض على السيوطي في اقتدائه بالخطيب في ذكر تقسيمات غير مجدية لا تتفرع عنها أحكام متفاوتة ، مع اعترافه بأن السيوطي حذف كثيراً مما ذكره صاحب الأصل ، جرياً على عادته من ترك التكلم فيما له تعلق بالعلوم الحكمية حيث ذهب إلى تحريمها .

ورمى السكاكي بأنه نهج هذا السبيل لبين عن معرفته باصطلاحات المتكلمين ، وأن الخطيب أوهم أنه لا يعرف هذه الاصطلاحات ، ثم أخل بما وعد من حذف الحشو والتطويل والفضول .

ثم حمد لعبد القاهر إحاطته بأسرار الكلام العربي ، وخصائص التراكيب البليغة ، واقتصاره في هذا المقام على الإكثار من إيراد الأمثلة لأنواع التشبيهات وتحقيق لطائفها .

تفـيـم المبرـد .

وحينما نستعرض هذه التقسيمات نجد المبرد نظر إلى التشبيه نظرة فنية محضنة ، فذكر أن العرب تشبّه على أربعة أضرب (١) .

فتشبيه مفرط ، وتشبيه مصيب ، وتشبيه مقارب ، وتشبيه بعيد يحتاج إلى التفسير ، ولا يقوم بنفسه ، وهو أخشن الكلام

فن التشبيه المفرط المتجاوز قو لهم للسخرى : هو كالبحر ، وللشجاع : هو كالأسد ، وللشريف سما حتى بلغ النجم .

ثم زادوا فوق ذلك ؛ فن ذاك قول بعضهم — وهو بكر بن النطّاح — لأبي دُلف العجلي :

له همم لا منتهى لكبارها وهمته الصغرى أجل من الدهر

له راحة لو أن معشار عشرها على البر صار البر أندى من البحر

ولو أن خلق الله في مسك فارس وبارزه كان الخلق من العمر

ومن التشبيه المتجاوز الجيد النظم قول أبي الطمّحان :

أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم دجى الليل حتى نظّم الجزع ناقبه

ومن التشبيه القاصد الصحيح قول النابغة :

وعيد أنى قابوس في غير كنهه أتان ودوني راكس فالضواجع (٢)

فبت كأن ساورتني ضئيلة من الرقش في أنيابها السم ناقع (٣)

(١) السكّال « شرح المرصفي » ٧ - ٣٣ إلى ٣٧

(٢) المسك بفتح فسكون : الجلد .

(٣) أبو قابوس : كنية النعمان بن المنذر ؛ وراكس : اسم واد ، والضواجع : موضع . وكلاهما بديار غطفان .

(٤) المساورة : الموائمة ، والضئيلة : الحية الدقيقة .

يُسَهِّدُ من نوم العشاء سَلِيمَهَا لِحَلْيِ النِّسَاءِ فِي يَدَيْهِ قَعَاقِعُ ^(١)
تَنَازَرُهَا الرَّاqُونَ من سوء سَمَهَا تُطَلِّمُهُ طَوْرًا وَطَوْرًا تَرَاجِعُ ^(٢)
فهذه صفة الخائف المَهموم ، وذلك أن المنهوش إذا ألح الوجع به تارة
وأَمْسَكَ عنه تارة ، فقد قرب أن يُؤْأَسَ من برئه .
وإنما ذكر خوفه من النعاس وما يعتريه من لوعة في إثر لوعة والفترة
بينهما ، والخائف لا ينام إلا غرأراً فلذلك شبهه بالمدوغ المسهد .
وعرض لحلي النساء ، لأنهم كانوا يعلقونه على المدوغ يزعمون أن ذلك
من أسباب برئه ، لأنه يسمع تقعقعها فيمنعه النوم فلا ينام فيدب فيه السم ،
ويسهد لذلك .

وَأَمَّا التَّشْبِيهِ البعيد الذي لا يقوم بنفسه فكقوله :
بَلْ لَوْ رَأَيْتِي أَخْتَ جِيرَانِنَا إِذْ أَنَا فِي الدَّارِ كَأَنِّي حِمَارٌ
فإنما أراد الصحة .

وهذا بعيد لأن السامع إنما يستدل عليه بغيره .
وقد قال الله — جل وعز — وهو البين الواضح : « مثل الذين حملوا
التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار الأية ، في أنهم قد تعاموا عنها ، وأضر بواعن
حدودها وأمرها ونهيها حتى صاروا كالخمار الذي يحمل الكتب ولا يعلم
ما فيها . »

ويلاحظ أن المبرد لم يمثل للقسم الذي سماه : المقارب

تقسيم قدامه .

وقد أثر قدامة الاقتصاد ، فاكنتي بتقسيم التشبيه قسمين .

(١) السليم : المدوغ ؛ سمي بذلك تفاءلاً له بالسلامة .
(٢) تنازرها : خوف بعضهم بعضها منها ، وتطلعه : تحف عنه أوجاعه فتعود إليه نفسه .

١ - تشبيه الأشياء في ظواهرها وألوانها وأقدارها ، كما شبهوا اللون بالخر ، والقدر بالغصن ، وكما شبه الله النساء في رقة ألوانهن بالياقوت ، وفي نقاء أبقارهن بالبيض « كأنهن بيض مكنون » .
وقول آخر :

أيا شبيه ليلى لا تُراعى فإننى لك اليوم من بين الوحوش صديق
فعينك عيناها وجيدك جيدها خلا أن عظم الساق منك دقيق
وقول آخر :

وردن اعسافا والثريا كأنها على قمة الرأس ابن ماء محلق^(١) ✓
٢ - تشبيه المعاني ، كتشبيههم الشجاع بالأسد ، والجواد بالبحر ،
والحسن الوجه بالبدر .

وكما شبه الله أعمال الكافرين في تلاشيتها مع ظنهم أنها حاصلة لهم ،
بالسراب يدخله الظمان الذي قد وعد نفسه به فلا يجده شيئا .
وكما شبه من لا ينتفع بالموعظة ، بالأصم الذي لا يسمع ما يخاطب به .
وشبه من ضل عن طريق الهدى ، بالأعمى الذي لا يبصر ما بين يديه .
ومن هذا النوع قول النابغة :

فإنك كالليل الذي هو مدركى وإن خلت أن المنتأى عنك واسع
وقول أبي تمام :

✓ هو البحر من أى النواحي أتيت فليجته المعروف والجود ساحله
وختم كلامه بقوله : وهذا كثير فى القول وفى القرآن والشعر ، وما
ذكرنا منه دليل على ما تركنا إن شاء الله^(٢) .

(١) ابن الماء : كل طائر يألف الماء . (٢) فقد النثر - ٥٩ .

والتأمل في تقسيم قدامة يرى أنه لم ينظر إلا إلى وجه الشبه فقط ، فالقسم الأول ، وجه محسوس ، والآخر وجه معقول .

تقسيم العسكري :

وغالى أبو هلال العسكري في التقسيم ، فقسمه ابتداء إلى ثلاثة أقسام :

١ — تشبيه شيئين متفقين من جهة اللون ، مثل تشبيه الليلة بالليلة ، والماء بالماء ، والغراب بالغراب ، والجرة بالجرة .

٢ — تشبيه شيئين متفقين يُعرف اتفاقهما بدليل ، كتشبيه الجوهر بالجوهر ، والسواد بالسواد .

٣ — تشبيه شيئين مختلفين لمعنى يجمعهما ، كتشبيه البيان بالسحر .

والمعنى الذى يجمعهما لطاقة التدبير ، ودقة المسلك .

وكتشبيه الشدة بالموت .

والمعنى الذى يجمعهما : كراهية الحال ، وصعوبة الأمر .

والنوع الأخير من التشبيه العقلى « تشبيه معنى بمعنى ، والأولان

من الحسى » .

ولا يخلو هذا التقسيم من غموض واضطراب ونقص ، فالقسم الأول

مقصود على اللون وحده من المحسوسات ، والقسم الثانى يشوبه اللبس :

ما معنى شيئين متفقين يعرف اتفاقهما بدليل ؟

وما الفرق بينه وبين القسم الأول ؟ وما الفرق على الخصوص — بين

تشبيه الليلة بالليلة ، والماء بالماء ، والسواد بالسواد ؟

تقسيم ثامنه .

ثم عاد العسكري فقسمه من حيث الجودة إلى أربعة أقسام :

١ — إخراج ما لا يحس إلى ما يحس ؛ وهو ما يسمى لدى المتأخرين :

تشبيه المعقول بالمحسوس ؛ كقوله - تعالى - « والذين كفروا أعمالهم كسراب
بقيعة يحسبه الظمان ماء الآية .

والمعنى الذى يجمعهما : بطلان المتوهم مع شدة الحاجة وعظم الفاقة .
ولو قال : يحسبه الرائي لم يقع موقع الظمان ، لأن الظمان أشد فاقة إليه ،
وأعظم حرصاً عليه .

٢ - إخراج ما لم تجر به العادة إلى ما جرت به العادة ، كقوله - تعالى - :
« وإذ نتقنا الجبلَ فوقهم كأنه ظلة » .

والمعنى الجامع الارتفاع بالصورة .
أو إخراج ما جرت به العادة إلى ما لم تجر به ، كقوله - سبحانه - :
« كأنهم أعجاز نخل منقعر » .

وكقوله : « فساكنات وردة كالدهان » .
والجامع : الحمرة ولين الجوهر .

٣ - إخراج ما لا يعرف بالبدئية إلى ما يعرف بها ، كقوله - تعالى - :
« جنة عرضها السموات والأرض » .

والجامع بينهما : العظم .
وكقوله : « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل
أسفاراً » .

والجامع : الجهل بالمحمول .

٤ - إخراج ما لا قوة له فى الصفة إلى ما له قوة فيها ، كقوله - عز
وجل - : « وله الجوار المنشآت فى البحر كالأعلام » .

والجامع بين الأمرين : العظم .
وعلى هذا الوجه تجرى أكثر تشبيهات القرآن ، وهى الغاية فى الجودة
والنهاية فى الحسن .

ثم يقول : وقد جاء فى أشعار المحدثين تشبيه ما يرى بالعيان بما ينال
(٦ م - فن التشبيه)

بالفكر ، وهو رديء ، وإن كان بعض الناس يستحسنه لما فيه من اللطافة والدقة ^(١) .

وهذا التقسيم غير محدود أيضاً ، ولا غناء فيه ، ولا يستطيع ضبطه ، وبعضه يندرج تحت بعض .

ويكفى أن نعلم أنه مثل بالآيتين « والذين كفروا أعمالهم كسراب .. » .

و « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها .. » .

لقسمين مختلفين هما : إخراج ما لا يحس إلى ما يحس ، وإخراج ما لا يعرف بالبدية إلى ما يعرف بها ، مع أنهما معا من المركب العقلي .

تقسيم ثالث له .

ثم عاد مرة ثالثة فقسمه إلى أقسام أخرى يزيد بها الخلط والاضطراب والتشعب ، فقال ^(٢) : والتشبيه بعد ذلك في جميع الكلام يجري على وجوه ، منها :

١ - تشبيه الشيء بالشيء صورة - وهو عند المتأخرين تشبيه المحسوس بالمحسوس - مثل قوله - تعالى - « والقمر - قدرناه منازل - حتى عاد كالعرجون القديم » .

٢ - تشبيه الشيء بالشيء لونا وحسنا ، كقوله - تعالى - : « كأنهن الياقوت والمرجان » . « كأنهن بيض مكنون » .

٣ - تشبيه الشيء بالشيء لونا وسبوغا ، كقول امرئ القيس في الدرع :

ومشدودة السك موضونة تضائل في الطي كالبرد

تفيض على المرء أردانها كفيض الأقي على الجدجد

شبه الدرع بالسيل ، والجامع بينهما : البياض والسبوغ ، لأنها تعم الجسد كما تعم السيل المسكان الصلب .

(١) الصنائع - ٢٢٦ إلى ٢٢٨ . (٢) الصنائع - ٢٣٢ .

(٣) السك : الدرع الضيقة الخلق ؛ والموضونة : المنسوجة حلقتين حلقتين . والمي :

أنها لأنها تتصامم غصونها بعضها إلى بعض حين تطوى حتى تشبه جزوز البرد .

٤ — تشبيهه به لونا وصورة كقول النابغة في الثغر :

كالأقحوان غداة غبَّ سماءه جفَّتْ أعاليه وأسفله ندى
شبه الثغر بالأقحوان لونا وصورة لأن ورق الأقحوان صورته
كصورة الثغر سواء ، وإذا كان الثغر نقيا كان في لونه سواء .
٥ — تشبيهه به لونا فقط ، كقول زهير :

وقد صار لون الليل مثل الأرنج

٦ — تشبيهه لونا وهو لا ، كقول امرئ القيس :

وليل كموج البحر مرخ سدوله على بأنواع الهموم ليتلى

٧ — تشبيهه به معنى — وهو المسمى تشبيه المعقول بالمعقول —
كقول النابغة يمدح النعمان :

فإنك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبد منها كوكب

وهذا التقسيم — كما ترى — يمكن إدخاله تحت تشبيه المحسوس بالمحسوس
والمعقول بالمعقول ، فلا معنى لتمديده وتمطيطه على هذه الصورة .

ولو سلكنا نهج العسكري لتشعبت أقسام التشبيه إلى غير نهاية ، لأن
المعاني لا يمكن حصرها واستقصاؤها .

ولكن من الحق أن نشيد بفضل الرجل ؛ فقد وسع دائرة التشبيه بما
قسم من أقسام ، وبين من حدود ، ووضع من شروط ، وساق من أمثال
كثيرة بارعة لكل قسم .

هذا إلى شعب كثيرة فرعها على ما أصله الأقدمون ، وألوان من النقد
وشح بها مباحثه المختلفة ، فعصمها من الجساسة والجفاف .

(١) الآتي : السيل ، والجبد : الأرض الغليظة .

(٢) الأرنج : جلد أسود تعمل منه الحفاف .

ولا شك أن ما كتبه العسكري في التشبيه فتح الباب على مصراعيه لمن
جاموا بعده، ومهد لهم الطريق فبنوا على أسس متينة، وسلكوا أرضاً دمثة
وجنوا قطفاً مذللة، وكثير من أمثالهم هي أمثاله التي اختارها بنصها وفصها.

تفسيح عبد القاهر:

وذكر عبد القاهر أن التشبيه ضربان^(١):

١ — صريح وهو ما يكون من جهة أمر بين لا يحتاج فيه إلى تأويل
كتشبيه الشيء بالشيء في الصورة والشكل؛ نحو أن تشبه الشيء إذا استدار
بالكرة في وجهه، وبالحلقة في وجه آخر.

وكالتشبيه من جهة اللون، كتشبيه الخد بالورد، والشعر بالليل؛ والوجه
بالنهار، وسقط النار بعين الديك.

وكالتشبيه من حيث الصورة واللون؛ كتشبيه الثريا بعنقود الكرم
المنور.

وكالتشبيه من جهة الهيئة، كتشبيه القامة بالرحم، والقدر اللطيف بالغصن.
ويدخل في الهيئة حال الحركات في أجسامها، كتشبيه الذهاب على الاستقامة
بالسهم السديد، ومن تأخذه الأريحية فيهتز بالغصن تحت البارح.

ويدخل في الصريح كل تشبيه يتعلق بالحواس: من ملوس ومرأى
ومسموع ومشموم ومذوق، ولو كان وجه الشبه مركباً كالبيت المشهور
لقيس بن الخطيم:

وقد لاح في الصبح الثريا لمن رأى كعنقود ملاحية حين نوراً
وكقول ابن المعتز:

وأرى الثريا في السماء كأنها قدم تبدت في ثياب حداد

(١) انظر أسرار البلاغة ص ٦٦ إلى ٧٠.

فالشبه في هذا كله بين لا يجري فيه التأول ، ولا يفتقر إليه في تحصيله .

٢ - تشبيه مؤول وهو أن يكون الشبه فيه محصلاً بضرب من التأول ولو كان الوجه مفرداً ، ويتفاوت تفاوتاً شديداً ، فمنه القريب المأخذ ، السهل المأثى ، كقولهم في صفة الكلام : ألفاظه كالماء في السلاسة ، وكالنسيم في الرقة ، وكالعسل في الحلاوة .

يريدون أن اللفظ لا يستغلق ، ولا يستبهم معناه ، ولا يصعب الوقوف عليه ، وليس هو بغريب وحشى يستكره ، لكونه غير مألوف ، أو ما ليس في حروفه تسكير وتنافر يكد اللسان من أجلهما ، فصارت لذلك كالماء الذي يسوغ في الحلق ، والفسيم الذي يسرى في البدن ويتخلل المسالك اللطيفة منه ، ويهدى إلى القلب روحاً ، ويوجد في الصدر انشراحاً ، ويفيد النفس نشاطاً ، وكالعسل الذي يلذ طعمه وتهش النفس له ، ويميل الطبع إليه ، ويحب وروده عليه .

فهذا كله تأول ورود شيء إلى شيء بضرب من التلطف .

ومنه ما تقوى فيه الحاجة إلى التأول حتى لا يعرف المقصود من التشبيه فيه بيديه السماع ، كنحو قول كعب الأشقرى يصف أبناء المهلب للحجاج — ممثلاً بقول فاطمة بنت الخرشب الأمارية — : هم كالحلقة المفرغة لا يدري أين طرفاها .

فهذا — كما ترى — ظاهر الأمر في فقره إلى فضل الرفق به والنظر ، ألا ترى أنه لا يفهمه حق فهمه إلا من له ذهن ونظر يرتفع به عن طبقة العامة .

ومن هذا الضرب تشبيه التمثيل الذي يحصل فيه الشبه بضرب من التأول .

تقسيم ابن رشيق .

وذكر ابن رشيق : أن التشبيه عند الرمانى يأتي على ضربين والأصل واحد وهما :

١ — تشبيه التقدير — وهو التشبيه من وجه واحد دون وجه — .
 ٢ — تشبيه التحقيق — وهو التشبيه على الإطلاق ، أو التشبيه بالنفس —
 مثل تشبيه الغراب بالغراب ، وحجر الذهب بحجر الذهب — إذا كان مثله
 سواء — وحرمة الشقائق بحمرة الشقائق .
 ويلحظ أن القسم الأخير يخالف ما اشترطوه في أن الطرفين يجب ألا
 يتفقا في جميع الجهات ، وألا يختلفا كذلك .
 وأورد ابن أبي الإصبع في كتابه « تحرير التحبير » تقسيما آخر للرمانى ،
 يعد خيرا مما تقدم ، وإن أشبهه في الجملة ، وهو :

١ — تشبيه حقيقى — أو تشبيه الاتفاق — وهو تشبيه شيئين متفقين
 بأنفسهما ، كتشبيه الجوهر بالجوهر ، مثل قولك : ماء النيل كماء الفرات .
 وتتشبيه العرض بالعرض ، كقولك حمرة الخد كحمرة الورد .
 وتتشبيه الجسم بالجسم ، كقولك : الزبرجد مثل الزمرد .
 ٢ — تشبيه مجازى — أو تشبيه الاختلاف — وهو تشبيه شيئين مختلفين
 بالذات ، لجمعهما معنى واحداً مشتركاً ، كقولك حاتم كالغمام ، وعنبرة
 كالضرغام^(١) .

وما رآه الرمانى من تقسيم التشبيه إلى حقيقى ومجازى ، أو إلى ما اتحد
 ذاتا واختلف صفة وبالعكس ، هو — فى نظرى — أفضل تقسيم وأوجزه
 وأجمعه .

تقسيم السطحي :

وللسكاكى وتلاميذه تقسيم آخر نظر فيه إلى الطرفين وقد جاء على
 أربعة أقسام :

بت ألهو بطيه في رياض زواهر
بين ساق وسامر ومغن وزامر

وقول آخر :

رب ليل كأنه أملى فيك م وقد رحت عنك بالحرمان
وسنعرص لهذا النوع بالتفصيل في موضع آخر .
ويلاحظ أن السكاكي لم ينتكر هذا التقسيم ، فهو موجود في ثنايا
تقسيمات العسكري .
ولكن لا يمكن نكران ما اتسم به هذا التقسيم من دقة وضبط وحصر
ولا عيب في ذلك إذا تجرد من الغلو .

وعبد القاهر — على حظه العظيم من الفنية — لم ينكر فائدة ذلك ، فقال
إن لوضع القوانين ، وبيان التقسيم في كل شيء ، وتهيئة العبارة في الفروق فائدة
لا ينكرها المميز ، ولا يخفى أن ذلك أتم للغرض .^(١)
ولكن الذي يؤخذ على هذه المدرسة إغراقها في التقنين والتحديد حتى
قيدت النشاط البلاغي ، وحجرت ما وسعه الفكر ، وألقت بالفن مكبلاً
بين أربعة جدران .

تقسيم ابن الأثير :

وذهب ابن الأثير^(٢) في تقسيمه مذهباً يجمع بين الطرافة والفائدة ،
فقسمه ابتداء إلى قسمين : مظهر ومضمّر .

وذكر أن المضمّر يُشكل تقدير الأداة في بعض مواضعه .

ثم قسم المضمّر خمسة أقسام :

الأول : يقع موقع المبتدأ والخبر مفردين كزيد أسد .

فهذا مبتدأ وخبره .

وإذا قدرت أداة التشبيه فيه كان ذلك بديهية النظر على الفور ، فقليل :
زيد كالأسد .

والثاني : يقع موقع المبتدأ المفرد ، وخبره جملة مركبة من مضاف
ومضاف إليه ، كقول النبي - صلى الله عليه وسلم - : « الكمأة جذرى الأرض »
وإذا كان المضاف إليه معرفة كهذا الخبر النبوى لا يحتاج فى تقدير أداة
التشبيه إلى تقديم المضاف إليه ، بل إن شئنا قدمناه وإن شئنا أخرناه ، فقلنا :
الكمأة للأرض كالجذرى أو الكمأة كالجذرى للأرض .
وإذا كان المضاف إليه نكرة فلا بد من تقديمه عند تقدير أداة التشبيه .
فمن ذلك قول البحرى :

غمائم سماح لا يغب له حياً ومِسعر حرب لا يضيع له وتر
فإذا قدرنا أداة التشبيه هنا قلنا : سماح كالغمام .

ولا يقدر إلا هكذا ، والمبتدأ فى هذا البيت محذوف وهو الإشارة
إلى الممدوح ، كأنه قال : هو غمام .
ومن هذا النوع ما يشكل تقدير أداة التشبيه فيه على غير العارف بهذا
الفن كقول أبى تمام :

(٢) عن أبى هريرة أن النبي - صلى الله عليه وسلم - : خرج على الصعابة وهم يذكرون
الكمأة ، وبعضهم يقول : هى جذرى الأرض ، فقال - صلوات الله عليه - : « الكمأة من المن
وماؤها شفاء العين » .

قال الزجاج : المن كل ما يمن به - تعالى - مما لا تعب فيه ولا نصب .

وهذا هو المراد من حديث : الكمأة من المن .

وقال أبو عبيدة : لأنها كالن الذى كان يسقط على بنى إسرائيل سهلاً بلا علاج . فكذا
الكمأة لا مثونة فيها يندر ولا سق .

أى مرعى عين ووادى نسيب لحبته الأيام فى ملحوب^(١)
ومراد أبى تمام أن يصف هذا المكان بأنه كان حسناً ثم زال عنه
حسنه ، فقال : إن العين كانت تلتذ بالنظر إليه كالتذاز السائمة بالمرعى .
وإذا قدرنا أداة التشبيه ههنا قلنا : كأنه كان للعين مرعى وللنسيب
منزلاً ومألفاً .

وإذا ما جاء شيء من الآيات الشعرية على هذا الأسلوب أو ما يجرى
مجراه فإنه يحتاج إلى عارف بوضع أداة التشبيه فيه .

والثالث : يقع موقع المبتدأ والخبر جملتين ، كقول النبي — صلى الله
عليه وسلم — : « وهل يكبُّ الناس على مناخرهم فى نار جهنم إلا حصائد ألسنتهم »
كأنه قال : كلام الألسنة كحصائد المناجل .

وهذا القسم لا يكون المشبه به مذكوراً فيه بل تذكر صفته ، ألا ترى
أن المنجل لم يذكر ههنا وإنما ذكرت صفته وهى الحصد .

وكل ما يحىء من هذا القسم فإنه لا يرد إلا كذلك .
وبعد القسم الثانى والثالث متوسطين بالنسبة إلى تقدير أداة التشبيه فيهما .
والرابع : يرد على وجه الفاعل والمفعول كقوله — تعالى — : « والذين
تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم » .

وتقدير أداة التشبيه فى هذا الموضع أن يقال : هم فى إيمانهم كالمتبوءىء
داراً : أى إنهم قد اتخذوا الإيمان مسكناً يسكنونه ؛ يصف بذلك تمسكهم منه .
وعلى هذا ورد قول أبى تمام :

نطقت مقلة الفتى الملهوف فتشككت بفيض دمع ذروف

(١) ويجوز مرعى عين بكسر العين : وهى بقر الوحش على إرادة النساء ذوات العيون
السود الواسعة ، ولحبه : قشرته .

وإذا أردنا أن نقدر أداة التشبيه ههنا ، قلنا : دمع العين كمنطق اللسان
أو قلنا : العين الباكية كأنما تنطق بما في الضمير .

والقسم الخامس : يرد على وجه المثل المضروب ، كقول الفرزدق
يهجو جريرا :

ما ضرَّ تغلبَ وائلٍ أهجوتها أم بُلَّتْ حيث تنأطح البحران
فشبه هجاء جرير لتغلب وائل يبوله في مجمع البحرين ، فكما أن البول في
مجمع البحرين لا يؤثر شيئا فكذلك هجاءك هؤلاء القوم لا يؤثر شيئا .
وكذلك ورد قوله :

قوارص تأتين ويحترقونها وقد يملأ القطر الإناء فيفعم^(١)
فإنه شبه القوارص التي تأتيه محتقرة بالقطر الذي يملأ الإناء على صغر
مقداره : يشير بذلك إلى أن الكثرة تجعل الصغير من الأمر كبيرا .
والقسم الرابع والخامس أشكال الأقسام في تقدير الأداة .

تقسيم للمعاني

بقي تقسيم أورده الحلبي^(٢) وقال عنه : ذكر بعض المؤرخين في التشبيه
سبعة أنواع نحن نورد هنا وإن لم تكن كلها منه وهي :

١ - التشبيه المطلق ، وهو أن يشبه شيئا بشيء من غير عكس ولا تبديل ؛
كقوله - تعالى - : « والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم » ،
« وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام » ،

« كأنهم أعجاز نخل خاوية » ،
وقول الرسول صلى الله عليه وسلم : - « الناس سواسية كأسنان المشط » ،

(١) فعم يفعم من باب كرم : امتلأ . (٢) حسن التوسل - ١٦ .

٢ — التشبيه المشروط ، وهو أن يشبه شيئاً بشيء لو كان بصفة كذا ،
ولولا أنه بصفة كذا ؛ كقوله : أشبه وجه مولانا بالعيد المقبل لو كان العيد
تبقى ميامنه ، وتدوم محاسنه .

وكقوله : وجه هو الشمس لولا كسوفها ، والقمر لولا خسوفه .
وكقول الوطواط :

عزماته مثل النجوم ثواقبا لو لم يكن للثاقبات أفول
٣ — تشبيه الكناية : وهو أن يشبه شيئاً بشيء من غير أداة تشبيه ؛
كقول المتنبي :

بدت قرأ وماست خوط بان وفاحت عنبراً ورنّت غزالا
٤ — تشبيه التسوية : وهو أن يأخذ صفة من صفات « نفسية » وصفة
من الصفات المقصودة ، ويشبههما بشيء ، كقوله :
صدغ الحبيب وحالى كلاهما كالثلي — الى

وقول الحلبي :

كلانا غريق في الدموع وفي الدجى كأن دموع العين والليل طوفان

٥ — التشبيه المعكوس : وهو أن يشبه شيئين كل واحد منهما بالآخر .
كقول بعضهم : كم من دم أهرقناه في البر ، وشخص أغرقناه في البحر ، فأصبح
البر بجرأ بدمائهم ، والبحر برأ بأشلائهم .
وكقول منصور الهروي :

الراح مثل الماء في كاساتها والماء مثل الراح في الغدران

٦ — تشبيه الإضمار ، وهو أن يكون مقصود المشبه التشبيه بشيء ،
ويدل ظاهر لفظه على أن مقصوده غيره ، كقول المتنبي :

ومن كنت جاراً له يا عليّ لا يقبل الدر إلا كباراً^(١)
فبدل ظاهره على أن مقصوده الدر ، وإنما عرضه تشبيه الممدوح بالبحر .
وكقول الشاعر :

إن كان وجهك شمعاً فما جسمي يذوب
٧ - تشبيه التفصيل : وهو أن يشبه شيئاً بشيء ، ثم يرجع فيرجح المشبه
على المشبه به ، كقول الشاعر :
حسبت جماله بدرأ مضيئاً وأين البدر من ذاك الجمال

(١) علي : هو سيف الدولة الحمداني .

الفصل التاسع

أركان التشبيه

للتشبيه أربعة أركان :

المشبه والمشبه به ، ويقال لهما : طرفا التشبيه .

وأداة التشبيه ، ووجه الشبه .

مثل قول ابن الفارض :

أعوام إقباله كالיום في قصر ويوم إعراضه في الطول كالحيج

وعبر السكاكي عن أداة التشبيه : بكلمة « التشبيه » .

وذهب الحموي في الأركان مذاهباً آخر ، فرأى أنها : المشبه ، والمشبه

به ، والمشبه بالكسر — وهو المتكلم — والتشبيه — وهو الإلحاق المذكور

في الشبه (٢) — .

فأغفل أداة التشبيه ووجه الشبه .

ولكن لما كان الإلحاق لا يتم بغير أداة تشبيه ووجه شبه ، يمكن أن

نعتبر أنه قد أتى بهما ضمناً .

طرفا التشبيه :

طرفا التشبيه هما : الركنان الأساسيان فيه .

ولا بد من اتحادهما في الحقيقة أو اشتراكهما في الذات ، مع اختلافهما

في الصفة ، أو اتحادهما في الصفة مع اختلافهما في الحقيقة أو الذات .

لأن التشبيه يقتضى الاختلاف فى بعض الجهة والاشتراك فى بعضها ،
إذا الاشتراك من جميع الوجوه حتى الاتحاد الذى يأتى التعدد ، أو الاختلاف
من جميع الوجوه حتى التعيين الذى يأتى المقاربة ، لا يتأتى به تشبيه ألبته .
فأطراف التشبيه أشبه شىء بالبشر ، فهم جميعاً يشتركون فى صور خاصة ،
وفى سمات يُعرفون بها أنهم بشر .

وفى الوقت نفسه لا نجد فيهم اثنين متشابهين مطلق التشابه .
فهنا موضوعان كل منهما حقيقى فى نطاق حدود معينة ، وهما التشابه
والتغاير ، أو الائتلاف والاختلاف .

مثال الأول : تشبيه إنسان بإنسان مع اختلافهما طولاً وقصراً ، أو بدانة
ونحافة ، أو بياضاً وسواداً إلى غير ذلك .

وكتشبيه العَدُوِّ بالطيران ، لأنه ليس بينهما اختلاف إلا بالسرعة والبطء .
وكقول عمر بن أبى ربيعة :

يتقابلن كالبدور على الأغصان م فى مُثَقِّل من الأرداف
بخصور تحكى خصور الزناير م ضعاف هممن بالإنقصاف
وقول قيس بن ذريح :

أقضى نهارى بالحديث وبالمنى ويجمعنى والهَمُّ بالليل جامع
نهارى نهار الناس حتى إذا بدا لى الليل هزتنى إليك المضامع
وقول المتنبي - فى هزيمة سيف الدولة لعساكر الإخشيد بصفين - :
أوما ترى صفين كيف أتيها فانجاب عنها العسكر الغربى
فكأنه جيش ابن حرب رعته حتى كأنك يا على على

وقوله :

كم مهمه قَذَفَ قلبُ الدليل به قلب المحب قضاني بعدما مطلا^(١)

وقوله :

نصيبك في حياتك من حبيب نصيبك في منامك من خيال

وقول شاعر :

ليل بتنيس ليل الخائف العاني تفنى الليالي وليلى ليس بالفاني

وقول آخر :

عهدي بنا ورداء الليل يجمعنا والليل أطوله كاللحج بالبصر

والآن ليلي مذبانوا - فديتهم - ليل الضرير فصبحي غير منتظر

ومثال الثاني تشبيه الإنسان بالقرود والخنزير ، كقول أبي دلالة :

إذا لبس العمامة كان قردا وخنزيراً إذا خلع العمامة

وكتشبيهه بالجواد في قول المتنبي :

فدى لأبي المسك الكرام^٢ فإنها سوابق خيل يهتدين بأدهم

وتشبيهه بالجواد والسيف في قول المعري :

وإني جواد لم يُحَلَّ لجامه ونصل يمان أعفاته الصياقل

وتشبيهه بالنجم في قول المتنبي :

وإني لنجم تهدي صحبتي به إذا حال من دون النجوم سحاب

وقد يقال : إن الطرفين متحدان في مثل : كأن زيدا قائم .

والجواب : أن الاختلاف في التقدير ؛ إذ تقديره : كأن زيدا رجل

قائم : أي من أفراد الرجل .

وقد يقال : كأن زيدا قائم : للشك ، كما صرح به الزجاج ، إذا كان خبرها

صفة مشتقة أو فعلا ، أو كأن للتحقيق عند بعضهم^(٣) .

(١) المهمة : القلاة الواسعة . والقذف بفتح الحاء : البعيد .

(٢) شرح الفوائد الغياية - ١٩٧ .

وأحوال التشبيه من القوة والاهمية ، والعموم والخصوص ، عائدة إلى المشبه به حقيقة .

وأغراضه من بيان الحال وتقريره إلى آخره عائدة إلى المشبه حقيقة إلا في التشبيه المقلوب ، فإن الأغراض تعتبر في المشبه به هناك .

ومرد ذلك إلى أن الأصل في التشبيه أن يقصد به إلحاق الناقص بالزائد في الصفة المطلوبة ، لأنه قد تقرر في أصل الفائدة المستنتجة من التشبيه — كما يقول ابن الأثير — :

أن يشبه الشيء بما يطلق عليه لفظة « أفعل » .

أي يشبه بما هو أبيض وأوضح ، أو بما هو أحسن أو أقيح .

وكذلك يشبه الأقل بالأكثر ، والأدنى بالأعلى ^(١) .

وهو معنى قول السكاكي : ... المشبه به من حقه أن يكون أعرف

بجهة الشبه من المشبه ، وأخص بها ، وأقوى حالا معها ^(٢) .

وقول العلوي : المشبه به أعظم حالا من المشبه في كل أحواله ^(٣) .

وقد وقع على الندرة مجيء المشبه أقوى من المشبه به في غير القلب ؛

كقوله - تعالى - : « الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ،

إذ لا نور أعلى من نوره - عز وجل - ولكنه جاء كذلك ، تقريباً

لأذهان المخاطبين .

والمدح في التشبيه يجري على المتعارف من تشبيه الأدنى بالأعلى ،

ولكن في الذم يشبه الأعلى بالأدنى ؛ لأن مقام الذم مقام الأدنى ، والأعلى

طارىء عليه .

تقول في المدح : حصباء كالياقوت ، وتراب كالمسك ، ورمل كالحناء ،

وورق كالفضة .

(٢) مفتاح العلوم — ١٨٤

(١) المثل السائر — ١٦٥

(٣) الطراز — ٣ — ٢٢٧

وكقول المتنبي :

تذكرت ما بين العذيب وبارق بحر عوالينا ومجرى السوابق
وليسلا توسدنا الثوبة تحته كأن تراها عنبر في المرافق^(١)
وفي الذم تقول : ماس كالزجاج ، ودر كالخزف ، وقمح كالزؤان ،
ودقيق كالخير .

وكقول أبي هفان في ذم باهلة :

أباهلُ ينبحنى كلبكم وأسدكم ككلاب العرب
ولو قيل للكلب يا باهلي عوى الكلب من أوم هذا النسب
وقول داود الأنطاكي :

بيضاء تجلو الهم عن ناظري بعين حق لا بعين انتقاص
فقل لمن يرغب في أسمر ما الفضة البيضاء مثل النحاس
وقول آخر :

وكنت كذئب السوء لما رأى دما بصاحبه يوما أحال على الدم^(٢)
وكذلك يشبه الأعلى بالأدنى في السلب .

ومنه قوله - تعالى - : « يا نساء النبي لستن كأحد من النساء » .

أى فى النزول لا العلو .

وقوله - عز وجل - : « أم نجعل المتقين كالفجار »

أى فى سوء الحال .

وكقول طرفة :

فتى ليس بابن العم كالذئب إن رأى بصاحبه يوما دما فهو آكله

(١) الثوبة : موضع بقرب الكوفة .

(٢) أحال : أقبل ، يضرب اللوم بالذئب فى الحيانة ، وربما كانت الذئبة مع ذئبها فىرى

الذئب فتشد عليه وتأكله .

وقد يقع العكس كقول العسكري :

أفضل الورد على النرجس لا أجعل الأنجم كالأشمس
ليس الذي يقعد في مجلس مثل الذي يمشل في المجلس

« لا » بين المشبهين

وبما نحن فيه قول الحريري : غدوت ولا اغتداء الغراب (١)
نحذف مل وأقيم المضاف إليه مقامه ، ولولاد لم تنصب لأنه معرفة
وقال الفندي : رفعه أبلغ من نصبه
والمعنى : أراد أن اغتداه كان قبل اغتداه الغراب ، وهو أكثر الطيور
بكورا .

وهذا وما شابهه كثير في قول الكتاب ، والمشبه فيه أقوى من المشبه
به ، ولم يأت مثله عن العرب بل عكسه ، كقولهم : فتي ولا كمالك : يريدون
أن مالكا أفضل من كل فتي .

ومثله : مرعى ولا كالسعدان : أى السعدان أفضل من كل مرعى .
ثم يقول : هذا مذهب العرب في ذكر « لا » بين المشبهين ، وما وقع
في كلام الحريري انقلب فيه المعنى ، وهو كثير في كلام عامة العراق ، وقد
استعمله البديع في مقاماته . والمولدون في أشعارهم .

(١) ومثله ما كتبه الميكالى إلى العاليي : قرأت خبر سلامتك ، فسرى السرور في الجوانح ،
واهتزت النفس له اهتزاز الغصن تحت البارح .
أليس لأخبار الأجابة فرحة ولا فرحة العطشان فاجأه القطر

زهر الآداب — ٤ — ٩٤

ومن ذلك قول المتنبي :

وكل شجاعة في المرء تغني ولا مثل الشجاعة في الحكيم
ومثل : اسم لا وإن كان مضافا إلى معرفة ، لأنه من الأسماء التي لا تتعرف بإضافتها إلى
المعارف ، والخبر محذوف : أى ولا مثل الشجاعة في الحكيم موجودة : يريد أن كل شجاعة
تنفع صاحبها وتندأ عنه الحيف والظلم والأذى ، ولكنها مع ذلك لا تقاس بشجاعة الحكيم
المقرونة بالحزم وبعد النظر والتفكير في العواقب .

ويقول الخفاجي : استعمله العرب على الترقى والخريرى على عكسه ، وليس مثله مما يتوقف على السماع ، لأنه ليس فيه ما يخالف كلام العرب في معاني المفردات ولا في قواعد الإعراب ، ومثله لا يتوقف على النقل ، والمعاني لا حصر فيها ، مع أن الثعالبي في كتاب « سحر البلاغة » نقل مثله عن العرب ولم ينتقده .

ويقول الخفاجي : ثم إنى ظفرت بهذا الاستعمال بعينه في كلام العرب الفصحاء ، كقول يزيد بن الريان في شعر قاله في قصة وقعت بينه وبين عامر ابن الطفيل العامري ، وهو :

أجى يابن الأسكر بن مدلج لا تجعلن هوازنا كمـذجج

لا النبع في مفرسه كالعوسج ولا الصريح المحض كالمزج^(١)
ثم يقول : والحاصل : أن نفي مشابهة شيء لشيء إما لأنه دونه أو فوقه لأن المشبه به أعلى مرتبة منه ، وقد وقع في أول حواشي « التلويح » كلام فيه ، حيث قال في وصف الكتاب : اشتهر ولا كاستهـار الشمس في رائعة النهار ، مع أن لكل وجه من البلاغة حسن في بابه .
وفي الشعر القديم :

طرق الخيال ولا كيلة مدلج^(٢)

وقد يفيد المشبه به معنيين :

أحدهما محسوس ، كتشبيهه المصاييح بالنجوم في لمعانها وإشعاعها .
والآخر معقول ، كتشبيهه الرسول - صلوات الله عليه - أصحابه بها في الهداية حيث يقول « أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اقتديتم » .
فهذا شبه عقلي .

(١) النبع : شجر القسي والسهام ، والعوسج : الشوك ، والصريح : الخالص من كل شيء .

(٢) طراز المجالس - ١٢٢ - ١٢٣ .

والمعنى : أن الناس يهتدون بهم كما يهتدى السارى فى ظلمة الليل البهيم
بالنجوم ، قال - تعالى - : « وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها
فى ظلمات البر والبحر » .

وقد يكون المعنيان متضادين .

وذلك كرقية الحيات ، فإنها تضرب مثلاً فى شيتين متضادين :
أحدهما الكلام الطويل الذى لا يفهم ، كقول على بن الجهم فى وصف
توقيعات ابن الزيات :

على ابن عبد الملك الزيات لعائن الله موفرات
يرمى الدواوين بتوقيعات مطولات ومقصرات
أشبه شىء برقى الحيات

والآخر : الكلام الذى يزيل السخيمة ويصلح ذات البين ، وهو اللين
اللطيف كما قال أبو تمام :

خذها مثقفة القوافى زنتها بسوايغ النعماء غير كنود
كالدرد والمرجان ألف نظمه بالشذر فى عنق الفتاة الرود
كشقيقة البرد المنمنم وشبهه فى أرض مهرة أوبلاذ تزيده (١)
كرقى الأساود والأراقم طالما نزعتم حلمات سخائم وحقود (٢)
وكبيضة البلد ، فإن العرب تمدح بها وتذم
فمن مدح بها جعلها أصلاً كما أن البيضة أصل الطائر .
ومن ذم بها أراد ألا أصل له .

(١) مهرة : من أقاليم جزيرة العرب ، وتزيد : أبو قبيلة ، ومنه البرود التزيدية وبها
خطوط حر .

(٢) الحلمات : جمع حمة بالضم ، وهى السم أو الإبرة يضرب بها الزنبار أو الحية
ونحو ذلك .

فمن الأول قول أخت عمرو بن لؤي «العامري» حين قتله علي بن أبي طالب
في غزوة الخندق :

لو كان قاتل عمرو غير قاتله لكنت أبكى عليه آخر الأبد
لكن قاتله من لا يعاب به وكان يدعى قديماً بيضة البلد

ومن الثاني قول الراعي يهجو عدي بن الرقاع العاملي :
لو كنت من أحد يهجي هجوتكم يا ابن الرقاع ولكن لست من أحد
تأبى قضاة أن ترضى لكم نسبا وأبنا نزار فأتم بيضة البلد ^(١)

(١) أبنا نزار : مضر ، وريعة .

الفصل العاشر

التمليح والتهكم

قد يقع التشبيه بين الضدين والمختلفين ، كقولك : العسل في حلاوته كالصبر في مرارته ، أو كالخل في حموضته .

ومن ذلك قولك للبخیل : هو حاتم في الكرم ، وللعجبان : هو عنتره في الشجاعة ، وللعبي : هو سحبان في الفصاحة .

غير أنه لا بد لصحة ذلك الأخذ من غرض ، وهو التملیح أو التهكم . فلا يكفي مطلق الاشتراك ، كأن تقول : السماء كالأرض في الانخفاض ، والأرض كالسما في الارتفاع ، ونحو ذلك مما لم يصح ورودہ عن البلغاء .

والتملیح لغة : هو الإتيان بما فيه ملاحظة وظرف ، يقال : ملح الشاعر بالتشديد كفرح : إذا أتى بشيء ملح ، وفلان يتظرف ويتملح ، وحدثته بالملح .

قال الطرماح يخاطب زوجته سليمة :

تملح ما استطاعت ويغلب دونها هوى لك ينسى ملحمة المتملح
والتهكم : الاستهزاء كأن تقول للقيح : هو يوسف في الحسن ، وكما تقدم في الأمثلة السابقة .

وتهكم به : تهزأ به ، وقال ذلك على سبيل التهكم . قال حسان :

بنی أم البنین ألم یرعکم وأتم من ذوائب أهل نجد
تهم عامر أبی براء لیخفره وما خطأ كعمد

وعن الأصمعي : أنه قال في قول زهير :
فتغلل لكم (١)

هذا منه تهكم (٢).

ومن ذلك قول شاعر في رجل اسمه عون :

الجود حاتم طيء وحاتم البخل عون
له مطابخ بيض والعرض أسود جون

ومعناهما في اصطلاح البلغاء : إطلاق اللفظ الدال على وصف شريف على ضده ، كإطلاق الكريم على البخل ، والأسد على الجبان . ولا يصح معهما العكس ؛ كإطلاق البخل على الكريم ، والجبان على الأسد .

ولهذا اشترط الرمان في هذا الضرب من التشبيه أن يكون مصحوباً بتقييد وتفسير .

وقد يقع كل من التلميح والتهكم منفرداً ، وقد يجتمعان معا والأمثلة كلها صالحة لذلك ، فإذا قلت للدميم : أنت يوسف في الجمل أمام من يستملح مثل ذلك الحديث ويستظرفه ، وقامت القرائن على أنك لا تقصد الاستهزاء بالمشبه ، لصداقة بينكما تجعله جليل المكانة عظيم القدر في نفسك ، كان الغرض لا محالة التلميح .

وإن قامت القرائن على قصدك اتخاذ هزواً ونصبه سخرية ، لعداوتك له وسخطك عليه ، مع عدم وجود سامع يستملح النكات ، ويستظرف النوادر ، ويستجيد الملمح تقصده بحديثك ، كان الغرض التهكم حتماً . وإن قامت القرائن على قصدك التهكم والتلميح معا ، بأن كان المشبه خصماً

(١) يريد البيت :

فتغلل لكم مالا تفل لها قرى بالعراق من قفين ودرهم
(٢) أساس البلاغة للزمخشري . مادة « هكم » .

لك تقصد تجريحه والغرض منه ، وكان هناك سامع رفيف الحس يتذوق أسرار الكلام ، ويستروح إلى النكتة البارة فأردت التطرف والتملح معه بهذا القول ، كان الغرض كليهما .

ويظهر لدى التأمل أن الجمع بين التهمك والتمليح مما يخرج عن الطريق السوى ، ولا تسوق إليه الفطرة الصافية والطبع السجيح ، والحق ما ذهب إليه المولى عصام ، وهو أن قصدهما معا تكلف ، إذ جمع الاعتبارين المذكورين في إطلاق واحد قلما يمكن (١) .

ووجه الشبه هنا منزع من نفس التضاد الواقع بين الشبهين لا اشتراكهما فيه ، فإن كلا منهما موصوف بأنه مضاد للآخر مساو له ، فإذا قلنا: ما أشبه الجبان بالأسد في الشجاعة ، أو زيد الجبان ، كالأسد في الشجاعة ، كان وجه الشبه منزعاً من المتضادين .

وذلك لأننا نزلنا تضاد الجبن والشجاعة منزلة تناسبهما ، فصار الجبن مناسباً للشجاعة وبمنزاتها؛ لأن تناسب التنزيلي مشترك بين الجبن والشجاعة ، ليكون كل منهما مناسب للآخر ، فصار الجبان مناسباً للشجاع . فإذا شبهته به صار كأنه قامت به شجاعة ، وإذا أخذ وجه الشبه منهما كان هو الشجاعة ، وإن كانت في المشبه به حقيقة وفي المشبه ادعاء .

وزيادة في الإيضاح يقال : إن وجه الشبه في هذا التشبيه هو الراجع للتضاد ، الموجب للمناسبة ، لا نفس التضاد المشترك بين الضدين ، ومن جعل الوجه هنا هو التضاد المشترك حقيقة فقد سها .

وذلك أنه إذا قصدنا أن الوجه هو التضاد لم يعد تمليحاً ولا تهكماً ، لأنه بمنزلة قولنا : البياض كالسواد في تقابلهما وتضادهما ، أو في اللونية السائدة

فيهما ، ولكننا نزلنا التضاد منزلة التناسب ، وجعلنا الجنب بمنزلة الشجاعة ، فالجانب شجاع تنزيلا فصح الاشتراك^(١) .

أى إن تنزيل التضاد منزلة التناسب رفع التضاد بينهما ، فصح جعل الجنب بمنزلة الشجاعة ادعاء .

وقد اعتبر عبد اللطيف البغدادى فى كتابه « البلاغة » : التضاد على وجه آخر فقال : قد يشبه أحد الضدين بالآخر إذا كان أحدهما أظهر ؛ كما يقال : العسل فى حلاوته كالصبر فى مرارته .

وأنشد إبراهيم بن المهدي يعتذر إلى المأمون فى الخروج عليه :
لئن جحدتك معروفا مننت به إني لفي اللؤم أحظى منك فى الكرم
يريد أن لؤمه إذ ذاك يربى على نصيب المأمون من الكرم مع عظم نصيبه منه .

وقول أبى نواس :

أصبح الحسن منك يا أحسن الأمة م يحكى سماجة بن حبش
يريد أن حسن هذا يبلغ فى منزلته قبح ذاك .
وقول آخر :

أنت أذكى ربحاً إذا تعطرت بالعنبر م والمندى من ظربان^(٢)
ويرى ابن السبكي : أن وجه الشبه ليس هو للتضاد ، بل هو مطلق الشدة والقوة الموجودة فى كل من الضدين .

ثم هو يرى أن المراد بالتلميح هنا : هو التلميح المصطلح عليه : أى الإشارة فى شعر أو قرينة سجع إلى قصة معلومة ، أو نكتة مشهورة ، أو بيت شعر

(١) حاشية الدسوقي - ٣ - ٣٨٣ .

(٢) المندى : عود منسوب إلى مندل من بلاد الهند ، والظربان كقطران : دوية كاهرة مننتة .

حفظ لتواتره ، أو إلى مثل سائر يجرى في الكلام على جهة التمثيل .
وهذا هو المتعين عنده .

فإذا أخذنا قولهم للبخيل : هو حاتم ، إلى التلميح ، فالقصة المشار إليها :
ما اشتهر من كرم حاتم وأخباره .^(١)

وقد رد ذلك المغربي ، فقال : وليس هو ، التلميح ، مرادفاً للتلميح بتقديم
اللام ، الذي هو الإشارة إلى قصة ، كما في قول أبي تمام — وقد سمرت
محبوبته من جانب الخدر ليلاً — :

فُرِدَّتْ عَلَيْنَا الشَّمْسُ وَاللَّيْلُ رَاغِمٌ بِشَّمْسٍ لَهُمْ مِنْ جَانِبِ الْخَدْرِ تَطْلُعُ
فَوَاللَّهِ مَا أَدْرَى أَأَحْلَامُ نَائِمٌ أَلَمْتُ بِنَا أَمْ كَانَ فِي الرِّكْبِ يَوْشَعُ

ومن سوى بينهما وجعل قوله : هو حاتم ، إلى قصة حاتم فقد وهم ؛
لأن حاتم لا يشعر بقصة وإنما يشعر بالجوهر الذي هو كاللازم له ، وهذا
ما قصد ليجعل وجه الشبه .^(٢)

والحق مع المغربي في أن التلميح غير التلميح في معناه وغرضه ، ولكن
هذا لا ينفي أن التلميح يسمى تلميحاً عند بعضهم ، كأن صاحبه أتى بنكسة
زادت كلامه ملاحظة — كما يقول الجوى^(٣) — .

هذا ، والتلميح معروف في كلام العرب كما نبه عليه الإمام المزمزوقي
في قول الحماسي :

أَتَانِي مِنْ أَبِي أَنَسٍ وَعَيْدٌ فَسَلَّ لَغَيْظَةَ الضَّحَاكِ جَسْمِي
فَإِنْ قَائِلُ هَذَا الْبَيْتِ قَصْدُ التَّهْكُمِ بِأَبِي أَنَسٍ ، وَالتَّهْكُمُ بِأَتْيَانِهِ شَيْئًا يَسْتَعْرِضُهُ
السَّامِعُونَ .

(١) عروس الأفراح — ٣ — ٣٨٣ .

(٢) مواهب الفتاح — ٣ — ٣٨٥ . (٣) خزنة الأدب — ٢٣٠ .

وسل مبنى للمجهول ، والجسم نائب فاعل .
وفي بعض الروايات :

فَسَلَّ تَغِيظُ الضَّحَاكِ جِسْمِي

بالبناء للفاعل ، وتغيظ : فاعله ، والجسم : مفعول به .
والمراد بالضحك : أنس نفسه ، وقد عبر بالظاهر بدل المضمحل بياناً
لعين المستهزأ به بذكر الاسم العلم تحقيراً لشأنه .
وقيل الضحك : اسم لملك من الملوك سماه به زيادة في التهمك ، لتضمنه
تشبيهه به على وجه الهزؤ والسخرية ، فكأنه قال : فسَلَّ جِسْمِي تَغِيظُ هذا
الذى هو كالمملك الفلانى ، ولا يخفى ما فيه من الاستهزاء .

ومن هذا قول جرير يتهكم بالفرزدق لتهديده راويته « مربع » بالقتل
زعم الفرزدق أن سيقتل مربعاً أبشر بطول سلامة يا مربع
وقول ابن النقيب :

توعدنى وهددنى وغالى وبالىغ فى التعنّت والملامه
فقلت حسدى أبشر بخير وأيقن طول عمرك بالسلامه
ومما يجل عن الوصف قوله — تعالى — : « ذق إنك أنت العزيز الكريم »
جاءت على سبيل الهزؤ والتهكم بمن كان يتعزز ويتكرم على قومه .
وقيل : إن المراد به أبو جهل ؛ فقد روى أنه قال لرسول الله — صلى
الله عليه وسلم — : ما بين جليلها أعز ولا أكرم منى ، فوالله ما تستطيع
انت ولا ربك أن تفعلوا بي شيئاً .^(١)

وهناك فرق لطيف بين التهمك وبين الهزل الذى يراد به الجد — كما يقول
الجموى — ^(٢) :

(١) الكشف للزحمرى — ٢ — ٣٦٣ . (٢) خزنة الأدب — ٧٩ — ٨٠ .

فالأول ظاهره جد وباطنه هزل والثاني بالعكس .
والهزل الذى يراد به الجد ، هو أن يقصد المتكلم مدح إنسان أو ذمه ،
فيخرج من ذلك المقصد مخرج الهزل والمجون اللائق بالحال كما فعل أصحاب
النوادر ؛ مثل أشعب وأبي دلالة وأبي العيئة ومزيد ، ومن سلك مسلكهم .
فمن نوادر أشعب أنه حضر وليمة لبعض ولادة المدينة وكان رجلاً بخيلاً
فدعا الناس ثلاثة أيام وهو يجمعهم على مائدة فيها جدى مشوى ، فكان
الناس يحومون حوله ولا يمسسه أحد منهم لعلهم يبخله .
وكان أشعب يحضر مع الناس ويرى الجدى ، فقال فى اليوم الثالث :
زوجه طالق إن لم يكن عمر هذا الجدى بعد أن ذبح وشوى أطول من عمره
قبل ذلك !

والفاتح لهذا الباب امرؤ القيس بقوله :

وقد علمت سلمى وإن كان بعلمها بأن الفتى يهذى وليس بفعّال
ومن شواهد^(١) ما أنشده ابن المعتز من قول أبي العتاهية .
أريقك أريقك باسم الله أريقك من بخل نفسك عل الله يشفيك
ما سلم كفك إلا من يتركها ولا عدوك إلا من ير جيكا^(٢)
ومثله الخطيب^(٣) بقول أبي نواس من قصيدة هجا بها تيماء وأسداً
وافتنخر بقحطان .

إذا ماتمعى أذاك مفاخرأ فقل عد عن ذا كيف أكلك للضب
وسؤال التيمى عن أكله الضب ، هزل مبطن بالجد ، لأن تيماء فى الواقع
كانوا يأكلون الضباب ويعيرون بذلك .

(١) البديع لابن المعتز — ١١٢ (طبع بأستاذ خفاجى) .

(٢) فى خزنة الأدب للحموى وفى معاهد التنصيص : « يناولها » .

(٣) الإيضاح — ٢٦٩ .

وقد هجا أبو القاسم بن الفضل أو الرئيس على بن الأعرابي ، الحبيص ييص
الشاعر التميمي بقوله :

كم تبارى وكم تطوّل طُرطو ركَ ما فيكَ سَعرة من تميم
فكل الضب واقرض الحنظل الأخضر م واشرب ما شئت بول الظليم
ليس ذا وجه من يضيف ومن يقرى ومن يدفع الأذى عن حريم
ومن بدائعه قول ابن نباتة المصري :

سلبت محاسنك الغزال صفاته حتى تحير كل ظبي فيكا
لك جیده ولحاظه ونفاره وغداً نظير قرونه لأيمكا
ويقول الحموي : وهذا النوع ما سبكه في قواله إلا من لطف ذاتة ،
وكانت له ملكة في هذا الفن وحسن تصرف .

ثم يذكر أن من أظرف ما وقع له في هذا الباب أنه أصيب بحرب وهو
في مصر أشرف منه على التلف ! ووصف له الحكيم بطيخا — وكان عزيز
الوجود في هذه الأيام — وقد بلغه أنه أهدى إلى ابن البارزى صاحب
صاحب دواوين الإنشاء بطيخ ، فكتب إليه :

مولاي عاقبتى الزمان بحربة وقد انقطعت بجسمى المساوخ
وعمييت من حزنى على ماتم لى لكن شممت روائح البطيخ
ثم يقول معلقا على ذلك : والكناية عن طلب البطيخ سبكت فى أحسن
قوالب الهزل مع حسن التضمين (١) .

تقييم الطرفين :

قد يأتى الطرفان فى تشبيه المفرد بالمفرد غير مقيدىن ، كتشبيه
القَد بالغصن .

وقد يقعان مقيدين ؛ كقولك لمن لا يحصل من سعيه على طائل : هو كالقابض على الماء ، والراقم على الماء .

فالمشبه هو الساعي ولكن سعيه غير مطلق بل مقيد بأنه سعى مقرون بالخبية والإخفاق .

والمشبه به هو القابض أو الراقم لا مطلق قبض ولا رقم ، بل قيد بالقبض على الماء أو الرقم فيه ، لأن وجه الشبه فيهما هو التسوية بين الفعل وعدمه في فقد الفائدة .

والقيد في هاتين الصورتين هو الجار والمجرور .

فمعنى التقييد إذن : أن تشبه شيئاً بشيء بشرط انضمام شيء إليه .

والمراد بالقيد في طرفي التشبيه : ما كان له مدخل في التشبيه ، احترازاً عن القيود اللفظية ، كقوله - تعالى - : « هن لباس لكم وأتم لباس هن » . فـكم وهن : قيد لفظي لا أثر له في وجه الشبه .

وقد يقع المشبه به مقيداً والمشبه مطلقاً ؛ كقولك : هو كالحادي وليس له بعير .

والقيد هنا : حال .

أو بالعكس ؛ كتشبيه القمر في الليلة الرابعة عشرة بالوجه .

ومما جاء طرفاه مقيدين قول ابن الرومي :

إني وتزييني بمدحى معشراً كعلق درأ على خنزير
فالشبه : هو أن كل واحد منهما يضع الزينة حيث لا يظهر لها أثر ؛ لأن الشيء غير قابل للتزيين .

ولا بد للواو في هذا النحو أن تكون بمعنى « مع » وأمرها فيه أبين إذ لا يمكن أن يقال : إني كذا وإن تزييني كذا ، لأنه ليس معناشيتان يكون أحدهما خبراً عن ضمير المتكلم في « إني » الذي هو المعطوف عليه ، والآخر

عن تزيين المعطوف فأنت في نحو « إنى وتزيينى ، ملجأ إلى جعل الواو بمعنى مع من كل وجه ، حتى لا تقدر على إخراج الكلام إلى صورة تكون فيها الواو عارية من معنى مع ويكون تشبيهاً بعد تشبيهه .

فإن قلت إن فى « معلق » معنى الذات والصفة معاً ، فيمكن أن يكون أراد أن يشبه نفسه بذات الفاعل وتزيينه بالفعل نفسه .

والجواب لو أريد إنى كـمعلق درأ على خنزير ، وإن تزيينى بمدحى معشراً كتعليق درة على خنزير ، كان قولاً ظاهراً السقوط ، لما ذكرت من أنه لا يتصور أن يشبه المتكلم نفسه من حيث هو زيد مثلاً ، بمعلق الدر على الخنزير من حيث هو عمرو ، وإنما يشبه الفعل بالفعل فاعرفه ^(١) .

والفرق بين المفرد المقيد والمركب : أن المركب ، كل واحد من أجزائه جزء الطرف ، والمفرد المقيد يكون الطرف فيه ذلك القيد ، والقيد شرط لا جزء ^(٢) .

وتشبيه المركب بالمركب ، والمفرد المقيد بالمفرد المقيد ، لا يكاد ينفصل أحدهما عن الآخر فى اللفظ بل فى المعنى .

فحيث كان المقصود الهيئته الحاصلة من مجموع أمرين أو أمور ، فهو تشبيه مركب بمركب ، لأن كل واحد من أجزاء الطرف الواحد ليس مقصوداً ، وإن صح تشبيهه بجزء الطرف الآخر .

وحيث كان المقصود كل واحد من أجزاء الطرف الواحد ولكن بقيد فيه ، وليس ذلك القيد مقصوداً لنفسه بل للطرف ، فهو مقيد بمقيد ^(٣) .

وعلى كل فوجه الشبه المقيد بمعنى آخر ، فيه معنى التركيب ، ولكنه يعد مفرداً لأن التقييد غير التركيب .

(١) أسرار البلاغة - ١٦٢ - ١٦٣ . (٢) مواهب الفتح - ٣ - ٤١٨ .

(٣) عروس الأفراح - ٣ - ٤٦٣ .

فإذا وجدت في أحد الطرفين قيداً لفظياً : من مفعول أو صفة أو ظرف أو جار ، ومجرور أو غير ذلك ، فانظر إلى المعنى ، فإن وجدت المقيد هو المقصود والقيد تبع لم يؤثر فيه شيئاً ، فهو مفرد مقيد . وإن وجد القصد إلى الهيئة الحاصلة في الذهن على السواء ، فهو تشبيه مركب .

وإن أردت تشبيه أشياء منفصلة بأشياء منفصلة ، فهو تشبيه متعدد . ولا خلاف أن الفرق بين المركب والمفرد أحوج شيء إلى التأمل فكثيراً ما يقع الالتباس ، لأن القيود معتبرة في كليهما ، ولا حاكم في تمييز أحدهما عن الآخر عند الالتباس سوى ذكاء الطبع وصفاء القريحة .

الفصل الحادي عشر

وجه الشبه

وجه الشبه : هو المعنى المشترك بين الطرفين ، الجامع لهما في قصد المتكلم .
ولا بد من وجوده في الطرفين تحصيلاً للفائدة إما تحقيقاً أو تخيلاً .
مثال الأول : تشبيه الخد بالتفاح مثلاً ، فإن وجه الشبه — وهو النضارة واللون — متقرر في كل منهما على وجه التحقيق .

ومثال الثاني قول القاضى التنوخى المشهور :
وكان النجوم بين دجاها سنن لاح بينهن ابتداع
فالجامع بينهما : الهيئة الحاصلة من وجود أشياء مشرقة بيض في جوانب
شيء مظلم .

ولا يمكن وجوده في المشبه به — وهو السنن والابتداع — إلا على
طريق التأويل .

فهو قد شبه النجوم بالسنن والجامع حصول النور ، وهو خيالى
في الابتداع .
فإن تجرد الطرفان منه على وجه التحقيق أو التخيل وقع التشبيه تحتل
لعدم فائدته .

فإن من حق وجه الشبه شمول الطرفين ، فإذا صادفه صح وإلا فسد .
وذلك كقول القائل :

كأننا والماء من حولنا قوم جلوس حولهم ماء

فقد خلا من وجه شبه يجمع بين الطرفين ، ويكون غاية منشودة من التشبيه ، وترك السامع في فراغ لا يستقر فيه على حال ، فكان لغواً من القول لا لغو بعده .

ومن ذلك ^(١) أن الوجيه ابن الذوري دخل الحمام ومعه ابن وزير الشاعر فقال ابن وزير :

لله يوم بحمام نعيمت به والماء ما يئتنا من حوضه جارى
كانه فوق شقات الرخام ضحا ماء يسيل على أبواب قصار ^(٢)
فقال ابن الذوري :

وشاعر أوقد الطبع الذكاء له فكاد يحرقه من فرط إذكاء
أقام يعمل أياما قريحته وشبه الماء بعد الجهد بالماء
ويذكرون أن ابن شرف القيرواني أنشد ابن رشيق قوله :

غيرى جنى وأنا المعاقب فيكم فكأننى سبابة المنتدم
ثم قال له : هل سمعت هذا المعنى ؟

قال ابن رشيق سمعته وأخذته أنت وأفسدته !

أما الأخذ فمن النابغة حيث يقول للنعمان بن المنذر معتذراً :

لكلفتني ذنب امرئ وتركته كذى العرّ يكوى غيره وهو رانع
وأما الإفساد ، فإن سبابة المنتدم أول شيء يتألم منه ، فلا يكون المعاقب غير الجانى .

بخلاف بيت النابغة فإن المسكوى من الإبل يألم وما به عر ألبته ، وصاحب العر لا يألم جملة ^(٣) .

(١) وفيات الوفيات للكتبي - ١ - ١٢٠ . (٢) القصار كشداد : محور الثياب .

(٣) الإيضاح - ١٥٩ - ١٦٠ .

وقد أورد ابن السبكي: أن نسبة الجناية إلى سبابة المتقدم فيها نظر ، لأن سبابة المتقدم قد لا تكون جانية ، بأن يكون الندم على فعل قلبي أو فعل عضو آخر ، وإنما اتصال الأعضاء ، وجعلها كالشيء الواحد سهّل ذلك^(١) .

والحق أن ابن رشيق كان متجنباً على منافسه ومعاصره ابن شرف - والمعاصرة حجاب - فليس في البيت فساد كما زعم .

ولتقريب ذلك نقول : لنفرض أن إنساناً سب فيها سب إنساناً فعوقب على بذامته ، فعرض على سبائته ندماً حتى قطعها أو أدامها !

فهنا يصح أن يقال : إن اللسان جنى وأن السبابة عوقبت ، وإن كان العقاب في الواقع قد حقّ على صاحب اللسان والسبابة .

وقد جرى الشعراء تخميلاً على تصوير الأعضاء تجنى ويؤخذ فيها البريء بذنب المجرم ، ويعقدون بينها مناظرات غاية في الإبداع .

فمن ذلك قول ابن الرومي :

وغزال ترى على وجنتيه	قَطْر سَهْمِيهِ مِنْ دِمَاءِ الْقُلُوبِ
هَلَفَ نَفْسِي لِتِلْكَ مِنْ وَجَنَاتِ	وَرَدَّهَا وَرْدَ شَارِقِ مَهْضُوبِ ^(٢)
أَنْهَلْتُ صَبِغَ نَفْسِهَا ثُمَّ عَلَّتْ	مِنْ دِمَاءِ الْقَتْلِ بَغِيرِ ذُنُوبِ
جَرَحَتِ الْعَيُونَ فَاقْتَصَ مِنْهَا	بِحَوِي فِي الْقُلُوبِ دَامِي النَّدُوبِ

وقول خالد الكاتب :

أَعَانَ طَرَفِي عَلَى جِسْمِي وَأَحْشَانِي	بِنَظَرَةٍ أَوْ قِفَتْ جِسْمِي عَلَى دَائِي
وَكُنْتُ غَرّاً بِمَا يَجْنِي عَلَى بَدَنِي	لَا أَعْلَمُ لِي أَنْ بَعْضِي بَعْضُ أَدَوَائِي

وقول ابن أبي فتن :

أَدْمَيْتُ بِالْأَلْحَاطِ وَجَنَّتِهِ	فَاقْتَصَ نَازِرُهُ مِنَ الْقَلْبِ
---------------------------------------	------------------------------------

(١) عروس الأفراح - ٣ - ٣٣٠ . (٢) المهضوب : الممطور .

وقول صرّدر :

لوا حظنا تجنى ولا علم عندها
ولم أر أغبي من نفوس عفاف
ومن كانت الأجفان حجاب قلبه

وقول الأرجاني :

تمتعنا يا مقلتي بنظرة
أعني كفاً عن فؤادي فإنه
وقول آخر :

كل الحوادث مبداها من النظر
كم نظرة فتسكت في قلب صاحبها
والمرء مادام ذا عين يقلبها
يسر مقلته ما ضر مهجته
وقول آخر :

نظر العيون إلى العيون هو الذي
ما زالت اللحظات تغزو قلبه
وقول آخر :

يا من يرى سقمي يزيد م
لا تعجبين فهكذا
وعلى أعيت طيبي
تجنى العيون على القلوب
وقول آخر

يقول قلبي لطرفي إذ بكى جزعا
فقال طرفي له فيما يعاتبه
حتى إذا ما خلا كل بصاحبه
تبكى وأنت الذي حملتي الوجعا
بل أنت حملتي الآمال والطمعا
كلاهما بطويل السقم قد قنعا

نادتهما كبدى لا تعباً فلقد قطعناى بما لا قيتما قطعاً
وقول آخر :

عانت	قلبي	لما	رأيت	جسمي	عليلا
فألزم	القلب	طرفي	وقال	كنت	الرسولا
فقال	طرفي	لقلبي	بل أنت	كنت	الدليلا
فقلت	كُفّا	جميعاً	تركتماني	قتيلا	

وقول شوقي :

مازلت أركب كل صعب في الهوى حتى ركبت إلى هواك حمائى
وإذا القلوب استرسلت في غيها كانت بليتها على الأجسام
وما جاء على لسان النفس قول أحدهم :

أنا ما بين عدوين م هما قلبي وطرفي
ينظر الطرف ويهوى م القلب والمقصود حتى
ومن الطرائف قول ابن مدرك - وقد ضمنه مسألة فقهية - :
جرحت بلحظي خد الحبيب فما طالب المقلة الفاعله
ولكنه اقتصر من مهجتي كذاك الديات على العاقله (١)
وهذا قليل من كثير .

ومن اختلال التشبيه لاختلال الجامع بين الطرفين قول ابن وكيع التميمي :
وسحاب إذا همى الماء منه ألهب الرعد في حشاه البروقا
مثل ماء العيون لم يحمر إلا ظل يذكى على القلوب حريقا
فإن تقريره أن جريان ماء العيون يذكى حريق القلوب ، لا يصح في مبنى
الطباع ، ولا متعارف العادة .

(١) العاقله : التي تفرم عن الجاني .

والشعرام من قديم الزمان جروا على عكس ذلك ، فقال امرؤ القيس :
وإن شفتي عبرة مهراقة فهل عند رسم دارس من معول
وقال ذو الرمة :

لعل انحدار الدمع يُعقب راحة من الوجد أو يشفي نجيّ البلابل ✓
وقال الفرزدق :

فقلت لها إن البكاء لراحة به يشفي من ظن ألا تلاقيا ✓
وقال أبو تمام :

نثرت فريد مدامع لم تُنظم والدمع يحمل بعض ثقل المعرم
وقال البحتري :

علّ ماء الدموع يُحمد ناراً من جوى الحب أو يُبلّ غليلاً
وبكاء الديار مما يرد الشوق م ذكرأ والحب نضواً ضئيلاً
وقال الحسن بن وهب :

ابك فما أكثر نفع البكا والحب إشفاق وتعليل ✓
افزع إليه في ازدحام الجوى ففيه مسلاة وتسهل
وهو إذا أنت تأملته حزن على الخدين محمول
وقال حافظ إبراهيم :

يا من خلقت الدمع لطفاً م منك بالباكي الحزين
بارك لعبدك في الدم—و ع فإنها نعم المعين
وقال شاعر عصرى :

هذه الأدمع نستشفى بها من جوى الأحزان والأحزان داء
ربما كانت شفاء عبرة لآخى البث إذا عز الشفاء
ولم يخالف هذا النهج المسلوك غير أبي تمام في بعض شطحاته حيث يقول :
أجدر بجمرة لوعة إطفائها بالدمع أن تزداد طول وقود

لأنه كما يقول الأمدى^(١) : أحب الإغراب فخرج إلى ما لا يعرف من كلام العرب ، ولا مذاهب سائر الأمم .

وقد تبعه على الخطأ تلميذه البحتري في قوله :

فعلام فيض مدامع تدق الجوى . وعذاب قلب في الحسان معذب
وكان خير أهلها لو سلكا مسلك ابن دريد في قوله :

قلب تقطع فاستحال نجيعاً فخرى فصار مع الدموع دموعاً
رُدت إلى أحشائه زفراته ففضض منه جوانحاً وضلوعاً
عجبا لنار ضمرت في صدره فاستنبطت من عينه ينبوعاً

وقول العسكري :

لهيب قلبي أفاض الدمع من بصرى والعود يقطر ماء حين يحترق
فإنهما جعلتا الحرقه سبيلاً في البكاء ، لأن البكاء يزيد الحرقه ، ولا اعتراض على ذلك لعدم المناقاة بينهما .

على أن هناك فرقاً بين قول ابن وكيع ، وقول أبي تمام والبحتري ؛ فابن وكيع يقرر بالتشبيه حكماً عاماً ، وتقرير الأحكام يجب أن يكون بنجوة من الخطأ والاثلام .

وأما الطائيان فقد ساقا القول مساق المبالغة ، فزعا أن بكاءهما يزيد في غليلهما ، وهى حالة خاصة بهما لم يدعيها لغيرهما ، ولا أرسلها إرسال القواعد المسلمة ، فعيبهما الإفراط والسرف في الوصف ، وهو خطأ أقل من خطئه .

ويسوقنا ما نحن بسبيله إلى ذكر المثل : « النحو في الكلام كالملح في الطعام » .

فإن جعل الوجه فيه كون القليل مصلحا والكثير مفسداً اختل التشبيه .
لأن القلة والكثرة إنما تلاحظ في الملح فقط ، فيوضع منه في الطعام القدر
المناسب فيصلحه ، ويجعل فيه ما زاد عليه فيفسده .

وأما النحو في الكلام فلا يمكن أن يوصف بقلة ولا كثرة ، لأنه لا يوزن
ولا يكال وإنما هو ضوابط وأحكام ، إما أن توجد كلها فيصلح بها الكلام
ويوصف بالصحة ، وإما أن تتخلف جميعاً أو يفقد بعضها فيفسد .

وإذن يكون الوجه المقبول في المثل المتقدم : كون الاستعمال مصلحا
والإهمال مفسداً ، لا اشتراكهما في ذلك دون نظر إلى قلة أو كثرة .

وأما مراعاة القلة والكثرة فلا تتأني إلا في مثل قول أبي الفتح البستي :
أفد طبعك المسكود بالجد راحة يَجْمُ وعَلَّه بشيء من المزح ^(١)
ولكن إذا أعطيته المزح فليكن بمقدار ما يُعطى الطعام من الملح
فإن الملاحظ هنا أن في استعمال الملح والمزح استعمالاً معتدلاً على نسبة
خاصة ، فيه صلاح للكلام والطعام .

على أن بعضهم فيما يظهر كان يرى التقليل من الإعراب .

فأبو بكر الخوارزمي يقول :

والبعض عندي كثرة الإعراب

وأنشد أبو أحمد العسكري عن الصولي ^(٢) :

ويعجبني زى الفتى وجماله ويسقط من عيني ساعة يلحن
على أن للإعراب حداً وربما سمعت من الإعراب ما ليس يحسن
ولا خير في اللفظ الكربة استماعه ولا في قبيح اللفظ والقصد زين

(١) في زهر الآداب - ١ - ٢٠٦ :

أفد طبعك المسكود بالهم راحة

(٢) ديوان المعاني - ١ - ١٤٨ .

براح وعَلَّه بشيء من المزح

غير أن عبد القاهر أنكر على الخوارزمي قوله ، وقال فيه : كلام لا تحصل منه على طائل ، لأن الإعراب لا يقع فيه قلة وكثرة إن اعتبرنا الكلام الواحد والجملة الواحدة .

وإن اعتبرنا الجمل الكثيرة وجعلنا إعراب هذه الجمل مضموما إلى إعراب تلك ، فهي الكثيرة التي لا بد منها ولا صلاح مع تركها ، والخليق بالبغض من ذمها .

وإن كان أراد نحو قول الفرزدق :

وما مثله في الناس إلا مملكا أبو أمه حي أبوه يقاربه

وما كان من الكلام معقداً ، موضوعا على التأويلات المتكلفة ، فليس ذلك بكثرة وزيادة في الإعراب ، بل هو أن يكون نقصا له ونقصا أولى ؛ لأن الإعراب هو أن يعرب المتكلم عما في نفسه ويبينه ، ويوضح الغرض ويكشف اللبس ، والواضع كلامه على المجازفة في التقديم والتأخير زائل عن الإعراب ، إنما هو كثرة عناء على من رام أن يرده إلى الإعراب لالكثرة الإعراب^(١) ويخيل لي : أن المراد بكثرة الإعراب البغيضة إليهم ، هي تعاطي التشاؤم والتقعر والإغراب كما روى عن أبي علقمة النحوى وغيره ، فإن هذا إن عد إعرابا فهو إعراب مقيت ، واللحن أخف منه .

أو استعمال الإعراب في نواذر العوام ومُلح الحشوة والطعام ، وتخير اللفظ الحسن لها ، وإخراجها من الفهم مخرجا سرياً ، فقد قرر الجاحظ : أن ذلك يفسد الإمتاع بها ويخرجها من صورتها ومن الذي أريدت له ، ويذهب استطابتهم إياها واستملاحهم لها .

وهو لذلك يستملح اللحن من الجوارى الظُّراف ، ومن الكواعب النواهد ، ومن الشوابِّ الملاح إذا كان على سجية سكان البلد ، ولم يقع على سبيل التكلف ، كما تستحسن اللثغة من الجارية الحديثة السن ، المقدودة المجدولة .^(١) هذا هو الذى يمكن أن يقال فى بغض كثرة الإعراب ، فأما تجويز اللحن فى الكلام مطلقا فلا يعقل التسليم به ، ولا يظن بمثل الخوارزمى أنه قصد إليه فى قوله :

والبغض عندى كثرة الإعراب

ويقول قدامة : وربما اعتقر فى دهرنا هذا اللحنُ والخطأ للإنسان فى كلامه ؛ لكثرة اللحن فى الناس وأنه فشا وعظم ، وفسدت الفصاحة بمخالطة العرب للأعاجم والأقباط وسائر الأجناس ، فأما فى الكتاب فغير مغتفر له ذلك لأن الطرف يتكرر نظره فيه ، والروية تجول فى إصلاحه ، وليس كمثله الكلام الذى يجرى أكثره على غير روية ولا فكرة ، وقد يستملح اللحن من الجوارى والإماء وذوات الحداثة من النساء ، لأنه يجرى بجرى الغرارة منهن وقلة التجربة ، وفى ذلك يقول الشاعر :

وحديث ألدّه هو بما تشتهيه النفوس يوزن وزنا

منطق صائب وتلحن أحيانا نا وخير الحديث ما كان لحنا

ثم يعود فيقول : ولست أدري كيف صار اللحن عند هذا الشاعر خير الحديث ، وأظنه أراد أملح الحديث فاضطره الوزن إلى أن جعل فى موضع ذلك : « خير الحديث » .

وقد تأول له بعض الناس فقال : إنما أراد باللحن : الفطنة للمعاني ، ومنه

قول رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « إنكم لتتحاكمون إلى ولعل
أحدكم ألحنُ بحجته »
يريد أفطن لها .

وما أتى هذا التأويل بشيء ؛ لأن قوله : منطق صائب قد أتى على إصابة
المعنى ، فما وجه فطنتها لذلك أحيانا^(١) !
فقدامة كما ترى يعد لحن الغريرات من الحديث المليح ، ولكن لا يراه
خير الحديث .

وابن الأثير يعد النحو في علم البيان من المنظوم والمشور بمنزلة « أبجد »
في تعليم الخط ، وأنه أول ما ينبغي اتقان معرفته لكل أحد ينطق باللسان
العربي ليأمن معرفة اللحن ، ولكنه ذهب إلى أن الجهل به لا يقدر في فصاحة
ولا بلاغة ولكنه يقدر في الجاهل به نفسه ، لأنه لا يعد شرطاً في حسن
الكلام ، وأن الغرض من الشعر والخطب والرسائل ليس إقامة إعراب
الكلمات ، وإنما الغرض أمر وراء ذلك كله .

وقد فند رأيه العلوى : بأن المقاصد وإن كانت مفهومة بالقرائن في بيان
الفاعل والمفعول لكننا نريد مع فهم المعاني بالقرائن الحالية ، أنه لا بد من
جربها على القوانين الإعرابية . . . فالزل في الجهل باللغة مؤد إلى تحريف
الألفاظ وفساد معانيها ، والزل في الإعراب يؤذن بفساد المعاني والتباسها .^(٢)
ويظهر أن العلوى لم يفهم كلام ابن الأثير ، فابن الأثير لا يستجيز اللحن
ولا يستحسنه ولا يغمط حق الإعراب ، وإنما يريد ما قاله الأستاذ
الشايب بك : من أن هناك قوانين نحوية وبلاغية مقررة يراعيها جميع

(١) نقد النثر — ١٤٤ — ١٤٥ (٢) المثل الثائر — ٥ — ٨ .

(٣) الطراز — ١ — ٢٨ — ٣٠ .

المنشئين ، ولكنها ذات أثر سلبى يحفظ العبارة من الخروج على الأصول
البيانىة العامة ، أما العبقرىة الذاتىة والقدره على تصفىة الكلمات والتصرف
فى العبارات بما يجعلها مرآة لنفس الأديب ، فذلك عمل إيجابى كثير أما يحتمل
القوانين المحددة . (١)

وصفوة ماتقدم : أن المقيت المذموم هو التنطع بجلب الكلمات الغربىة
والقصد إلى المعاطلة حبا فى التفاصيل ، فأما تجويز اللحن فى الكلام إطلاقا
فلا يمكن التسليم به ، ولا يُظن بمثل الخوارزمى أنه يرى إليه فى قوله :
والبغض عندى كثرة الإعراب .

وقد عرف عن العرب كراهة اللحن والاحتباس منه ، وتهيب التصدى
للخطابة خوف الوقوع فىه .

ويكنى فى بيان قبجه قول مسلمة بن عبد الملك : إن الرجل يسألنى الحاجة
فقتستجيب نفسى له بها ، فإذا لحن انصرفت نفسى عنها (٢) .

وقول قدامة : اللحن ما خالف اللغة العربىة ، وخرج عن استعمال أهلها
وما بنى عليه إعرابها ، وهو معيب عند الأدباء فى الجملة ، وعلى من يأخذ
نفسه بالإعراب ويتكلم بالغريب من لغة الأعراب أعيب (٣) .

(١) أصول النقد الأدبى - ٢٥٤ .

(٢) طراز المجالس - ٦٧ .

(٣) نقد النثر - ١٤٤ .

الفصل الثاني عشر

أقسام وجه الشبه

ينقسم وجه الشبه إلى ثلاثة أقسام :

١- وهم مفرد :

والمراد به ما يعد في العرف واحداً ، لا الذي لا جزء له أصلاً .
وذلك كالجمرة في تشبيه الخد بالورد مثلاً ، فإنها تشتمل على مطلق اللونية
والقبض للبصر ، ولكنها مع ذلك تعد وجهاً واحداً .
وهذا الوجه المفرد قد يكون حسياً ، وفي هذه الحال لا يكون الطرفان
إلا حسيين .

كقول بشار :

كان فؤاده كرة تنزى حذار البين لو نفع الحذار
وقول المعري :

وسهيل كوجنة الحب في اللو ن وقلب الحب في الخفقان
وقول ابن رافع الجزري :

انظر إلى الجزر البديع كأنه في حسنه قُضِب من المرجان
أوراقه كزبرجد في لونها وقلوبه صيغت من العقيان
وقول آخر في الموز :

موز حلا فكأنه غسل ولكن غير جارٍ
ذو باطن مثل الأفا ح وظاهر مثل النضار
يحكي إذا قشرته أنياب أفيال صغار

وقد يكون عقلياً ، ويجوز حينئذ أن يكون الطرفان حسيين

كقول مسلم ابن الوليد يمدح يزيد بن يزيد الشيباني :

كاللث بل مثله اللث الهصور إذا غنى الحديد غناء غير تغريد
وقول العباس بن جرير :

إن الصديق هو الذي يرعاك حين تغيب عنه
مثل الحسام إذا انتضا ه أخو الحفيظة لم يخنه
وقول أبي الفتح البستي :

أنا كالورد فيه راحة قوم ثم فيه لآخرين زكام
أو عقليين :

كقول البحتری :

فقر كفقر الأنبياء وغربة وصباة ليس البلاء بواحد
وقول جحظة البرمكي :

ورق الجو حتى قيل هذا عتاب بين جحظة والزمان
وقول المتنبي :

مثلة حتى كأن لم تفارقي وحتى كأن اليأس من واصلك الوعد
وقول السرى الرفاء :

بنفسى من أجود له بنفسى ويخل بالتحية والسلام
وحقنى كامن فى مقلتيه كمن الموت فى حد الحسام
وقول شوقي :

ترك النفوس بلا علم ولا أدب ترك الجسوم بلا طب ولا آسى
وقول زكى مبارك :

حزن يقطع فى الحشا فكأنه غدر الصديق
أو المشبه معقول والمشبه به محسوس :

كقول العسكري :

خلق كئش الروض طُلَّ نباته أو مثل صرف الراح فضَّ ختامه
وقول ابن سينا :

إنما النفس كالزجاجة والعلم م سراج وحكمة الله زيت
وقول الصابي :

والعمر مثل السكاس ير سُب في أواخرها القذى

ومن طرائف ذلك : أن أبا دلف كتب إلى عبد الله بن طاهر :
أرى ودمكم كالورد ليس بدائم ولا خير فيمن لا يدوم له عهد
وحبي لكم كالآس حسنا ونضرة له زهرة تبقى إذا فنى الورد^(١)
فأجابه ابن طاهر :

وشبهت ودى الورد وهو شبيهه وهل زهرة إلا وسيدها الورد
وودك كالآس المرير مذاقه وليس له في الطيب قبل ولا بعد
ومن تشبيه المعقول ، بالمعقول والمحسوس معاً ، قول ابن هاني ما لاندلسي
— يصف زهرة رمان قطفت قبل عقدها — :

لو كف عنها الدهر صرف الدهر جاءت كمثل النهدي فوق الصدر
تفتت عن مثل اللآثات الخمر في مثل طعم الوصل بعد الهجر
وقول المتنبي :

كأن المعاني في فصاحة لفظها نجوم الثريا أو خلائقك الزُّهر
وقول حافظ في الأستاذ الإمام :

خشع البحر إذ ركبت جواريه م خشوع القلوب يوم الحساب

(١) الآس : يضرب به المثل في دوام الود لخضرته ، قال أبو حنيفة الدينوري : الآس بأرض العرب كثير ينبت في السهل والجبل وخضرته دائمة ، وينمو حتى يكون شجراً عظيماً ، وله زهرة بيضاء طيبة الرائحة وتمرته سوداء إذا أبيضت تحول وفيها مع ذلك علقمة .

وبدا مأؤه كخاطرك المصقول م أو كالفِرند أو كالسراب
أو المشبه محسوس والمشبه به معقول :

كقول أبي تمام :

وفتكت بالمال الجزيل وبالعدا فتك الصبابة بالحجب المغرم
وقول عبد العزيز الجرجاني :

مَنْ عاذرى مَنْ زمن ظالم ليس بمستحي ولا راحم
تفعل بالأحرار أحداثه فعل الهوى بالمدنف الهائم
وقول آخر :

كأن بياض غُرته رشاد كأن سواد طُرته ضلال

٢ - وم مركب :

وهو المركب تركيباً اعتبارياً يجعله بمنزلة الواحد ، بأن يكون حقيقة
ملتزمة ، كقول ابن وكيع التَّنيسي في البلح :

كأنه والعيون تنظره إذا بدا زهره على القضب

مكاحل من زمرد خرطت مقمعات الرءوس بالذهب

أو يكون أوصافاً مقصوداً من مجموعها إلى هيئة واحدة ، كقول أبي
طالب الرقي :

وكان أجرام السماء لوامعاً دررٌ نثرن على بساط أزرق

وهو إما مركب حسي وطرفاه مفردان ، كقول أحيحة بن الجلاح ،
أو قيس بن الأسلت :

وقد لاح في الصبح الثريا كما ترى كعنقود ملاحية حين نورا

والوجه الهيئة الحاصلة من تقارن الصور البيض الصغار المقادير في مرأى
العين وإن كانت كباراً في الحقيقة ، على السكيفية المخصوصة ، منضمة إلى
المقدار المخصوص .

والمراد بالكيفية المخصوصة : أنها لا مجتمعة اجتماع التضام والتلاصق ولا هي شديدة الافتراق ، بل لها كيفية مخصوصة من التقارب والتباعد على نسبة قريبة مما نجده في رأى العين بين تلك الأنجم .
والطرفان المفردان : هما الثريا والعنقود ، ولا عبرة بتقيدهما لأن التقييد لا ينافي الإفراد .

أو طرفاه مركبان .

كقول البحرى فى شقائق النعمان :

شقائق يحملن الندى فكأنه دموع التصان فى حدود الخرائد

وقول ابن المعتز فى النارج :
✓ كأنما النارج لما بدت

وجنة معشوق رأى عاشقاً صفوته فى حمرة كاللهب
فاصفر ثم احمر خوف الرقيب

وقول أبى الحسن الصقلى فيه :

ونارنجة بين الرياض نظرتها على غصن رطب كهامة أعيد
إذا ميلتها الريح مالت كأكرة بدت ذهباً فى صولجان زمرّد

وقول محمد بن القاسم العلوى فى الطلع :

وطلع هتكنا عنه جيب قميصه فيا حسنه فى لونه حين هتكا
حكى صدر خود من بنى الروم هزها سماع فشتقت عنه ثوباً ممسكا

أو مختلفان والمشبّه مفرد والمشبّه به مركب ، كقول عدى بن الرقاع :

تزجى أغنّ كأن إرقة رَوْقه قلم أصاب من الدواة مدادها

وكقول محمد بن قيس فى الورد الأبيض :

جاءت بورد أبيض شبهته عند العيان
بمداهن من فضة فيها بقايا زعفران

وقول آخر فى الورد الأسود :

وورد أسود خلناه لما تنشق نشره ملك الزمان
مداهن عنبر غصّ وفيها بقايا من سحق الزعفران
وقول الصنوبري في النيلوفر :

كلنا باسط اليد نَحْ—و نيلوفر ندي

كدبايس عسجد قُضِبها من زبرجد
أو المشبه به مركب والمشبه مفرد ، كقول أبي تمام :

يا صاحبي تَقْصِيَا نظريكما تريا وجوه الأرض كيف تَصَوِّرُ ✓

تريا نهارا مُشمساً قد شابه زهر الربا فكأنما هو مقمر
وهذا النوع عزيز جداً ، ويقول العلوي : إنه لم يجد له مثالا في القرآن
الكريم لقلته وغرابته ، وهو موجود في الشعر على جهة الندرة (١).

أو مركب عَقْلِي ، كقول أبي تمام :

خلط الشجاعة بالحياء فأصبحا كالحسن شيب لمغرم بدلال ✓

وجه الشبه : صورة قوة عاتية مؤثرة يمازجها ضعف ولين وتكسر .

وقول أبي الفضل المكيالي :

كم والد يحرم أولاده وخيره يحظى به الأبعد

كالعين لا تنظر ما حولها ولحظها يدرك ما يبعد

وجه الشبه : حرمان الأقرب المستحق ، ونيل الأبعد الذي لا يستحق :

وقول سلطان بلنسية عبد الملك بن مروان الأندلسي :

ولاغرو بعدى أن يسود معشر فيضحي لهم يوم وليس لهم أمس

كذلك نجوم الجوّ تبدو زواها إذا ما توارت في مغاريها الشمس

وجه الشبه : سيادة الدهماء بفقد العظام :

وقول آخر :

لئن بسط الزمان يدي لئيم فصبوا للذي فعل الزمان
فقد تعلو على الرأس الذُّنابي كما تعلو على النار الدخان
وجه الشبه : ارتفاع السفلة واستفال العلية .

٣ - وجه شبيه منعه

وهو ما ليس واحداً ولا منزلاً منزلة الواحد .
وذلك أن يذكر في التشبيه عدد من أوجه الشبه : شيتين أو أشياء على
عل وجه الاستقلال ، فلا يتقيد بعضها بعض ، بل كل واحد مفرد بنفسه .
مثال المتعدد الحسي قول البحري يصف جواداً :
مثل الغراب بدا يباري صحبه بسواد صبغته وحسن قوامه
ومثال المتعدد العقلي قول ابن الرومي :
كالدهر في النفع والمضرة والحنكة م لكن رية غضبه
وقول المتنبي :

ففي كالسحاب الجون يُخشى ويرتجى يرجى الحيا منها ويُخشى الصواعق^(١)
ومثال المتعدد المختلف قول شاعر :

هم الأسد بأساً في اللقاء وأوجها إذا غضبوا والسّمهرية غيلها
والفرق بين التعدد في الوجه والتركيب فيه :

أن الأول لا يجب فيه الترتيب ، فيجوز تقديم بعضه على بعض .
تقول : حمد كالغيث في النفع والضرر ، أو في الضرر والنفع .
وثانياً أنه إذا أسقط بعضه لا يختل التشبيه ولا يتغير حال الباقي .
فمثلاً في قول ابن رشيق :

وتفاحة من كف ظبي أخذتها جناها من الغصن الذي مثل قده
حكمت لمس نهديه وطيب نسيمه وطعم ثناياه وحمرة خده

(١) الجون بضم الجيم : جمع جون بفتحها ، السود والبيض ، والمراد هنا السود .

يمكن الاكتفاء بالحمرة ، أو بالحمرة وطيب الرائحة ، ويظل التشبيه بعد هذا حافظاً لقيمته ، وإن كان الاستقصاء أروع وأدق .

ومثل هذا يقال في وصف أندلسي للسفرجل :

سفرجلة جمعت أربعاً نظمن لها كل معنى عجيب ✓
صفاء النضار وطعم العُقار ولون المحب وريح الحبيب
وقول أبي القاسم العطار :

وبى غزال إذا صادفت غرته جنيت من وجنتيه روضة أنفاً^(١)

كالبدر مكتملاً كالظبي ملتفتاً كالروض مبسماً كالغنص منعظاً

بخلاف المركب كقول السرى الرفاء في وصف القلم :

أخرس مِينيك يطرأقه عن كل ما شئت من الأمر

يُدرى على قرطاسه دمعاً تُبدى لنا السر وما يدرى

كعاشق أخفى هواه وقد نمت عليه عبرة تجرى

فإنه لو أسقط منه جزء مما اعتبرت فيه الهيئة بطل التشبيه في قصد المتكلم لأنها صورة روعى فيها أن تكون تامة التأليف كاملة الأجزاء ، يسودها التناسب والانسجام والتنسيق .

وفي هذا يقول الزمخشري : والعرب تأخذ أشياء فرادى معزولاً بعضها عن بعض فتشبهها بنظائرها ، وتشبه كيفية حاصلة من مجموع أشياء تضامت وتلاصقت حتى عادت شيئاً واحداً بآخر مثلها .^(٢)

هذا هو التقسيم المأثور لدى البلغاء .

وقد قسمه الفيومي تقسيماً آخر باعتبار آخر ؛ فقال : إن الصفة التي هي وجه الشبه ذاتية ومعنوية :

فالذاتية : نحو هذا الدرهم كهذا الدرهم ، وهذا السواد كهذا السواد .

(١) الغرة بالسكسر : الغفلة .

(٢) حاشية المرشدي - ٢٤

والمعنوية : نحو زيد كالأسد ، أو كالخمار : أى فى شدته وبلادته ، وزيد كعمرو : أى فى قدرته وكرمه وشبهه .

وقد يكون مجازاً : نحو الثابت كالمعدوم ، والثوب كالدرهم : أى قيمة هذا الثوب تعادل قيمة الدرهم فى قدره^(١) .

وبما تقدم نعلم أن فى تشبيه المحسوس بالمحسوس يأتى وجه الشبه على ثلاثة أضرب :

- ١ — أن يكون محسوساً كالوجه والصبح فى الإشراق .
 - ٢ — أن يكون معقولاً كالعالم والنجم فى الهداية .
 - ٣ — أن يكون محسوساً ومعقولاً كالجيل والبدر فى الجمال وعلو المنزلة .
- غير أنه إذا كان وجه الشبه محسوساً كله أو بعضه سواء أكان واحداً أو مركباً أو متعدداً ، فلا بد أن يكون الطرفان حسيين لا متناع أن يدرك بالحس شئ من غير الحس .

أما فى تشبيه المعقول بالمعقول كالشباب والجنون فى التهور والطيش . والمعقول بالمحسوس كالشوق والنار فى الإحراق . والمحسوس بالمعقول كالملك والثناء الحسن ، فإن وجه الشبه يكون عقلياً فقط ، لأنه مشترك بين الطرفين ، فلو أمكن أن يحس محسوساً فى هذه الحال ، لكان المعقول الموصوف به محسوساً من ذلك الوجه وهو محال بخلاف يحس المعقول من الطرفين الحسنين ، لجواز أن يدرك بالعقل شئ من الحس .

ومن هنا يثبت أن التشبيه بالوصف المعقول أعم من التشبيه بالوصف المحسوس ، وأن التشبيه بالوصف المحسوس أتم من التشبيه بالوصف المعقول لأمور منها :

١ - أن أكثر الغرض من التشبيه : التخيل الذي يقوم مقام التصديق والخيال أقوى على ضبط الكيفيات المحسوسة .

٢ - أن المشابهة في الصفة قد تبلغ إلى حيث يتوهم أن أحد الطرفين هو الآخر كالخد والورد ، ولكن ما يتعلق بالصفة لا يبلغ إلى هذا الحد فإن من المستحيل ألا يفرق العاقل بين ذوق العسل في نفس الذائق ، وبين ما يحدث بالكلام المقبول في نفس السامع من الارتياح في تشبيه الكلام بالعسل .

وفي هذا يقول السكاكي (١) : وهنا نكتة لا بد من التنبيه لها ، وهي أن التحقيق في وجه الشبه يأبى أن يكون غير عقلي .
يريد أن وجه الشبه أمر كلي مأخوذ من المثلين بتجريدها عن التعين ، وما كان هذا شأنه فهو أمر عقلي .

ويقول الخطيب : يمكن أن يقال : المراد بكونه حسيا أن تكون أفراده مدركة بالحس كالسواد ، فإن أفراده مدركة بالبصر وإن كان هو في نفسه غير مدرك به ولا بغيره من الحس .
وهذا في الحقيقة تسليم لكلام السكاكي واعتراف بأن وجه الشبه عقلي ، غير أنه يسمى حسيا (٢) .

ولا بد في وجه الشبه من زيادة اختصاص بالمشبه به ، كالشجاعة مثلا في تشبيه زيد بالأسد ، فكلاهما يشتركان في الحيوانية والجسمية والوجود وغير ذلك ، ولكن شيئا منها لا يسمى وجه تشبيه .
وقد اشترط بعضهم أن يكون اشتراك الطرفين في صفة ظاهرة ، وفيه

(٢) الإيضاح - ١٦١

(١) المفتاح - ١٧٩

(٤) أسرار البلاغة - ٢٣٧

(٣) عروس الأفراح - ٣ - ٣٥٣

نظر إذ لا مانع من التشبيه في صفة خفية على شريطة بيان وجه الشبه بها ،
كقولك : رأيت رجلا كالأسد في البحر^(١) .

والممتنع هو الخفاء في العلاقة .

وخير التشبيه عند عبد القاهر^(٢) ما جمع معنيين ، كقول ابن الرومي :

يا شبيه البدر في الحسن م وفي بعد المنال

جد فقد تنفجر الصخرة م بالماء الزلال

فوجه الشبه مؤلف من معنى الحسن وبعد المنال .

ولا يخلو ما به المشابهة من أن يكون :

١ - صفة حقيقية ، وهي الكيفيات الجسمية محسوسة أو غير محسوسة
كالألوان والأصوات والمذوقات والأشكال والمقادير والحركات والصلابة
والرخاوة ، أو الكيفيات النفسانية كالغرائز والأخلاق .

٢ - أو حالا إضافية كقولك : هذه حجة كالشمس .

فاشتراكهما ليس في شيء من الكيفيات الحقيقية ، كالخمر في الورد والخند
ولكنه أمر إضافي ، وهو أن كلا منهما مزيل كاشف للغطاء .

وهذه الحالات الإضافية قد تكون واضحة حتى تقرب من الكيفيات
الحقيقية ، كما في تشبيه الكلام بالعسل في حلاوته .

وقد يكون بعيداً يحتاج إلى تأويل كتشبيه المستويين في الفضل بالحلقة
المفرغة لا يدرى أين طرفاها .

فلا يتصور المقصود من ذلك إلا من له ذهن يرتفع عن طبقة العامة .

(١) يوصف الأسد بالبخر لقله ريقه كما يقولون .

الفصل الثالث عشر

مراعاة جهة التشبيه

حينما يوقع المتكلم تشبيها بين شيئين ، يراعى معنى خاصا قصد إشراف الطرفين فيه .

فليس مراداً له الاتفاق في جميع الوجوه ، لأن ذلك يقضى بعدم التعدد فيصبح الطرفان شيئاً واحداً عبر عنه بعبارتين ، إذ تشبيه الشيء لا يكون إلا وصفاً له بمشاركته المشبه به في أمر من الأمور ، وإلا لو كان نفس المشبه به لكان من قبيل الترادف أو الاشتراك .

كذلك ليس مراداً له الاختلاف في جميع الصفات ، لأنه لا يمكن التشبيه مع التخالف التام لفقد الجامع بينهما ، والتشبيه في جوهره ربط وتأليف .

لذلك كان لا بد من الاختلاف في بعض الجهة ، والاشتراك في بعضها ، لأن الاشتراك من جميع الوجوه أو الاختلاف من جميع الوجوه لا يتسنى به تشبيه .

وقد شرح قدامة ذلك بقوله : إنه من الأمور المعلومه أن الشيء لا يشبه بنفسه ولا بغيره من كل الجهات ، إذ كان الشئان إذا تشابها من جميع الوجوه ولم يقع بينهما تغاير ألبته ، اتحاداً فصارا لاثنان واحداً ، فيبقى أن يكون التشبيه إنما يقع بين شيئين بينهما اشتراك في معان تعمهما ويوصفان بها ، وافتراق في أشياء يتفرد كل واحد منهما بصفتها ^(١) .

ومن ثم كان الواجب مراعاة جهة التشبيه مراعاة تامة؛ لأنها عنوان الدقة، ومظهر الإصابة، وتجلى الذوق السليم والمنطق المستقيم، والنظر العميق النافذ إلى صميم الأشياء، ودليل القدرة على المقارنة المستوعبة، وإصدار الأحكام العادلة المتزنة.

ولا يبعد من يقول: إن مراعاة الجهة هي ميزان التشبيه، بها يحكم له أو عليه، وأن سر ارتياحنا للتشبيه أو انقباضنا عنه، ترجع إلى مبلغ حظه منها قوة وضعفا.

وهذا عبد القاهر يقول: إن من حق العاقل ألا يتعدى بالتشبيه الجهة المقصودة ولا سيما في العقلیات (١).

وذهب قدامة إلى أن أحسن التشبيه هو ما أوقع بين الشيئين اشتراكهما في الصفات أكثر من انفردهما فيها، حتى يدنى بها إلى حال الاتحاد. وما أورده في ذلك قول يزيد بن الطثرية (٢) يصف رأسه قبل حلقه وبعده (٣).

فأصبح رأسي كالصخرة أشرفت عليها عقاب ثم طارت عقابها
فالحسن في تشبيه الرأس بالصخرة أنه قريب منها في الضخامة والملامسة واللون المائل إلى خضرة (٤).

وقد ألح على هذا المعنى، فقال في نعت الوصف (٥): والوصف إنما هو ذكر الشيء كما فيه من الأحوال والهيئات، ولما كان أكثر وصف الشعراء إنما يقع على الأشياء المركبة من ضروب المعاني، كان أحسنهم من أتى في شعره بأكثر المعاني التي الموصوف مركب منها، ثم بأظهرها فيه وأولاها

(١) أسرار البلاغة - ٥٣.

(٢) شاعر غزل ظريف كان يتعرض للنساء فعاقبه أخوه بخلق رأسه وكان حسن الشعر.

(٣) نقد الشعر - ٦٥ - ٦٨.

(٤) المصدر السابق - ٧١ - ٧٢.

(٥) نقد الشعر - ٦٥ - ٦٨.

حتى يحكيه بشعره ، ويمثله للحس بنعته ، كقول رجل من هذيل يصف حال القوم في الحرب عند الجلال :

كغناهم الثيران بينهم ضرب تُغمض دونه الحدق (١)
وكقول معاوية بن خليل النصرى — يصف نباهة قومه وأنهم أشهر من
حتى آخر — :

فنحن الثريا وعيوقها ونحن السما كان والمرزم (٢)
وأتم كواكب مجهولة ترى في السماء ولا تعلم
وكقول عبد الرحمن القس — يصف إصغاء السامعين إلى غناه سلامة: —
إذا ما عجّ مزهرها إليها وعاجت نحوه أذناً كرام
فأصغوا نحوه الأسماع حتى كأنهم — وما ناموا — نيام
ورأى أن جودة التشبيه لا تتوقف على كثرة الاشتراك في الصفات ،
فقد لا تكون هناك صفات متعددة تقضى بهذا الاشتراك ، وإنما المهم هو
إصابة جهة الاشتراك وقد تكون هذه الجهة معنى واحداً .
ونحن نرى كثيراً من التشبيهات تخلو من المعاني المتعددة ، ولكنها بالغة
الغاية في الدقة والإصابة ، كقول أشجع السلمى في مدح جعفر البرمكى :
بدهته مثل تفكيره متى رمته فهو مستجمع
وقول أبي العيناء :

إنى لأعجب بل فعالك أعجب من طول ترددى إليك وتهرب
وتقول لى قولاً أظنك صادقاً فأجىء من طمع إليك وتكذب
فإذا اجتمعت أنا وأنت بمجلس قالوا مُسَلِّمة وهذا أشعب

(١) الغناهم : الأصوات جمع غنمة .

(٢) العيوق : نجم أحمر مضى في طرف المجرة الأيمن . والمرزم : نجم .

وقول المتنبي :

كريم لفظت الناس لما بلغته كأنهم ما جف من زاد قادم
وقول بعضهم يهجو رجلا برثاءة الحال :

يأتيك في جبة مخرقة أطول أعمار مثلها يوم
وطيلسان كالآل يلبسه على قيص كأنه غيم

وقول أبي الفتح البستي :

كأنه فرس الشطرنج ليس له في ظل رابطه ماء ولا علف
وقول آخر :

من كانت الدنيا له ثروة فنحن من نظارة الدنيا
نرمقها من كش حبسرة كأننا لفظ بلا معنى

وقول آخر :

كأن بلاد الله وهى عريضة على الخائف المذعور كفة حابل
وقول شوقي :

والفرد يؤمن شره فى قبره كالسيف نام الشر خلف قرابه
فهذه التشبيهات لا ترد روعتها إلى كثرة الاشتراك فى صفات متعددة
ولكن إلى إصابة جهة التشبيه وإن كانت جهة واحدة .

نعم إن كان شئ يشبه شيئين ، وكان أحدهما أغنى من الآخر بجهات الشبه
فلا مرية أن يكون أولى بالتشبيه .

ولعل ذلك ما يقصده قدامة من قوله المتقدم .

ومن هذا تشبيه الأقباح بالثغور فقد أكثر الشعراء منه ، وإن كان
تشبيه الثغور به أكثر ، كمقول ظافر الحداد — وهو من النوع الجيد — :
والأقباح تحكى ثغر غانية تبسمت عنه من عجب ومن عجب

في قد والبرد والريق الشهى وطيب م الريح واللون والتفليج والشنب^(١)
كشمسة من لجن في زبرجدة قد شرفت حول مسمار من الذهب^(٢)
ويقول آخر :

والأقحوانة تُجلى وهي ضاحكة
كانها شمسة من فضة حُرست
عن واضح غير ذى ظلم ولا شنب
خوف الوقوع بمسار من الذهب

وهذا والذي قبله — كما يقول النويرى — من بديع التشبيه ، وهو
أجود من تشبيهها بالثغور وأصنع ، فإنها لا تشبه بالثغر حقيقة إلا من وجه
واحد ، وهذا قد شبهها ووصفها بجميع صفاتها وهيئاتها .^(٣)

فإذا كانت الجهات كثيرة كان من الحق أن يستوعبها المنشئ كلها إن كان
الإطار العام للتشبيه لا يتم إلا بها .

كقول الحسن بن وهب :

بأبي كرهت النار لما أوقدت
هي ضرة لك بالتماع ضيائها
وأرى صنيعك بالقلوب صنيعها
شركتك في كل الأمور بحسنها
فعرفت ما معنأك في إبعادها
وبحسن صورتها لدى إيقادها
بسيالها وأراكها وعرادها^(٤)
وضيائها وصلاحها وفسادها

وقول صاحب بن عباد :

وشمعة قدمت إلينا
صفرة لون وذوب جسم
تجمع أوصاف كل حب
وفيض دمع وحر قلب

(١) التفليج : التباعد ما بين الأسنان .

(٢) الشمسة : يريد بها القطعة المدورة على هيئة الشمس .

(٣) نهاية الأرب — ١١ — ٢٨٩ .

(٤) السيلال : نبات له شوكة أبيض طويل إذا نزع خرج منه اللبن ، والمراد : نبت .

وقول أبي الفتح البستي :

ففي جمع العلياء علما وعفة وبأسا وجودا لا يفيق فوفا (١)
كما جمع التفاح حسنا ونصرة ورائحة محبوبة ومذاقا
وقول التهامي :

يحكي جنى الأقحوان الغض مبسما في اللون والريح والتفليج والأشر (٢)
وقول ابن الخلال في وصف الشمعة :

وصحيفة بيضاء تطلع في الدجى صبحا وتشقى الناظرين بدائها
شابت ذوائبها أو أن شبابها واسود مفرقا أو أن فناءها
كالعين في طبقاتها ودموعها وسوادها وبياضها وضيائها
وقول ابن القارح - وقد جمع في بيت واحد أوصاف الشمعة السبعة: (٣)
لقد أشبهت شمعة في صباي وفي هول ما ألقى وما أتوقع
نحول وحرق في فناء ووحد وتسويد عين واصفرار وأدمع
فهذه الأشعار روعي فيها استيفاء جهات التشبيه المتعددة؛ لأن غرض
الشاعر كان الاستقصاء، فكان لا بد من الإتيان بها.

ولكن هذا ليس بلازم حتم، بل ليس بمستملح دائما، فليس مطلوبا
من الشاعر أن يشرح ويفسر ويتبع الأجزاء الصغيرة، لأن هذه نظرة العالم
لا الأديب، وإنما يراد منه أن يصور لنا أهم الأجزاء، ويجلو علينا ما حاك
في صدره، لنشاركه في تجربته.

فالشعر والرسم نحات دالة على النواحي الكلية القيمة الممتازة والفن

(١) لا يفيق فوفا: لا يستريح من العمل قدر فواق الناقة، وهو الوقت الذي يئن الحبطين،
أو هو ما يئن فوفا يد الحالب وقبضها على الضرع.

(٢) الأشر: بضمين وضم وفتح: تحزير في الأسنان خلقة وصناعة.

(٣) رسائل البلاء: - ٢٠٩ « جمع الأمتاذ كرد علي ».

الأصيل يأبى الإفاضة والتفسير ويعنى نفسه من التفاصيل الفرعية .

فالشأن — كما يقول المبرد — : واعلم أن التشبيه حدا ، فالأشياء تشابه من وجوه وتباين من وجوه ، وإنما ينظر إلى التشبيه من حيث وقع ، فإذا شبه الوجه بالشمس فإنما يراد الضياء والرواق ، ولا يراد العظم والإحراق . والعرب : تشبه النساء بالسحابة لتهاديها وسهولة مرها ، قال الأعشى :
كان مشيتها من بيت جارتها
مر السحابة لاريث ولا عجل
فهذا ما تلحق العين منها ، فأما الخفة فهي كأسرع مار .

والعرب تشبه المرأة بالشمس والقمر والغصن والغزال والبقرة الوحشية والسحابة البيضاء والدرة والبيضة ، وإنما تقصد من كل شيء إلى شيء . (١)

ويقول العسكري : ويصح تشبيه الشيء بالشيء جملة وإن شابه من وجه واحد مثل قولك : وجه مثل الشمس ومثل البدر ، وإن لم يكن مثلهما في ضيائهما وعلوهما ولا عظمتها ، وإنما شبه بهما لمعنى يجمعهما وإياه وهو الحسن . وعلى هذا قول الله — عز وجل — « وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام » .

إنما شبه المراكب بالجمال من جهة عظمتها لا من جهة صلابتها ورسوخها ورزانتها ، ولو أشبه الشيء الشيء من جميع جهاته لكان هو هو (٢) .

فليس كل شيء يشبهه شيء . يقع التشبيه به من جميع الجهات حتى لا يغادر منها شيء ، وقد يكون إنما شبه ببعض ما فيه لا بأكمله (٣) .

والسنور يوصف بصفة الأسد إذا أرادوا به الصلابة والأعضاء والثوب والتخلع في المشي ، وقد يكون في الشيء بعض الشبه من شيء ولا يكون ذلك نخرجا لهما من أحكامهما (٤) .

(١) السكامل « شرح الرصنى » — ٦ — ١٧٧ . (٢) الصنائع — ٢٢٦ .

(٣) الموازنة للأمدى — ٣٧٦ . (٤) الحيوان — ٥ — ٨٤ .

وقد جرت عادة الناس أن يقولوا : فلانة أحسن من الطاوس ، وما هي إلا طاوس ، وقول الشاعر :

خدودها مثل طواويس الذهب

مع أن الفرس الرائع الكريم أحسن من كل طاوس في الدنيا . وكذلك الرجل والمرأة ، وإنما ذهبوا من حسنه إلى حسن ريشه وألوانها ولم يذهبوا إلى أعضائه وجوارحه .

وكما يقول جعفر بن سعيد : إن الديك أحسن من الطاوس وأنه مع حسنه وانتصابه وتقلعه ^(١) إذا مشى ، سليم من مقابح الطاوس وموِّقه ^(٢) وقبح صوته ، وتشاؤم أهل الدار به ، ومن قبح رجله ونذالته ^(٣) .

ويقول ابن رشيقي : ألا ترى أن قولهم : خد كالورد إنما أرادوا حمرة أوراق الورد وطراوتها لا ما سوى ذلك من صفرة وسطه ، وخضرة كائمه . وكذلك قولهم : فلان كالبحر وكالليث إنما يريدون كالبحر سماحة وعلمها وكالليث شجاعة وقرما ، وليس يريدون ملوحة البحر وزعوقته ، ولا شتامة الليث وزهو مته ؛ فوقع التشبيه إنما هو أبداً على الأعراض لا على الجواهر لأن الجواهر في الأصل كلها واحد ، اختلفت أنواعها أم اتفقت ، فقد يشبهون الشيء بسميه ونظيره من غير جنسه ؛ كقولهم : عين كعين المهاة ، وجيد كجيد الرثم ، فاسم العين واقع على هذه الجارحة من الإنسان والمهاة ، واسم الجيد واقع على هذا العضو من الإنسان والريم والكاف للمقاربة ، وإنما يريدون أن هذه العين لكثرة سوادها قاربت أن تكون سوداء كلها كعين المهاة ، وأن هذا الجيد لانتصابه وطوله كجيد الرثم .

ألا ترى أن الأصمعي سئل عن الحور ، فقال : أن تكون العين سوداء كلها كعيون الظباء والبقر ولا حور في الإنسان .

(١) لتقلع : الففز والخفة في الوثب .

(٢) الموق بالضم : الحق .

(٣) ثمار القلوب — ٣٧٣ .

هذا أحد أقوال الأصمعي في الحور ، وهو يدل على أن التشبيه إنما هو بالمقاربة كما قلنا^(١).

وفي ظل هذا القانون يمكنك أن توازن بين قول ابن الرومي في النيلوفر :
وكأنه إذ غاب عند مسائه في الماء فاحتجبت نضارة قدح
صب يهدده الحبيب بهجره ظمأ فغرق نفسه من وجده
وقول السري الرفاء فيه :

يا حسن نيلوفر شغفت به يمنحه الماء صفو مشروبه
كأنه عاشق به ظمأ توهم الماء ريق محبوبه
فابن الرومي تخيل النيلوفر صباً تهدده الحبيب بالهجر ظمأ له ، فألمات
نفسه غرقاً فراراً عما هو أشد من الموت !

أرى هجرها والقتل مثلين فاقصرا ملامكا فالهجر أعفى وأيسر
وهذه النظرة السوداء الانتحارية تتفق مع مزاج ابن الرومي المتشائم !
وتخيل الرفاء أن النيلوفر عاشق أيضا ، وأن هذا العاشق اعتراه ظمأ
فرأى ماء توهمه رضاب محبوبه ، فأكب عليه يكرع منه ويعب ولا يروى ؛
لأن ريق المحبوب يزيد في وقدة الوجد :

ترشفت فاها سحرة فسكأننى ترشفت حر الوجد من بارد الظم
فأنت ترى أن كلا الشاعرين شبه النيلوفر بالمحب الهائم المتيم ، وكلاهما
التمس العلة في شغف النيلوفر بالماء والتصاقه به فأحسن التعليل ، ولكن وجهة
نظرهما اختلفت باختلاف مزاجهما وخيالهما والزاوية التي أثر كل منهما أن
ينحاز إليها ، وهي لا تعدو معنى جزئيا خاصا .

وبما وقع موقعه من دقة المراعاة لوجه الشبه قول أوس بن حجر — .

(١) العمدة — ١ — ١٩٤ — ١٩٥ .

(م — ١٠ فن التشبيه)

يشبّه ارتفاع الأصوات في الحرب تارة ، وهمودها وانقطاعها تارة
أخرى ، بصوت الفتاة البكر تجاهد أمر الولادة :

لها صرخة ثم إسكاته كما طرقت بنفاس بكر

فلم يرد الشاعر في هذا الموضع نفس الصوت ، وإنما أراد حاله في أزمان
مقاطع الصرخات ، وإذا نظر في ذلك وجد الذي وفق بين الصوتين واحداً
وهو مجاهدة المشقة ، والاستعانة على الألم بالتبديد في الصرخة (٢).

ولعلقمة - أنشده المبرد يشبّه الظلم في حركة جناحيه مع إرسالهما
بالخباء المقوض - :

صعل كان جناحيه وجؤجؤه بيت أطافت به خرقاء مهجوم (٣)

اشترط أن تتعاطى تقويضه خرقاء ؛ ليكون أشد لتفاوت حركاته وخروج
اضطرابه عن الوزن (٤).

وقول الشماخ في العقاب :

تلوذ ثعالب الشرفين منها كما لاذ الغريم من التبيع

وقد يختلف اللوذان بحسب اختلاف اللائذين ، فأما التبيع فهو ملح
في طلب الغريم لفائدة يرومها منه ، والغريم بحسب ذلك مجتهد في الروغان
وفي اللواذ خوفاً من مكروه يلحقه .

(١) التطريق : قرب الولادة . (٢) نقد النثر - ٦٦ .

(٣) الصعل : الدقيق الرأس ، والجؤجؤ : الصدر ، والخرقاء : المرأة الخمقاء ، والريح
المختلفة المهبوب لا تدوم على جهة واحدة ، والمهجوم : الذي حلت أطنابه .

(٤) أسرار البلاغة - ١٧٦ .

(٥) الشرفين : مثى شرف وهو ما ارتفع من الأرض ، والغريم : الدائن والمدين والمراد

هنا الثاني ، والتبيع : صاحب الدين .

وكذلك الثعلب والعقاب سواء ، لأن العقاب ترجو شبعته والثعلب يخاف موته .

وقول ابن أحرر الباهلي - يصف قلب الفرس عند الحركة السريعة - :
وفؤاده زجل كعُرف الهدهد

فتواتر نبض قلب الفرس إذا تحرك قريب الشبه من تواتر حركة
عرف الهدهد . (١)

وقول عمرو بن معد يكرب :

ولما رأيت الخيل زُوراً كأنها جداول زرع أرسلت فاسبطرت (٢)

جفاشت إلى النفس أول مرة فردت على مكروها فاستقرت (٣)

يقول : لما رأيت الفرسان منحرفين للطعن وقد خلوا عنهم دوابهم
وأرسلوها علينا كأنها جداول زرع أرسلت مياها فامتدت

والتشبيه وقع على جرى الماء في الأنهار لا على الأنهار ، فكأنه شبه
الخيال في انحرافها عند الطعن بامتداد الماء في الأنهار ، وهو يطرد ملتويا
ومضطربا .

وهو تشبيه بديع . (٤)

وقول قيس بن الخطيم :

فرايت مثل الشمس عند طلوعها في الحسن أو كدنها الغروب

وإنما نص على ذلك ؛ لأن الشمس عند طلوعها وعند غروبها يمكن النظر

إليها ويمكن التشبيه .

(١) نقد الشعر - ٦٦ - ٦٧ .

(٢) زور : جمع أزور وهو المعوج الزور بالفتح : أي الصدر ، والمراد : مائلات ،
واسبطرت : امتدت .

(٣) جاشت : ارتفعت من الفزع .

(٤) خزانة الأدب للبغدا دي - ٢ - ٣٨١ - ٣٨٢ .

وأما قول الخنساء :

يذكرني طلوع الشمس صخراً وأذكره لـكل غروب شمس
فإنها تعني : أنها تذكره أول النهار للغارة وآخره للأضياف .

وقول الطرماح في وصف الثور هارباً من الكلاب :

يبدو وتضمـره البلاد كأنه سيف على شرف يُسلُّ ويغمد
والثور يوصف بالسيف كما يوصف بانقضاض الكوكب ، لسرعته
وحسنه وبريق جلده .

وقول بعضهم - وقد أنشده الجاحظ - :

أما رأيت بني بحر وقد حفلوا كأنهم خبز بقال وكتاب^(١) .
هذا طويل وهذا خنبل جحد يشون خلف عمير صاحب الباب^(٢)
شبههم بخبز المعلمين لإتيانه مختلفاً لأنه من بيوت صبيان مختلفي الأحوال .
وأنشد أيضاً :

وشعر كبر الكباش فرق بينه لسان دعي في القريض دخيل
وبعر الكباش لا يقع إلا متفرقا .
ولذلك قالت ابنة الخطيئة لا يبا لها نزل في بني كليب بن يربوع : تركت
الثروة والعدد ، ونزلت في بني كليب بعـر الكباش^(٣) .
وقول بعضهم :

حديث بني بدر إذا ما لقيتهم كنزو الدبي في العرفج المتقارب^(٤)

(١) الخنبل : القصير الضخم البطن ، والجحد بكسر الحاء : الضيق العيش .

(٢) الكامل للمبرد « شرح المصنف » - ٥ - ١٢٠ .

(٣) الدبي : صفار الجراد واحده دبة ، والتزو : الوئب ، والعرفج : نبت لا يطول مثل

قعدة الإنسان سريع الالتهاب .

يصفهم بضوالة الأصوات وسرعة الكلام وإدخال بعضه في بعض ،
والحمود الجهارة والفضامة كما قال العاني يمدح الرشيد :

جهير الكلام جهير العطاس جهير الرواء جهير النغم
ويخطو على الآين خطو الظليم ويعلو الرجال بخلق عَمَم^(١)
وقول أبي حية النمرى : — وهو من مليح التشبيه — :

لَعَيْنُكَ يَوْمَ الْبَيْنِ أَسْرَعَ وَاكْفَا مِنْ الْفَنِّ الْمَمْطُورِ وَهُوَ مَرُوحٌ
وَذَاكَ أَنَّ الْغَصْنَ يَقَعُ الْمَطَرُ فِي وَرْقِهِ فَيَصِيرُ مِنْهَا فِي مِثْلِ الْمَدَاهِنِ ، فَإِذَا
هَبَتْ عَلَيْهِ الرِّيحُ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ يَقْطُرَ .
وقول أبي تمام :

فَكُنْتُ لِنَاشِيهِمْ أَبَا وَلَسْكَهْمُ أَخَا وَلَذَى التَّقْوِيسِ وَالْكِبْرَةِ ابْنًا
فَقَدْ أَحْكَمَ فِيهِ الْمَقَابِلَةَ وَأَعْدَلَ الْقِسْمَةَ .

وقول ابن المعتز — وقد عده بعض البغداديين أحسن ما قيل في طيب
النسكة والريق وحسن الشعر — :

وَقَبِلْتُ أَفْوَاحَهَا عَذَابًا كَأَنَّهَا يَنْتَابِعُ خَمْرُ خَضْبَتِ لَوْلُؤِ الْبَحْرِ
وَلَا يَعْجِيهِ إِلَّا كَلِمَةُ الْبَحْرِ فَإِنَّهَا فَضْلٌ لَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ ؛ لِأَنَّ اللَّوْلُؤَ لَا يَكُونُ
إِلَّا فِي الْبَحْرِ ، وَلَوْ كَانَ فِي غَيْرِ الْبَحْرِ لَوْلُؤٌ فَلَيْسَ لِنَسْبَتِهِ إِلَيْهِ فَائِدَةٌ .
وقوله يصف شرب حمار :

وَأَقْبَلَ نَحْوَ الْمَاءِ يَسْتَلُّ صَفْوَهُ كَمَا أَغْمَدْتَ أَيْدِيَ الصِّيَاقِلِ مُنْصَلَا
شَبَّهِ انْسِيَابِ الْمَاءِ فِي شِدْقِيهِ إِلَى حَلْقِهِ بِمَنْصَلِ يَغْمَدُ .
وهذا تشبيهه بمليح يدرك بالحس ويتمثل بالمعقول^(٢) .

(١) الآين : الإعياء ، والعمم : الجسم .

(٢) العدة — ١ — ١٩٦ .

وقوله - وهو أحسن ما وصفت به كأس على فم - :

ظي خلّ من الأحزان أودعني ما يعلم الله من حزن ومن قلق
كانه وكأن الكأس في فيه هلال أول شهر غاب في الشفق
وهذه صورة جميلة دقيقة كثيراً ما نراها في عالم الواقع .

وقوله يصف الحية - وليس في شعر المحدثين أحسن منه - :

كأنني ساورتني يوم بينهم رقصاء مجدولة في لونها بلق
كانها حين تبدو من مكانها غصن تفتح فيه الثور والورق
ينسل منها لسان تستغيث به كما تعوذ بالسبابة الغرق

وهذا تشبيه كاشف للحية في مظاهرها المختلفة لا نزيدنا الرؤية عليه شيئاً .

وقول ابن الرومي في الخمر - وهو أحسن ما قيل في بابها وأتمه - :

لها صريح كأنه ذهب ورغوة كاللآلئ الفلق^(١)

فقد أتى بشيء لم يسبق إليه ، وهو تشبيه الحجاب بفلق اللؤلؤ - وهو على الحقيقة تشبيهه - والناس قبله إنما شبهوه باللؤلؤ الصحيح .

وقد قفى على آثاره أبو هلال العسكري شارحاً ما أجمله بقوله :

وكاس تمتطي أطراف كف كأن بنانها من أرجوان
أنازعها على العلات شرباً لهن مضاحك من أفتحوان
يلوح على مفارقها حجاب كأنصاف الفرائد والجمان

وفي قول العسكري زيادة ، لأن في الحجاب ما هو كبير يشبهه بأنصاف الفرائد - وهي كبار اللؤلؤ - ومنه ما هو صغير يشبهه بأنصاف الجمان - وهو صغار اللؤلؤ - .

(١) الصريح : الخالص من كل شيء ، والفلق : جم فلقة بالكسر : الكسرة من الشيء .

وقول ذي الرمة في الصبح :

وقد لاح للشارى الذى كمل السرى على أخريات الليل فق ق مشهر
كلون الحصان الأنبط البطن قائما تمايل عنه الجل واللون أشقر

والأنبط : الأبيض البطن ؛ شبه بياض الصبح تحت حمرة بياض بطن
فرس أشقر ، وهذا أحسن تشبيهه وأكمله .

وقد أخذه ابن المعتز فقال :

وما راعنا إلا الصباح كأنه جلال قباطى على فرس ورد^(١)

وقال أيضا :

غدا والصبح تحت الليل باد كطرف أشهب ملق الجلال
قصد الشبه الحاصل لك إذا نظرت إلى الصبح والليل جميعاً وتأملت
حاله مامعا . وأراد أن يأتى بنظير للهبة المشاهدة من مقارنة أحدهما الآخر .

وبقى أن تعلم أن الوجه فى إلقاء الجل : أن تريد أنه أداره عن ظهره
وأزاله عن مكانه حتى تكشف أكثر جسده ، لأنه رمى به حتى انفصل منه
لأنه إذا أراد ذلك كان قد قصد إلى تشبيه الصبح وحده من غير أن يفكر
فى الليل .

ويشبه ذلك قول الشريف الرضى فى القمر :

سوادك من حيث تسمى هلالا إلى حيث تكمل بدرأ منيراً
فقاب لتركبة أسود نزل منه يسيراً يسيراً

(٢) الجلال بالسكسر : أكسية الدواب جمع جل بالضم والفتح ، والقباطى : ثياب تنسب
إلى القبط مفردا قبطية بالضم على غير قياس وقد تسكسر .

وأما قوله :

إذا تبدى البرق منها خلته بطن شجاع في كشيبي يضطرب^(١)
وتارة تبصره كأنه أبلق مال جلّه حين وثب
فلا شبهة فيه أن يكون القصد إلى تشبيه البرق وحده ببياض البلق ،
دون أن يدخل لون الجل في التشبيه ، حتى كأنه يريد أن يريك بياض البرق
في سواد الغمام ، بل ينبغي أن يكون الغرض بذكر الجل أن البرق يلمع
بغته ويلوح للعين فجأة ، فصار لذلك كبياض الأبلق إذا ظهر عند وثوبه
وميل جلّه عنه .

وقد قال ابن بابك في هذا المعنى :

للبرق فيها لهب طائش كما يعرى الفرس الأبلق
إلا أن لقول ابن المعتز ، حين وثب ، من الفائدة ما لا يخفى .
وقد عني المتقدمون أيضاً بمثل هذا الاحتياط ، ألا تراه قال :
وترى البرق عارضاً مستطيلاً مراح البلق جلن في الأجلال
فجعلها تروح وتجول ليسكون قد راعى ما به يتم التشبيه ، وهو معظم
الغرض من تشبيهه ، وهو هيئة حركته وكيفية لمعه .^(٢)
وقول آخر :

وإني وإياه كرجلي نعامة على كل حال من غنى وفقير
شبه رجلي النعامة لأنه لا تنوب إحداها عن الأخرى ، إذ لاخ فيها
وسائر الحيوان إذا أعتب^(٣) إحدى رجله استعان بالأخرى ، وقال « غنى »
لأن الأسماء ترد على المصادر والمصادر على الأسماء ، لأن المصادر إنما ظهرت
لظهور الأسماء فتمكن الإعراب منها .^(٤)

(١) الشجاع : الحية .

(٢) أسرار البلاغة - ١٣٧ (٣) أعتب : رفع إحدى رجله ووثب بالأخرى -

(٤) معجم الأدباء - ١٨ - ١١٥ .

وما انحرف فيه عن رعاية التشبيه فجاء فسلا منهوكا قول الفرزدق :

يمشون في حلق الحديد كما مشت جرب الجمال بها الكحيل المشعل^(١)
فقتشيه الرجال في الدروع بالجمال الجرب بعيد ، لأنه إن أراد السواد
فلا مقارنة بينهما في اللون ، وهو إلى ذلك سخيـف .^(٢)

وقد شبه غيره مشية الأبطال في الميدان بمشية الجمال فلم يقعوا في هذا الهراء ؛
فكعب ابن زهير جعلها جمالا بيض الألوان ، لا جمالا جربا منهوة
تقذى العين وتغشى النفس ؛ في قوله يمدح قريش :

يمشون مشى الجمال الزهر يعصمهم ضرب إذا عرّدت السود التنايل^(٣)
وحسان بن ثابت جعلهم جمالا في اكتمال قوتها ، ولم يعرض لسواد
الدروع التي تشبه القطران ، بل وصفها بالمتانة والإحكام لنسجها المضاعف
في قوله :

يمشون في الحلال المضاعف نسجها مشى الجمال إلى الجمال البزل^(٤)
وقول بعض بني تميم يمدح :

ومنهم عمر المحمود نائله كأنما رأسه طين الخواتيم
وهو لا يقل بعداً وقبحاً عن قول الفرزدق السابق .

وقول بعضهم في وصف الهلال :

والجوصاف والهلال مشنف بالزهرة الزهراء نحو المغرب^(٥)
كصحيفة زرقاء فيها نقطة من فضة من تحت نون مذهب

(١) الكحيل : القطران ، والمشعل : الكثير . (٢) المثل السائر — ١٦٤ .

(٣) التنايل : جمع تنال وهو القصير ، وقد عرّض في ذلك بالأصـار لغلظتهم عليه ، فأنكرت

ذلك قريش وقالت : لم نمدحنا إذ هجوتهم . الشعر والشعراء لابن قتيبة — ٦٩ .

(٤) البزل : جمع بازل وهو ما خرج نابه من الجمال بأن يكون في سن التاسعة .

(٥) مشنف : لايس الشنف بالفتح وهو ما يعلق بأعلى الأذن .

فجعل النقطة تحت النون والعادة أن تكون فوقها .

وقول ابن المعتز في وصف الورد الأبيض :

أناك الورد مبيضاً مصوناً كمشوق تكتنفه صدود
كأن وجوهه لما توافت بدور في مطالعها سعود
بياض في جوانبه احمرار كما احترت من الخجل الحدود

وهذا خطأ في التشبيه مرده إلى سوء المقابلة ، لأن الحدود متوسطة وليست جوانب .^(١)

وفي الخجل إنما تحمر الوجنتان ، فأما منبت الأصداغ ومخبط العذار فقليلاً ما يحمران .

ولو اتفق له أن يقول : حمرة في جوانبها بياض لكان قد طبق المفصل وأصاب الغرض ، ووافق شبه الخجل ، لكن أراد أن البياض والحمرة يجتمعان فجعل الاحمرار في جوانب البياض ، فراغ عن موقع التشبيه .

ويرى عبد القاهر : أن هذا التشبيه من ابن المعتز يستوجب الفضل والخروج من التشبيه العامي وأنه يقال : قد زاد زيادة لم يسبق إليها إلا بالتركيب والجمع وبأن ترك أن يراعي الحمرة وحدها ، واعتذر له عما ذكره من إحداق الحمرة بالبياض ، بأنه لعله وجد الأمر كذلك في الورد فشبهه على طريق العكس ، فقال : هذا البياض حوله الحمرة كالحمرة حولها البياض هناك .

ثم يقول : فانظر الآن إن فرقت كيف يتفرق عنك الحسن والإحسان ويحضر العي ويذهب البيان ، لأن تشبيه البياض على الانفراد لا معنى له ، وأما تشبيه الحمرة وإن كانت تصح على الطريقة الساذجة ، أعني تشبيه الورد الأحمر بالحد ، فإنه يفسد من حيث القصد إلى جنس من الورد مخصوص ،

وهو ما فيه بياض تحديق به حمرة ، فيجب أن يكون وصف المشبه به على هذا الشرط أيضاً. (١)

وقول بعض المحدثين :

قد انقضت دولة الصيام وقد بَشَّرَ سقم الهلال بالعيد
تبدو الثريا كفاغر شره يفتح فاه لأكل عنقود
ذكر العنقود ، ولم يصفه بلون خاص ، وقد يكون العنقود أسود اللون
أو أحمر .

فقول الآخر :

كعنقود ملاحية حين نوراً
أدق منه وأبين .
وقول المتنبي :

وجرى على الورق النجيع القاني فكأنه النارج في الأغصان (٢)

ولا تكاد تحس بوجه شبه بين الطرفين من حيث نظرت إليه .
وقد عده ابن الأثير من التشبيهات الباردة ولا مزية في ذلك .
وقوله في رثاء والده سيف الدولة :

سقى مشواك غاد في الغوادي نظير نوال كفك في النوال
لساحية على الأجداث حَفَشَ كأيدى الخيل أبصرت الخال
الساحي : الذي يقشر الأرض ، والحفش ، شدة الوقع .

يريد : أن هذا المطر يقشر بسيلانه القبور ويشد وقعها عليها ، كما تفعل
الخيول بأيديها إذا رأت الخال .

(١) أسرار البلاغة - ١٦٠ - ١٦١ . (٢) الورق : المراد به ورق الشجر .

(٣) المثل السائر - ١٦٤ .

فالمناسبة بعيدة بين طرفي التشبيه مع قبح الالفاظ ، وجمعه بين الحوشى في أول البيت والمبتدل في آخره .
وقوله :

وعجاجة ترك الحديد سوادها زنجاً تبسم أو قدّالا شائبا^(١)
فقد قصد التهويل من شأن هذه الكتيبة فالتوى عليه قصده ، فتبسم الزنجى لا يوحى إلينا بعظمة تناسب عظمة الجيش المتكفّر في السلاح ، بل لعله يوحى إلينا بمعان الاستهجان والاحتقار والزراية ، لما قر في الأذهان من ضعة شأن الزنوج وقبح مشافرتهم .
والقدال الشائب أحقر من أن يشبه به بريق السيوف ولمعان الأسلحة ، فهو يشير فينا شعور الضئولة والمهانة والتفاهة لا شعور العظمة والجلال .
ومن الغريب أن يقول بعد ذلك :
فكأنا كسى النهار بها دجى ليل وأطلعت الرماح كواكبا
وقول التلوخي :

شقائق مثل حدود نُقِشت شوارب بالمسك فيها ولحي
والبعد ظاهر لأن السواد الذى فى الشقائق لا يشبه الشوارب واللحي .
وقول ابن فتوح الأندلسى — وقد أهدى مقصا — :
خذها إليك فإنها مخلوقة من فطنة مشبوبة وذكاء
تحكيك فى دفع المهم لأنها ولعت بشق حناجر الأعداء
وفيه يقول ابن بسام^(٢) : وتشبيه ابن فتوح صديقه بالمقص من الوصف

(١) العجاجة : الفبار ، والقدال : مؤخر الرأس ، شبه بريق الأسلحة فى سواد الفبار بتبسم الزنج وشيب القدال .
(٢) الذخيرة — ٢ — ٢٦٥ .

القيح بما مال فيه إلى العقوق ، وعدابه عن سواء الطريق !
ومتى كان المقص يشق الحناجر ، كأنه لم يسمع قول الآخر — وهو
ابن الرومي — :

وما تكلمت إلا قلت فاحشة كأن فكيك للأعراض مقراض

وقول صرّدر :

قوم كتوسهم السيوف وخمرهم ما استخرجت من شاخب الأوداج
فلا علاقة بين السكتوس والسيوف في ناحية من النواحي ، ولو قال
سقاتهم أو ندمانهم السيوف لأصاب .

وقال الصفدي في وصف القمر من خلال ثني الأغصان :

كأنما الأغصان لما انثنت أمام بدر التم في غيبه
بنت مليك خلف شباكها تفرجت منه على موكبها

وقال في ذلك أيضا :

كأنما الأغصان في روضها والبدر في أنثائها يسفر
بنت مليك سار في موكب قامت إلى شباكها تنظر

وقد انتقد النواحي وبدر الدين بن الدماميني هذا الشعر: بأن مراد الشاعر
أن يشبه البدر — يظهر من خلل الأغصان حال انثائها ، ويحتجب في حال
اعتدالها — ببنت مليك خلف الشباك تتراعى مرة وتختفي أخرى .
ولكن التركيب لم يساعده على غرضه — وكثيراً ما يقع له ذلك —
فقد جعل الأغصان بنت المليك ، والمقصود جعل البدر بنت المليك .

هذا إلى ضعف النسج وهلهاته ، وكثرة الحشو بذكر في « غيبه » و« التفرج
على الموكب » .

واختصاص بنت المليك بالذكر لا معنى له ، فأى امرأة جميلة تقوم مقامها
وليس من الضروري أن تكون بنت المليك جميلة .

فأين يقع قوله هذا من قول أعراية :

تطالعنى الشمس من دونها طلاع فتاة تخاف اشتها
تخاف الرقيب على سرها وتحذر من زوجها أن يغارا
فستر غرتها بالخمار ر طورا وطورا تزيل الخمار

وقول ابن عبد ربه :

نهار لاح فى سربال ليل فما عُرِف الرواح من البكور
وعين الشمس تنو من بعيد رنو البكر من خلف الستور
وقول ابن فتوح الأندلسى فى عين الشمس :

نشر القيام رداءه فتقنعت خجلا به للناظرين ذكاه
فكانه ستر تشير بمقلة مطروقة من خلفه عذراء
وكانه إذ مده من تحتها سر تضيق بكتمه الظباء

وقول آخر :

والبدر فى الأفق الغربى متسق والغم يكسوه جلبابا ويسلبه
كوجه محبوبة تبدو لعاشقها فإن بدا لها واش تنقبه

على أن الصفدى لم يخترع هذا المعنى ، بل أخذه من القاضى محي الدين

ابن قرناص حيث يقول :

وحديقة غناء تنتظم الندى بفروعها كالدر فى الأسلاك
والبدر من خلل الغصون كأنه وجه المليح يُطل من شُباك

وهذا الشعر خال من العيوب التي لحقت بشعر الصفدى مع ما فيه من الإيجاز، فقد أتى بالمعنى في بيت واحد .
ولو أنه قال :

كان بدر التم لما بدا من خلل الأغصان في غيبه
بنت مليك خلف شباكه تفرجت منه على موكه
وفي المقطوع الثاني :

كان بدر التم في أفقه من خلل الأغصان إذ يسفر
بنت مليك سار في موكب قامت إلى شباكه تنظر
لسلم بعض السلامة من العيوب
وقول شوقي في وصف روضة :
قام الجليلد بها وسال كأنه دمع الصباية بل غصن عذار
فالعذار لا يشبه بالغصن - وإن كان يوصف بالخضرة - ولو قال :
روض عذار مثلاً لكان أفضل .
وقوله من قصيدة رثاء :

همدوا وكل محرك يوما سيسكن في التراب
وكانهم صرعى كرى بالقاع أو صرعى شراب
فقد شبه فعل الموت بفعل النوم والخمر ، فشبه قوة بضعف ، وأين
صرع المنام والمدام من صريع الحمام ؟
وقوله يصف صعود الطيارات في الجو :

ذهبت تسمو فكانت أعقباً ففسوراً فصقوراً فخاماً
وكان الترتيب الواقعي أن يقول : فكانت نسوراً فأعقباً ، لأن النسور

(١) العذار : الشعر الناتج على الصدغين .

(٢) أعقب : جمع عقاب ، طائر معروف يعتبر سيد الطيور .

أضخم من العقبان وإن كانت أقل منها قوة وبطشا .

وقد جرت العادة أن الطيارة تصغر حين تصعد في الجو شيئا فشيئا ،
فمن المعقول أن تبدو بادية ذي بدء في نظر العين نسرا ثم غقابا لا العكس ،
ولكنه هنا يقول : إنها بدأت صغيرة ثم استحالت كبيرة وهو محال .
ولو تم لشوقي ذلك لكان هذا البيت في جمال ترتيبه وحسن تعاطفه
وملاحة انسجامه كميته المشهور :

نظرة فابأسامة فسلام فكلام فموعد فلقاء

وقد زاد شوقي على هذا البيت بيتا آخر هو :

فلقاء يكون فيه دواء أوفراق يكون منه الداء

وشوقي على العموم من البارعين في هذا الضرب .

ومن ذلك قوله — يصف غرق الطراداة الإنجليزية « هامشير » بفعل

غواصة ألمانية في الحرب العالمية الأولى (١) — :

ضربت بها وهي سر في الدجي ليس دون الله تحت الليل سر

وجفت قلبا وخارت جوجؤا ونزت جنبا ونامت من آخر

طُعنَت فانبجست فاستصرخت فاتاها حينها فهي خبر (٢)

وهذا النوع قليل في الأدب العربي ولا يتاح لغير المطبوعين .

وقد سأل ابن فرحون ابن حكم : هل نجد في التنزيل ست فاءات ترتيبها

كهذا البيت — وهو للشاب الظريف :

رأى فب فرام الوصل فامتنعوا فسام صبرا فأعيا نيله فقضى

(١) غرق بفرق هذه الطراداة اللورد كمشنر وزير الحربية الإنجليزية إذ ذاك .

(٢) استصرخت : استغاثت .

ففكر قليلاً ثم قال : نعم : « فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون ،
الآيات .

ويقول النويري : أكثر ما وجدت القاء تنتهي في كلامهم إلى هذا العدد
سواء بهذا الشرط أو بدونه ؛ كقوله - تعالى - حكاية عن نوح - عليه السلام -
« فعلى الله توكلت » الآيات .

وقد يحدث أن يراعى الشاعر جهة التشبيه ، ولكن تغيب عنه أشياء
أخرى كان يجب عليه أن يلاحظها ؛ فيصاب التشبيه بالهجنة ولا ينفعه مراعاة
الجهة وحدها .

وذلك كقول ابن المعتز في صفة كتاب (١)

ودونكه موشى نمتته وحاكته الأنامل أى حوك
بشكل يرفع الإشكال عنه كأن سطوره أغصان شوك

والسطور في استوائها تشبه الشوك شها تاما ، ولكن الكتاب لا يمدح
بجعل سطوره شوكا لأنه بالذم أشبه
وأين ذلك من قول ابن قرتاص :

هو مالك قد أصبحت ألقاظه
وكأن أسطره خلال دُرُوجه
وكقول شاعر في الخوخ :

في الخوخ أعجوبة لناظره
كأنها وجنة الحبيب وقد
أثر فيها قرص البراغيث

فالخوخ قد يشبه الوجنة التي أدامها البرغوث بقرصه ، ولكن في هذا
التشبيه زراية على هذه الوجنة ، ولا سيما إذا كانت وجنة حبيب يستحق أن
ينسب به الشاعر ويشيد بمحاسنه !

(٢) الدروج : جمع درج بالفتح (فرخ الورق)

(١) نفع الطيب ٣ - ١٢٢

(م ١١ - فن التشبيه)

فكيف ساغ لهذا المحب أن تهون عليه هذه الوجنة الرقيقة الناعمة ،
فيجعلها منها لهذه الحشرات اللاذعة !

ثم إن هذا لا يتحقق إلا إذا افترضنا أن هذا المحبوب برىء من نظافة
المكان والجسم والثياب ! ولا يهجي محبوب بأوجع من هذا ! ونعوذ بالله
من جفاء الطبع وغلظ الذوق !

وقد عرض بعضهم لمثل ما عرض له الشاعر ، ولسكنه سلك سبيلا آخر
لا يضع من قدر المعشوق .

قال بعض الشعراء :

وكان البنفسج الغض يحكى أثر اللطم في حدود الغيد
ومن شأن النساء أن يلطمن الحدود في المناحات فتزداد حمرة على حمرتها
وذلك يزيد في فتنتهن ، ولا يزرى عليهن إلا من حيث مخالفته للدين .
وقال أبو الحسن العقيلي :

أشرب على زهر البنفسج قهوة تنفى الأسى عن كل قلب مُكَمَد
فكأنه قرص بخد خريدة أو أعين زرق كلن يأمد
وقال أبو الحسن الشاطبي أو ابن الرومي (١) :

أشرب على زهر البنفسج م قبل تأنيب الحسود
فكأنما أوراقه آثار قرص في الحدود

وقال أبو هلال العسكري :

وبخافاتها البنفسج يحكى أثر القرص في حدود العذارى
وقال الميكالى :

وريم على السكر خمشته بقرص يعارضه أثرا
فأصبح نرجسه وردة ووردة خديه نيلوفرًا

وقال يصف غلاما مخمورا خمسه وجهه :

هبه تغير حائلا عن عهده ورعى فؤادى بالصدود فأزعجا
ما بال نرجسه تحول وردة والورد فى خديه عاد بنفسجا
وقال صاحب مصر :

والله لولا أن يقال تغيرا وصبا وإن كان التصان أجدر
لأعدت تفاح الحدود بنفسجا ثما وكافور الترائب عنبرا
ففى هذه الآيات أراد الشعراء أن يبالغوا فى وصف الحدود بالحرمة
فاتخذوا لذلك سببا من القرص أو اللثم أو التخميش ، وهى أشياء يتسع لها
فن الغزل ولا تشتمز منها النفوس ، ولم ينزل بهم خيالهم إلى قرص البراغيث
لأن فيه هجنة على العاشق والمعشوق .

على أن الصنوبرى جمع بين الخوخ والوجنة فى التشبيه وأتى بالمعنى
المتقدم ، وحماه ذوقه السليم أن يكون كصاحب البراغيث ، وذلك حيث يقول :

أهدى إلينا الزمان خوفا منظره منظر أنيق
من كل مخصوصة بحسن معناه فى مثلها دقيق
صفراء حمراء مستفيد بهجتها التبر والعقيق
ذات أديمين : ذا بهار لمجتيه وذا شقيق
كوجنة ألست خلوقا فزال عن بعضها الخلق

فهذا الشاعر المصور وصف الخوخ وصفا دقيقا شائقا ألم بجميع صفاته
مع التفصيل البديع والتقسيم الجميل .

وبلغ ما أراد من وصفه بالحرمة القانية حين شبهه بالشقيق وهو أشد
حرمة من الورد دون أن يحوجه سوء الذوق ونضوب الخيال إلى استعارة
لذع الحشرات .

(١) البهار : الأقحوان الأصفر ، والشقيق : المعروف بشقائق النعمان .

(٢) الخلق بالفتح : ضرب من الطيب مركب فيه زعفران كما قال الحافظ بن حجر .

الفصل الرابع عشر

التشبيه المجمل والمفصل

ينقسم التشبيه باعتبار وجه الشبه إلى قسمين :

١ - مجمل : وهو ما لم يذكر فيه وجه الشبه .

سمى بذلك لوقوعه مجملاً ، أخذاً من الإجمال الذي هو عدم ذكر الشيء صريحاً ولو فهم معنى .

وهو إما ظاهر لا يخفى فهمه حتى على العامة لمعرفة المقصود منه بيديه السماع كتشبيه الجميلة بالقمر والديممة بالقرد ؛ فوجه الشبه ظاهر لا يحتاج إلى تأمل لأن الجمال والدمامة أظهر أوصاف القمر والقرد .

وإما خفي لا يدركه إلا الخواص من الناس لمسيس الحاجة فيه إلى فضل النظر وكثرة التأمل ، وإمعان التفكير ، والتغلغل في الغوص على استخراج وجه المقايسة ، كقول كعب الأشقرى يصف أولاد المهلب للحجاج : « كانوا كالحلقة المفرغة لا يدري أين طرفاها » .

وقد كان سألته : أيهم كان أنجد !

فوصف الحلقة بأنها مفرغة غير معلومة الطرفين مشعر بوجه الشبه .

ومثل هذا لا يدركه إلا المثقف الفطن الأريب الذي يعرف أن الحلقة المفرغة متناسبة الأجزاء ، حتى ليستحيل التفاضل بين أجزائها فيمتنع تعيين بعضها طرفاً وبعضها وسطاً وبعضها نهاية ، لأنه يصح أن تبدأ بأى جزء شئت لتساويها جميعاً في الرتبة ، فيقيس عليها حال هؤلاء الأبناء النجباء الذين تساوا

في فضيلة النجدة والفروسة، وشرف البسالة والإقدام، فيتعذر أن يرى بينهم تفاوتاً في هذه المنازل، فيكون بعضهم فاضلاً وبعضهم مفضولاً.
فوجه الشبه: التناسب الذي يتمتع معه التفاوت، لكنه في «المشبه» في المعنى، وفي «المشبه به» في الصورة.

ومن الصعب على عامي الذهن الغفل من المعرفة أن يفتن إلى هذا الشبه الدقيق الخفي بين المشبه والمشبه به فينتقل من الأول إلى الثاني.

ويحضر في هذه المناسبة أن مراسلي الصحف في ألمانيا سألوا الجنرال (إيزنهاور): كيف يمكن أن تعمّر براين؟

فقال: والله لا ندرى من أي جزء نبدأ.

يريد أن الخراب عم جميع نواحيها وشمل كل أحيائها بنسبة واحدة، فليس فيها جزء يعد أولى بالتعمير من آخر.

وقد وردت للعرب أمثال في معنى قول الأشقرى منها:

١ — ركبتا البعير.

يضرب بهما المثل في الشئيين المتساويين، والرجلين المتكافئين الذين لا يفضّل أحدهما على الآخر.

ولما تنافر عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة العامريان إلى هرم بن قطبة لم يرد أن ينفر أحدهما على الآخر خوف حدوث فتنة، فقال لهما، أتما كركبتا البعير الأدرم^(١) تسقطان على الأرض معاً، وما منك إلا سيد كريم. فانصرفا راضيين.

٢ — حمارا العبادي

يضرب بهما المثل في الشئيين الرديئين ليس أحدهما بأمثل من الآخر، فنقول: هما حمارا العبادي.

(١) الأدرم: البعير ذهب أسنانه ودنا وقوعها.

والعبادى : هو الذى قيل له : أى حمريك شر !

فقال : ذا ثم ذا !

فسار بذلك المثل .

وقد تحاكم نفر إلى الرقاشى فى أيهما أنزل وأسفل ، الكناس أو الحجام ؟

فأنشد قول الشاعر :

حمارا العبادى الذى سيل عنهما وكانا على حال من الشر واحد

٣ — عكبا العير .

تقول العرب وقعا كعكى عير : إذا وقعا متساويين .

وأصله : أن يحل العير حباله فيسقط عكاه معا .

ويقال : هما عكبا عير مثلان ؛ كما يقال : كركبتى البعير .

والعكم بكسر وسكون : العدل .

٤ — جانبنا هرشى .

وهرشى كسكرى : أكمة بهامة يسلكها الحاج .

وفى القاموس : ثنية قرب الجحفة .

ولها طريقان من جانبيها أيهما سلك كانا صوابا ، فيضرب بهما المثل

للأمر له بابان ، وأنشدوا فى ذلك :

خذوا حيث هرشى أوقفها فإنما كلا جانبي هرشى لمن طريق

٥ — الفرقدان .

ويضرب بهما المثل فى طول الصحبة بالتساوى والتشاكل .

قال الشاعر :

كالفرقدين إذا نأمل ناظر لم يعلُ موضع فرقده عن فرقده

وقول آخر :

شغلى بمعدل القوا مظلوم لحظ المقتلين

أفنيته عضا وتقيلا م وإن بين ذين
وكأنني وكان من أهوى اجتماع الفرقدين
وما يتصل بذلك أن الغريض وابن سريج حين غنيا :

عوجى علينا ربة الهودج

قالت سكمينة تحكم بينهما : والله ما أفرق بينكما ، وما مثلكما عندي إلا
كمثل اللؤلؤ والياقوت في أعناق الجوارى الحسان لا يدرى أى ذلك أحسن !
وفي رواية : ما أشبهكما إلا بالجديين : الحار والبارد لا يدرى أيهما
أطيب (١) .

وقول أبي تمام :

طغام لثام بل كرام بزعمهم سواسية ما أشبه الحول بالقبل (٢)
وقوله :

شريكا عنان رضيعا لبان عتيقار هان حليفا صفاء

أقسام المجهول :

وينقسم المجهول إلى ثلاثة أقسام :

١ - ما لم يذكر فيه وصف المشبه ولا المشبه به .

والمراد بالوصف : الذى يكون فيه إيماء إلى وجه الشبه لا مطلق
الوصف ، فالفاضل في قولك : زيد الفاضل : أسد ؛ ليس بما نحن فيه ؛ لأن
الفاضل لا يشعر بالشجاعة ، مثال ذلك قول المتنوخى :

خداه ورد والنواظر نرجس والثغر سوسن والرضاب عتقار
وقول العسكري :

كأنك في خد الزمان توردد وفي فم ضحك وفي وجهه بشر

(١) الاغانى - ٢ - ٣٦١ - ٣٦٥ « طبع دار الكتب »

(٢) الحول : جمع أحول ، والقبل : جمع أقبل ، والقبل أحسن من الحول .

وقول آخر .

كفاه عاج والحباب لآلىء والراح تبر والزجاج زبرجد
وقول البارودي :

والوعة القلب من غز لان أخبية تكاد تسكر من أحداقها الراح
من كل مائسة كالغصن قد جمعت بدائعا كلها للحسن أوضاع
فالعين نرجسة والنغر سوسنة والنهد رمانة والخد تفاح
٢ — ذكر ما فيه وصف كل منهما كقول أبي تمام يمدح الحسن

ابن سهل :

✓ ستصبح العيش لي والليل عند قتي كثير ذكر الرضا في ساعة الغضب
صدفت عنه ولم تصدف مواهبه عني وعأوده ظني فلم يحب
كالغيث إن جئته وافاك ريقه وإن ترحلت عنه لج في الطلب
فقد وصف المشبه وهو الممدوح : بأن عطاياه فائضة عليه أعرض عنه
أم لم يعرض ، ووصف المشبه به وهو الغيث بأنه يصيبه قدم عليه أو ارتحل عنه .
والوصفان مشعران بوجه الشبه : أعنى الإفاضة في حالتي الطلب وعدمه ،
وحالتي الإقبال عليه والإعراض عنه .
وقول أبي الأسود الدؤلي :

حسدوا الفتي إذ لم ينالوا سعيه فالقوم أعداء له وخصوم
كضرائر الحسناء قلن لوجهها حسدا وبغيا إنه لدميم
وقول الرعي :

والنذل لا يطلب العلاء ولا يعطيك شيئا إلا إذا رهبا^(١)
مثل الحمار الموقع السوء لا يحسن شيئا إلا إذا ضربا
وقول مسلم بن الوليد :

يلقي المنية في أمثال عدتها كالسيل يقذف مجلودا بجلود

(١) الموقع : الذي كثرت آثار الدبر عليه .

وقول ابن الرومي — وهو من أظرف ما قيل في هجاء أبناء الحرام — :

لك وجه كآخر الصلح فيه لمحات كثيرة من رجال
كخطوط الشهود مشتهات مملعات أن لست بآبن حلال
وقول ابن المعتز :

كأن الشمس يوم الغيم لحظ مريض مدنف من خلف ستر
وقوله في الهلال :

انظر إلى حسن هلال بدا يهتك من أنواره الخندسا
كمنجل قد صيغ من فضة يحصد من زهر الربا نرجسا
وقول أبي هفان :

لعمرى لئن بيعت في دار غربة ثيابي إذ ضاقت على المآكل
فأنا إلا السيف يأكل جفنه له حلية من نفسه وهو عاطل
وقول آخر :

إذا ما جئت أجد مستميجا فلا يغرك منظره الأنيق
له خلق وليس عليه خلق كبارقة تروق ولا تريق
وقول آخر :

وزارة العباس منكوسة تقتلع الدولة من أسها
كأنه حين غدا راكبا في خلعة يعجز عن لبسها
جارية السوء إذا قدرت ثياب مولاها على نفسها
وقول آخر :

أضيع في معشر وكم بلد يعد عود الكباء من خطبه (١)
وقول آخر :

وتزكيتي مالا جمعت من الربا خساراً وبعض الجود أخزى من البخل
كسارقة الرمان من كرم جارها تعود به المرضى وتطمع في الفضل (٢)

(١) الكباء كالسقاء : عود البخور أو ضرب منه . (٢) الفضل : الزيادة .

وقول الشهاب الخفاجي :

جيش مالها في الملك نفع حكمت صورا تُصوّر في كتاب
رأيت قتالهم من غير قتل كمثل الضرب في كتب الحساب
وقول محمد بن الشامي :

لا يحسن الشعر إلا في مدائحه كالدر أحسن ما يبدو على الجيد
وقول ابن المطران :

المودات ما خلت من تهـاد مُزوّره

كطبخ خلا من اللحم م يدعى مُزوّره ^(١)

٣ — ما ذكر فيه وصف المشبه به ، كقول بعض الشعراء :

الناس مثل ظروف حشوها صبر وفوق أفواها شيء من العسل
تقر ذائقها حتى إذا كشفت له تبين ما تحويه من دخل
وقول الأخطل :

وأنت كالدهر مبثوثا حباله والدهر لاملجأ منه ولاهرب
وقول أبي تمام في المعتصم :

هو البحر من أي النواحي أتيته فليجته المعروف والجود ساحله
وقول البحتری :

هو العارض الثجاج أخضل جوده وطارت حواشي برقه فتلها
وقول المتنبي :

غمام علينا مطر ليس يُقشع ولا البرق فيه خلبا حين يلعب
وقوله :

كأنها الشمس يُعي كف قابضه شعاعها ويراها الطرف مقتربا

(١) المزورة بصيغة اسم المفعول : مرقعة يطعمها المريض وهي كلمة مولدة ، وقال الفقهاء : هي ما يطبخ خاليا من الأدهان .

وقول العسكرى :

هلى أنت إلا البدرُ تمَّ تمامه والغيث باكرَ وبله وسجَّامه
والسيف أَرْهَفَ للبضاءِ غراره والرمح قوم للقاء قوامه
وقول السرى الرفاء :

والشعر كالروض ذا ظام وذا خَضِل وكالصوارم ذا ناب وذا خَذِم
أو كالعرانين هذا حظه خَنَس مزر عليه وهذا حظه شَم
ومن النثر البليغ قول الحجاج لأهل الشام : إنما أنا لكم كالظليم الراح
عن فراخه ؛ ينقى عنها القدر ، ويباعد عنها الحجر ، ويكنها من المطر ،
ويحميها من الضباب ، ويجرسها من الذئب .

وقال حكماء العرب والعجم : مثل مضار السلطان في جنب منفعه مثل
الغيث الذي هو سقيّا الله - تعالى - وبركات السماء وحياة الأرض ومن عليها ،
وقد يتأذى به المسافر ، ويتداعى له البناء ، وتكون فيه الصواعق ، وتدر
سيوله فتهلك الناس والدواب والذخائر .

ومثل موج البحر تشتد بليته على أهله ، ولا يمنع ذلك الخلق إذا نظروا
إلى آثار رحمته - تعالى - في الأرض التي أحيا ، والنبات الذي أخرج ،
والرزق الذي بسط ، والرحمة التي نشر ، أن يعظموا رحمة ربهم ويشكروها ،
ويبلغوا ذكر خواص الأذية التي دخلت على خواص الخلق (١) .

وقد سمي الأستاذ جبر ضومط هذا الضرب : ترشيح التشبيه ، وهو أن
يبدأ الكاتب أو الشاعر بذكر طرفي التشبيه ، ثم يوهن تناسي أحدهما - وأكثر
ما يكون المشبه - ويأخذ في ذكر أحوال المشبه به كأنه ليس في الكلام غيره ،
إلا أن هذه الأحوال يلحظ العقل عند ذكرها أن لها ما يقابلها في المشبه .

وقد يكون من المكاتب في أثناء كلامه هذا أن يعود فيذكر المشبه أو يلمح إليه .

ولا يخفى أن ترشيح التشبيه لا يحسن استعماله إلا إذا كان القارئ من تلقاء نفسه يرد هذه الأحوال إلى ما هو شبيه بها من أحوال المشبه وكلما سهل الرد لظهور وجوه المناسبة ووضوحها كان الكلام أبلغ لأن الاقتصاد فيه أتم .

وقد غالى الفيلسوف «هربرت سبنسر» في مدح هذا الضرب من الكلام لما فيه من الاختصار والاقتصاد على انتباه السامع ، وذكر أن من أحسن من أجاد هذا النوع من العبارة «أمرسون» الكاتب الأمريكى المشهور^(١) . والجملة إذا جاءت بعد المشبه به لم تخل من ثلاثة أوجه :

١ — أن يكون المشبه به معبراً عنه بلفظ موصول وتكون الجملة صلة ، كقولك : أنت الذى من شأنه كيت وكيت .

وكقوله — تعالى — : « كمثل الذى استوقد ناراً » الآية .

٢ — أن يكون المشبه به نكرة فتقع الجملة صفة له كقولنا : أنت رجل من أمره كذا وكذا ، وقول النبى — صلى الله عليه وسلم — : « الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة » .

وأشبه ذلك .

٣ — أن تبيء الجملة مبتدأة مستأنفة ؛ وذلك إذا كان المشبه به معروفة ولم يكن هناك « الذى » كقوله — تعالى — : « كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً » الآية^(٢) .

٤ — ما ذكر فيه وصف المشبه .

ويلاحظ أنهم لم يمثّلوا له ؛ وقد قيل فى تعليل ذلك : إنهم تركوه لعدم الظفر له بمثال ! وهو تعليل مضحك .

وقيل : لأنهم تركوه لعدم إمكانه ، لأن وصف المشبه يقتضى أن يكون وجه الشبه فيه أتم منه في المشبه به وهو ممنوع .

وقد رد على ذلك ابن السبكي : بأن ذكر : بأن وصف المشبه لا يستدعى أن يكون فيه وجه الشبه أتم ، فقد يكون طوى ذكره في المشبه به لأنه فيه أشهر وأتم (١) .

ولا خلاف أن وصف المشبه وحده في التشبيه نادر جداً ، ومن الصعوبة المضمية أن تعثر له على مثال في ديوان شعري كامل .

وأحسب أن منه قول أبي تمام :

هي البدر يُغنيها تودد وجهها إلى كل من لاقت وإن لم تودد
وقول المخيل السعدى :

وتريك وجهها كالصحيفة لا ظمان مُختلج ولا جهم (٢)
وقول مائى الموسوس :

أهيف كالغصن لو أن ريحا حركت هذب ثوبه لتثنى
٢ - مفصل . كقول أبي تمام :

كالخوط في القد والغزالة في البهجة م وابن الغزال في غيده
وما حكاه - ولا نعيم له - في جيده بل حكاه في جيده
وقوله في مدح مالك بن طوق :

قل لابن طوق رحى سعد إذا خبطت نوابئ الدهر أعلاها وأسفلها
أصبحت حاتمها جودا وأحنفها حلما وأكثمها علما ودغفلها (٣)
وقول البحرى :

فهي الشمس بهجة والقصيب اللد ن لينا والرئم طرفا وجيدا

(١) عروس الأفراح - ٣ - ٤٤٦

(٢) المختلج بالبناء للفعول : قليل اللحم ، والجهم : الغليظ المجتمع السمج .

(٣) دغفل : ناسية عربى مشهور .

وقول مفضل العسكري :

أغر أروع يحكى الغيث مكرمة والنجم منزلة والطود أحلاما
وقول السرى الرفاء :

كالغيث والليث والهلل إذا أقرم بأسا وبهجة وندى
وقول أبي الحسن بن اليسع الأندلسي :

✓ هي الظبي جيداً والغزاة مقلة وروض الربا عر فاوغصن النقا قدأ
وقول المطراني :

مهففة لها نصف قضيف كخوط البان في نصف رداح^(١)
حكمت لونا ولينا واعتدالا ولحظا قاتلا سمر الرماح
وقول البارودي :

كالورد خدا والبنفسج طرة والغصن قدأ والغزاة ملفتا
وقوله شوقي :

وخيلة فوق الجزيرة مستها ذهب الأصيل حواشيا ومتونا
كالتبر أفا والزبرجد ربوة والمسك تربا واللجين مَعِينَا
ويفرق المغربي^(٢) بين تفصيل وتفصيل ، فالمراد بالتفصيل في وجه الشبه
المحكوم بإيجابه حسن التشبيه : أن يوجد متعددا انفصلت حقيقة بعضها عن
بعض في نفس الأمر وإن اعتبر المجموع شيئا واحدا .

وهو يعنى بذلك تشبيه التمثيل في نحو قول الشاعر :

✓ خلتها في المعصفرات القواني وردة في شقائق النعمان

فالحسناء تقابل الوردة ، والمعصفرات تقابل شقائق النعمان ، ولكن
ليس المراد تشبيه هذه الأشياء بعضها ببعض على انفراد ، بل المراد الصورة
المنتزعة من كل أولئك ، وهو شيء أبيض تشوبه حمرة محتملة في ضمن شيء
قائمه بالحمرة

(١) القضيف : النجيل ، والرداح : العظيمة الأوراك .

(٢) مواهب الفتاح — ٣ — ٤٥٣ .

الفصل الخامس عشر

أدوات التشبيه

يدخل في أدوات التشبيه كل ما أفاد شيئا ؛ كالكاف وكانّ وياء النسب ،
ومثل ومثيل وشبه وشبيه ونحو وضرب وشكل ، ومضاهو مساو ومحاك ، وأخ
ونظير وعدل وعديل وكفء ومشاكل وموازن ومضارع وندّ وصنو
وما كان بمعناها أو كان مشتقا منها من فعل أو اسم .

والمصدر بتقدير الأداة ، كقوله - تعالى - : « وهي تمرّ مرّ السحاب » (١)
فالأداة تعم الحرف كالكاف وكانّ ، والاسم كمثل وشبه - كما تقدم -
والفعل ؛ كشابه ومائل وحاكى وما إلى ذلك .

ويقول التّوخي : ولا بد في التشبيه من أداته ، وهي الكاف وكانّ ،
أو إرادتها أو إرادة معناها ، ومتى خلا من ذلك فهو الاستعارة ، فإن المستعير
قصد نقل اسم المستعار منه إلى المستعار له : أي هو هو ، ولزمه التشبيه من
غير قصد (٢) .

أشهر أدوات التشبيه .

وأشهر هذه الأدوات وأكثرها استعمالا :

١ - الكاف :

ومرد ذلك إلى بساطتها إذ هي حرف واحد ، والأصل فيها وفيما أشبهها
بما يدخل على المفرد كمثل أن يليها المشبه به ، لأن المشبه مخبر عنه بالحق
غيره ، محكوم عليه ، فلو دخلت عليه الكاف لامتنع الإخبار عنه (٣) .

(١) خزائن الأدب للحموي - ٢١٦ (٢) الأقصى القريب - ٢٤

(٣) عروس الافراح - ٣ - ٣٨٧

بخلاف ما يدخل على الجملة مثل كأن ، أو يكون جملة بنفسه كيشابه ويمائل ويضاهي ، فإنه لا يليها المشبه به بل المشبه ، فإذا قيل : زيد يماثل عمر أ كان الضمير المستتر في الفعل هو المشبه ، والمشبه به « عمر أ ، المتأخر ^(١) .
وموالاته المشبه به للكاف ونحوها ، إما لفظاً كقولك زيد كالأسد ، وإما تقدير أ كقوله - تعالى - : « أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق ، فالكاف في « كصيب » لم تدخل على المشبه به لفظاً بل تقديرًا .
وأصل النظم : أو كمثل ذوى صيب ؛ فحذف « ذوى » لدلالة يجعلون أصابعهم في آذانهم عليه .

وحذف « مثل » ، لما دل عليه عطفه على قوله : « كمثل الذى استوقد ناراً ، إذ لا يخفى أن التشبيه ليس بين مثل المستوقدين - وهو صفتهم العجيبة الشأن - وبين ذوات ذوى الصيب ، وإنما التشبيه بين صفة أولئك وبين صفة هؤلاء ^(٢) .

وقد بلى الكاف غير المشبه به ، وذلك فيما إذا كان المشبه به مركباً لم يعبر عنه بمفرد لعدم اقتضاء المقام ذلك التعبير ، فيستغنى عن ذلك المفرد بأخذ الحال التركيبية من مجموع ما فى اللفظ المركب ^(٣) ، كقوله - تعالى - : « واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح » ، إذ ليس المراد تشبيه حال الدنيا بالماء ولا بمفرد آخر يتمحل لتقديره ، بل المراد تشبيه حالها فى نضارتها وبهجتها وما يتعقبها من الهلاك والفناء بحال النبات يكون أخضر وارقاً ثم يهيج فتطيره الرياح كأن لم يكن ^(٤) .

فالمراد أن قلة بقاء زهرة الدنيا كقلة بقاء الخضرة ، فأما أن يراد تشبيه الأفراد بالأفراد غير منوط ببعضها ببعض ومصريّة شيئاً واحداً فلا .

(١) حاشية الدسوقي - ٣ - ٣٨٧ (٢) المفتاح - ١٨٦

(٣) مواهب الفتح - ٣ - ٣٨٧ (٤) الإيضاح - ١٦٩

وما هو بين قول لبيد :

وما الناس إلا كالديار وأهلها بها يوم حلوها وغدواً بلاع
لم يشبه الناس بالديار ، وإنما شبه وجودهم في الدنيا وسرعة زوالهم
وفنائهم بحلول أهل الديار فيها ووشك نهوضهم عنها وتركها خلاء خاوية (١) .
وليس مما نحن فيه قوله — تعالى — : « يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار
الله كما قال عيسى بن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله » .
لأن المعنى : كونوا أنصار الله كما كان الحواريون أنصار عيسى ، حين قال
لهم : من أنصاري إلى الله .

وصفوة القول : أن التشبيه إذا كان مركباً ، فإن عبر عنه بلفظ مفرد
كلفظ المثل ، ولما المشبه به الكاف ، وإن لم يعبر عنه بمفرد ولا اقتضى الحال
تقديره ، بل استغنى عنه بما في ضمن الألفاظ فلا يلحق التشبيه به الكاف (٢) .

٢ — كان :

وهي حرف كالـكاف ، وقد اختلف فيها ، فقليل : إنها بسيطة وليست
الكاف أصلاً وهو مذهب بعض البصريين .
وقيل : إنها مركبة من الكاف وأن المشددة ، وهو اختيار أبي حيان ،
ومذهب الخليل وسيبويه والجمهور .

والأقرب الأول لجود الحروف ، مع وقوعها فيما لا يصلح فيه التأويل
بالمصدر المناسب لأن المفتوحة ، وإن كان الثاني أشبه بحسب ما يبدو من
صور كان .

وفي « كان » ، بعد القول بالتركيب كلام لا يخلو من الفائدة ؛ فالزحشرى
يذهب في قولهم : كان زيدا أسد ، إلى أن أصله : إن زيدا كالأسد .
فلما قدمت الكاف فتحت الهمزة لفظاً والمعنى على الكسر ، وتحريره

(١) الكشف للزحشرى ١ - ٣٣ (٢) حاشية الدسوقي ٣ - ٣٨٧
(م ١٢ — فن التشبيه)

أن قولك : إن زيداً كالأسد : تحقيق لإثبات إلحاق الناقص بالكامل .
وقولك : كأن زيداً أسد : إعلام بأن تحقيق الأسدية على زيد إنما هو
بطريق التشبيه لا غيره .

وقال ابن جني في سر الصناعة : أصل كأن زيداً عمرو : إن زيداً كعمرو ،
ثم أرادوا الاهتمام بالتشبيه الذي عقدوا عليه الجملة ، فأزالوا الكاف من
وسطها وقدموها إلى أولها لفرط عنايتهم بالتشبيه ، فلما أدخلوها على « إن » ،
وجب فتحها ، لأن « إن » المكسورة لا يتقدمها حرف الجر ، ولا تقع إلا
أولاً وبقي معنى التشبيه الذي كان فيها وليست زائدة لأن معنى التشبيه
موجود فيها .

وبهذا علمت أن مقصوده : أن « كأن » : مركبة من إن المكسورة
والكاف ، وأنها فتحت وصارت بعد الفتح على حالها من الدلالة على تأكيد
الجملة غير منحلة مع ما بعدها إلى مصدر ، وأن هذه المفتوحة المتصلة بالكاف
غير أن المفتوحة في قولك : عجب من أنك قائم ، وقد قدمت الكاف
ووضعت في غير محلها مسارعة إلى تبادر ذهن السامع للتشبيه^(١) .

وتفيد كأن التشبيه سواء أخففت نونها أم لا ، أو اتصلت بما السكافة أم لا .
والمشهور : أنها للتشبيه على الإطلاق ، وذهب الكوفيون والزيج
وابن الطراوة وابن السيد : إلى أنه : إن كان خبرها اسماً جامداً فهي للتشبيه
نحو قولك : كأن زيداً أسد ، وإن كان جملة أو مشتقاً ففعلاً أو صفة ،
فهي للشك بمنزلة ظننت وتوهمت ، نحو : كأن زيداً قائم ، فمثل هذا لا يكون
تشبيهاً ، لأن خبرها المشبه به في المعنى هو المشبه ، والشيء لا يشبه بنفسه .
ومن ذهب إلى أنها لا تقع لغير التشبيه أوّل ذلك على حذف الموصوف
أي كأن زيداً شخص قائم : أي من أفرادها : كما تقول : زيد أسد أي من

أفراده ، فلما حذف الموصوف وجعل الاسم بسبب التشبيه كأنه الخبر بعينه صار الضمير يعود إلى الاسم لا إلى الموصوف المقدر .

وقد وصفه ابن يعقوب بالتكلف ^(١) .

وقال ابن ولاد : معناه تشبيه هيئته حال عدم القيام ، بهيئته حال القيام .

ومن ذلك قول ابن الأنباري : كأنك بالشتاء مقبل .

معناه : أظن .

وجعله الكوفيون للتقريب ؛ كقول الحسن البصري : كأنك بالدنيا

لم تسكن وبالأخرة لم تزل .

والجمهور يؤولون هذا إلى ما يرجع إلى التشبيه كما تقدم .

وقد تفيد كأن التحقيق عند بعضهم .

وذهب الكوفيون والزجاج إلى أنها للتحقيق في قول الشاعر :

وأصبح بطن مكة مقشعرا كأن الأرض ليس بها هشام ^(٢)

وقول ابن أبي ربيعة :

كأنني حين أمسى لا تكلمني متم يشتهي ما ليس موجودا

والجمهور يؤولون ذلك ^(٣) .

والمتبع لكلام الشعراء - وهم الحجة في مثل هذه الصور البيانية -

يقطع بصحة رأى الجمهور في أنها تقع للتشبيه دائما .

فقد عد العسكري قول امرئ القيس :

ألم تسأل الربيع القديم بعسعا كأنى أنادى - إذ أكلم - آخرسا

من التشبيه الفاسد .

وعد قول كثير عزة :

كأنى أنادى صخرة حين أعرضت من الصم لو تمشى بها العصم زلت

(١) مواهب الفتاح - ٣ - ٣٨٩

(٢) اقشعرت الأرض : أغلت . (٣) حاشية الدسوقي - ٣ - ٣٨٥

من التشبيه الجيد. (١)

وقال : ومن أحسن تشبيه جاء في الهية قولهم : كأن على رءوسهم الطير .
وذلك أن الهائب تسكن جوارحه ، فكأن على رأسه طائر يخاف طيرانه (٢)
وأورد في باب التشبيه قول مسلم بن الوليد :

أجدك ماتدرين أن ربّ ليلة كأن دجاها من قرونك تُنشر
وقول ابن المعتز (٣) :

وكان عقرب صدغه وقفت لما دنت من نار وجنته
وقول ابن نباته في فرس أبلق أغر (٤) :

وكأنما لطم الصباح جبينه فاقصص منه نخاض في أحشائه
وذكر ابن المعتز في باب ما اختاره من التشبيه (٥) قول البحترى :

يخفي الزجاجة لونها فكأنها في الكف قائمة بغير إناء
وقال ابن الأثير في قول البحترى يصف السيف :

وكأنما سود النمال وحرها دبّت بأيدي في قواه وأرجل

شبه فرند السيف بديب النمال سودها وحرها ، وذلك من التشبيه الحسن. (٦)
ودفع الأمدى تهمة السرقة عن البحترى في قوله :

بأبيض وضاح كأن قيصه يُزَر على الشيخين زيد وحاتم

فقال : أفترى البحترى ماسمع بذكر زيد الخيل ولا حاتم الطائي اللذين
تفخر بهما الين كلها ، فيشبه بمدوحه بهما إلا من بيت أبي تمام .

وأنت ترى أن هذه الآيات التي مرت عليك جميعها وقع فيها المشبه به
غير جامد ، وذكرت على أنها أمثلة من التشبيه .
والشواهد على ذلك كثيرة .

(٢) ديوان المعاني - ١ - ١٤٤

(١) الصناعتين - ٦٨

(٤) المصدر السابق - ٢٤٠

(٣) الصناعتين - ٢٤٤

(٦) المثل السائر - ١٦٢

(٥) البديع - ١٢٩

والكاف يليها المشبه به ، كقول صفيّة الباهلية :

كنا كأنجم ليل بيننا قمر
يجلو الدجى فهو من بيننا القمر

وكان بالعكس كقول عبيد بن الأبرص :

كان ريقتها بعد الكرى اغتبت
من ماء أدكن في الحانوت نضاح
والتحقيق في ذلك - كما قال ابن السبكي - : أن يقال : أداة التشبيه

إن كان لها معمولات قُدم ما تقضى العربية بتقديمه مشبهاً كان أم مشبهاً به ،
فتقول : كأن زيدا أسد ، فإليها المشبه لأنه مخبر عنه ، والمخبر عنه هو اسم
كأن لا خبرها ، فليس تقديمه لكونه مشبهاً بل لكونه اسماً لها ومخبراً عنه ،
وتقول : شابه زيد الأسد ومثله ، فوليا المشبه لأنه فاعل ووضع التقديم
على المفعول ، وتقول : زيد يشبه الأسد ، فوليا المشبه لأنه ضمير متصل .
وإن كان لها معمول واحد وليها في اللفظ المشبه به ، تقول : زيد كعمرو ،
أو مثل عمرو ، أو شبه عمرو . (١)

بين الكاف وكان :

المتبادر إلى الذهن أن التشبيه بكأن أبلغ من الكاف ، وقد صرح به
الرازي في نهاية الإيجاز ، وحازم في منهاج البلغاء ، يقول : وهي إنما تستعمل
حيث يقوى الشبه حتى يكاد الرائي يشك في أن المشبه هو المشبه به أو غيره
ولذلك قالت بلقيس : « كأنه هو » . (٢)

ولم تقل هكذا هو لحكمة ، وهي : « كأنه هو » : عبارة من قرئ عنده
الشبه حتى شكك نفسه في التباين بين الأمرين فكاد يقول : هو هو وتلك حال
بلقيس ، وأما هكذا هو فعبارة جازم بتباين الأمرين ، حاكم بوقوع الشبه
بينهما لا غير ، فلماذا عدلت إلى العبارة المذكورة في التلاوة لمطابقتها لحالها . (٣)

(١) عروس الأفراح - ٣ - ٣٩١

(٢) تريد عرشها الذي أتى به سليمان - عليه السلام - من اليمن وأمر أن ينكر لها كما جاء
في سورة « النمل »

(٣) الانتصاف لابن المنير - ٢ - ١٤٦

ومن ذلك ما أنشده ابن الأنبارى عن أبيه: (١)
 لما تبدت من الأستار قلت لها سبجان سبجان ربى خالق الصور
 ما كنت أحسب شمساً غير واحدة حق رأيت لها أختاً من البشر
 كأنها هى إلا أن يفضلها حسن الدلال وطرف فاطر النظر
 فهمى تستعمل — كما رأيت — فى مقام تشاهد فيه الصفة وتتصور الحالة
 كأنها محسوسة لإفادتها التحقيق فى التشبيه .
 ويرى ابن السبكي : أنه إن قلنا: بأنها — أى كأن — بسيطة صح ذلك
 فإن كثرة الحروف غالباً دليل على المبالغة فى المعنى ، وإن قلنا : بأنها مركبة
 فلا ؛ لأن أداة التشبيه فى الحقيقة هى الكاف ، وأن : تأكيد للجملة ، وتأكيد
 الجملة المخبر فيها بالتشبيه لا يدل على المبالغة فيه ، والاعتناء بالتشبيه فى تقديم
 الكاف المشعرة بالتشبيه من أول وهلة ، ليس فيه ما يدل على أن المشابهة أبلغ
 بل فيه تأكيد الدلالة على مطلق التشبيه والاعتناء به ، سواء أكان هو أبلغ
 أم لا فيكون مساوياً (٢) .

أدوات أخرى للتشبيه :

١- لعل .

قال — تعالى — « وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ،
 جاء فى البخارى عن ابن عباس : معناه : كأنكم تخلدون .
 وفى الكشاف : معناه : ترجون الخلود فى الدنيا ، أو تشبه بجالكم حال
 من يخلد .

وفى مصحف « أبى » : « كأنكم تخلدون » .
 وقال الطيبي : لعل هذا وارد على الاستعارة التمثيلية . (٣)

(١) عروس الأفراح — ٣ — ٣٩٤ .

(٢) المصدر المتقدم — ٣ — ٣٩٢ — ٣٩٣ .

٢ — سواء .

جعلها عبد اللطيف البغدادى من أدوات التشبيه ، كقولهم : رأيت رجلا هو والعدم سواء . (٤)
ويقول البحترى :

وسواء مقاوم الحلم منه
وقول مضرى الفقعسى :

وليل تقول العين من ظلماته
سواء صحيحات العيون وعورها
كأن لنا منه بيوتا حصينة
مُسوح أعاليها وساج كسورها
وقول آخر :

إذا أنت لم تعشق ولم تدرما الهوى
فأنت وغير فى الفلاة سواء
٣ — مثلك لا يفعل كذا .

يرى بعضهم أنه يستثنى من « مثل » أنها أداة تشبيه ، نحو قولك : مثلك لا يفعل كذا .

والحقيقة أنها تشبيه ، لأن المراد : من هو على مثل صفتك لا يفعله .
فليست مثل هنا زائدة مقحمة — كما قيل — بل هى نفى للفعل عن المخاطب بطريق برهاني . (١)

وقد جاءت فى قول المتنبي يمدح بدر بن عمار :

مثلك يا بدر لا يكون ولا تصلح م . إلا لمثلك الدول

٤ — مثل بفتح الثاء .

وهى فى أصل كلامهم بمعنى المثل وهو النضير ؛ يقال مثل ومثل ومثيل كشبه وشبه وشبيه ، وقد يكون المثل بمعنى الصفة ، من ذلك قوله تعالى : « مثل

الجنة التي وعد المتقون: «أى صفة الجنة، وقوله - تعالى: - «ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه»، «أى صفتهم .
قال الطيبي^(١): «ولا تستعمل إلا في حال أوصفت لها شأن، وفيها غرابة^(٢)»
كقوله - تعالى: - «مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ربح فيها صر...»
«فشله كمثل الكلب...»، «مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً...»
«مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار...»
هـ - ما .

وقد استعملها المتنبي في قوله:
أمط عنك تشبيهي بما وكأنه فما أحد فوقى ولا أحد مثلى
يريد: بما وكأنه: ما أشبهه بكذا، وكأنه كذا .

وقد اعترض عليه بأنه يُشَبَّه من الأسماء بمثل وشبه ونحوها، ومن الأدوات بالكاف، ثم تدخل على أن، فيقال: كأنه الأسد .
وقد تقرب العرب للتشبيه بأن تجعل أحد الشئيين هو الآخر، فتقول:
زيد الأسد عاديا والسيف مسلولا، فأما «ما» فلها مواقع معروفة، وليس للتشبيه في أبوابها مدخل .
وقد سئل أبو الطيب عنه، فذكر: أن «ما» تأتي لتحقيق التشبيه، تقول:
عبد الله الأسد، وما عبد الله إلا الأسد، وإلا كالأسد؛ تنفى أن يشبهه
بغيره، قال الشاعر:

وما هند إلا مهرة عربية سليلة أفراس تجالها بغل

وقال ليبي:

وما المرء إلا كالشهاب وضوئه يحور رماداً بعد إذ هو ساطع

فكأن قائلاً قال : ما هو إلا كذا ، وآخر قال : كأنه كذا ، فقال :

أط عنك تشبيه بما وكأنه

قال القاضي الجرجاني : وأقول : إن التشبيه بما ، محال ، وإنما يقع التشبيه في هذه المواضع التي ذكرها بحروفه ؛ فإذا قال : ما المرم إلا كالشهاب .

فإنما المفيد للتشبيه الكاف ودخلت ما للنفي ، فنفت أن يكون المرم إلا كالشهاب ، فهي لم تعد موضعها من النفي لسكرتها نفت الاشتباه سوى المستثنى منها .

وإذا قال : ما هند إلا مهرة عربية .

فإن ما دخلت على المبتدا والخبر ، وكأن الأصل : هند مهرة ، وهو في تحقيق المعنى عائد إلى تقريب الشبه وإن كان اللفظ مبيحاً ثم نفى أن يكون كذلك فأدخل حرف النفي والاستثناء ، فليس بمنكر أن ينسب التشبيه إلى « ما » ، إذ كان له هذا الأثر ، وباب الشعر أوسع من أن يضيق عن مثله . (١)

٦ - أفعال التفضيل .

جعل الطيبي من أدوات التشبيه أفعال التفضيل ، مثل زيد أفضل من عمرو (٢) .

ويقول ابن السبكي : وفيه بعد وإن كان يشهد له ما سيأتي من كلام ابن السجري .

فمن ذلك قول المتنبي في الفخر :

وأبصر من زرقاء جـ و لأنني متى نظرت عيناى ساواهما على (٣)

وقول السري الرفاء في الاستدعاء :

نفسى فداؤك كيف تصبر طائعا عن فتية مثل البدور صباح

(١) الوساطة بين المتنبي وخصومه - ٣٣١ (٢) عروس الأفراح - ٣-٣٩٢

(٣) جو : النيامة وهي طائر عربي معروف ، والزرقاء : هي حذام المضروب بها المثل في حدة النظر .

نهضوا لراحتهم وذكرك بينهم أذكى وأطيب من نسيم الراح

وقوله يمدح أبا الهيثم بن حمدان :

لا أقول الغمام مثل أياديك م ولا السيف مثل عزمك حدا

أنت أمضى من الحسام وأصفى من حيا المزن في المحول وأندى

وقول يامين البصرى في وصف صمصامة الزبيدي :

نصل كأن المنايا جند طاعته في طوله قصر إلا عن القصر (١)

أمضى من الأجل الماضي وأنفذ من جارى القضاء وأضوا من سنا القمر

وقول بعض الرُّجَّاز يمدح المأمون :

مأمون يا ذا المنن الشريفة والعلم والمنزلة المنيفة

هل لك في أرجوزة ظريفه أظرف من فقهه أبى حنيفه

وقول ابن عمار الأندلسى يمدح المعتمد بن عباد :

ملك إذا ازدحم الملوك بمورد ونحاه لا يردون حتى يصدرا (٢)

أندى على الأكباد من قطر الندى وألذ في الأجفان من سنة الكرى

وقول ابن حجاج في الخمر :

عادية السن بطشُ سورتها أجهل في الرأس من أبى جهل

وقول البستي في هجاء أبى بن سميجور :

ألم تر ما ارتآه أبو على وكنت أراه ذال لب وكيس

عصى السلطان فابتدرت إليه جيوش يُقلقون أبا قيس

وصير طوس مَعْقَلَه فأضحت عليه طوسُ أشأم من طويس (٣)

وقول الثعالبي في هجاء صديق :

صديق لنا منذ ذقت طعام إخائه غصصت وقد أربى على المر شهده

(١) القصر بفتح القاف والصاد : أصول الأعناق جمع قصرة (٢) نحاه : قصده.

(٣) طويس بالتصغير : من مخنث المدينة كان يضرب به المثل في الشؤم .

فأضعف من نسج العناكب عهده وأضيع من نار الجياحِب وده^(١)
وقول آخر في معناه :

لنا صاحب مولع بالخلاف كثير المراء قليل الصواب
أشد لجأجا من الخنفساء وأزهى إذا ما مشى من غراب
وقول بعض العصريين في ثقل^(٢) :

ألذ من الراح المشعشع بعده وأشهى إلى الأجفان من غفوة السحر
وأتق من وصل الكواعب حجره وأندى على الأكباد من رنة الوتر
وأبشع من ضحك القروود حديثه وأقبح من فقر ألمه على الكبر
ومن مختارات الغزل قول شاعر :

جارية أطيب من طيبها والطيب فيها المسك والعنبر
ووجهها أحسن من حلّيا والحلى فيها الدر والجوهر
وفيه يقول العسكري : ولو قيل : إن هذا أحسن ما قاله محدث لم يكن
بعيداً^(٣).

وقول عبد الغفار المصري :

ورد الحدود أرق من ورد الرياض وأنعم
هذا تنشقّه الأنو ف وذا يقبله الفم
فإذا عدلت فأفضل الـ وردين ورد يلثم
فلم يكفه أن يفضل ورد الحدود على ورد الرياض حتى عقد بينهما
موازنة خرج منها بالبرهان المحسوس المتعارف على أن ما يلثم خير مما يشم.
ومن البديع قول الشاب الظريف :

بلاغية للبدر وجهك أجمل وما أنا فيما قلته مُتجمل

(١) المراد بها : النار الضعيفة (٢) ألحان الاصيل—٣١٦ (٣) ديوان المعاني—١—٢٦١

ذلك أن البدر لا يغتاب ، لأن الغيبة ذكر الناس بما يكرهون ، لكنه هنا نزل البدر منزلة مليح جميل إذا فضل عليه غيره كره ذلك وعده غيبة ، ثم ادعى أن ذلك المليح الذي هو البدر لا يأنف ولا يغضب من تفضيل المحبوب عليه في الحسن ، لأن ذلك من الأشياء المسلم بها التي لا يكابر فيها ، فأنتهى الكلام — كما يقول الشهاب الخفاجي — : إلى هذه المبالغة المليحة ^(١) .

ومن الطريف البليغ وصف النظام لعبد الوهاب الثقفي — وكان من أجمل فتيان العرب وأنبلهم — : هو أحلى من أمن بعد خوف ، وبرء بعد سقم ، وخصب بعد جدب ، وغنى بعد فقر ، وطاعة المحبوب ، وفرج المكروب ، ومن الوصل الدائم ، مع الشباب الناعم ^(٢) .

٢٧ — أفعال تنبيء عن التشبيه .
يؤتى في التشبيه القريب بنحو : علمت زيدا أسدا ، الدال على التحقيق .
وفي البعيد أدنى بعد بنحو : حسبت زيدا أسدا ، الدال على الظن وعدم التحقيق :

وهذا رأى الخطيب في التلخيص والإيضاح تبعاً للسكاكي ، وخالفه جماعه منهم الطيبي ، فقالوا : الأظهر : أن الفعل ينبيء عن حال التشبيه في القرب والبعد ، وأن الأداة محذوفة مقدرة لعدم استقامة المعنى بدونها .
وذلك كقول المتنبي :

رأت وجهه من أهوى بليل عواذلى فقلن نرى شمساً وما طلع الفجر

وعجاجة ترك الحديد سوادها زنجاً تبسم أو قذالاً شائباً

ذكر الأنام لنا فكان قصيدة كنت البديع الفرد من أياتها

قوم إذا أمطرت موتا سيوفهم حسبتها سحبا جادت على بلد

متعود لبس الدروع يخالها في البرد خزا والهواجر لاذا^(١)

سقيته عبرات ظننها مطرا سوائلا من جفون ظننها سحبا

مازلت أعرفه قردا بلا ذنب خلوا من البأس مملوءا من النزق^(٢)

بياض وجه يريك الشمس حالكة ولفظ در يريك الدر مخشليا
وقول السرى الرفاء :

رأت أسدا يلقي المنية حاسرا إذا اختال في فُص الحديد أسودها

وكل مسفرة الألفاظ تحسبها صفيحة بين إشراق وإسفار^(٣)

تريك في الظل عقيانا فإن نظرت شمس النهار إليها خلتها لها

وروضة آزيون قد ذر وسطها نوافج مسك هيجت قلب مهتاج
تراها عيوننا بالنهار روانيا وعند غروب الشمس أزرار ديباج

(١) اللاذ : جمع لاذة ، ثوب حرير أحمر صيني .

(٢) الصفيحة : السيف العريض . (٣) يصف ثمار النخل .

وقول بعضهم :
ولقد علمت في الكريمة ضيغما أظفاره بيض السلاح وسمره
ولابن وضاح وقد قطع عنه بمدوحه إحسانه ، فقابله بقطع مدحه مدلاً
عليه ، فعاتبه فقال :

هل كنت إلا طائراً بثنائكم في دوح مجدكم أقوم وأقعد
إن تسلبوني ريشكم وتقلصوا عني ظلالكم فكيف أغرد
٨ - هكذا .

يقصد من التشبيه بها : الاستمرار على معنى أنه عادته ودأبه ، لأن نوع
الشيء يبقى ببقاء أمثاله .

والعادة تشعر بالاستمرار ، فيراد لازم المعنى ويقطع النظر عن التشبيه ،
كقولهم : هكذا أعاب وأعاب ، وكذا أنعم على من أنادم وأصاحب .
وعدل عمر في قضية كذا ، وهكذا .
أي استمر على عدله .

وقال الحماسي :

وهكذا يذهب الزمان ويفنى م العلم فيه ويدرس الأثر
قال التبريزي : أي استمر على ذلك .
وكذلك قوله :

وما من ذلة غلبوا ولكن كذاك الأسد تفرسها الأسود
وأمثاله أكثر من أن تحصى .

وذكر الصولي : أن كذا تفيد التعظيم في قول أبي تمام :

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر فليس لعين لم يفض ماؤها عذر
حيث قال : عاب قوم هذا ، وقالوا : لا يقال . فليكن كذا إلا للسروور ،
نحو : كذا فليكن الفرج .

وما علمت أن شيئاً يقال في تعظيم الفرح إلا قيل في تعظيم الحزن .
وقد جرت البشارة بما يسوء ، نحو « فبشرهم بعذاب أليم » .
ومن غريب معاني « كذا » : أنها تكون اسم فعل بمعنى دع و اترك
فتنصب مفعولاً .

قال المرادى : حكى النصب بها أهل اللغة وأنشد لجرير :
يقلن وقد تلاحقت المطايا كذاك القول إن عليك عينا
أى : دع القول .
وهى مركبة من كاف التشبيه واسم الإشارة وكاف الخطاب ، وزال
معناها التركيبي وضمنت معنى دع .
وقال ابن الأثير في قول عمر - ض - : كذاك لا تدع : أى حسبك .
وتقديره : دع فعلك وأمرك كذاك .
واستعملت السكامة استعمال الاسم الواحد في غير هذا المعنى ، يقال :
رجل كذاك : أى خسيس .
واشترى غلاماً ولا تشتتر كذاك : أى دينياً .
وقيل حقيقة كذاك : مثل ذاك .
ومعناه : إلزم ما أنت عليه ولا تجاوزه (١) .

توالى أداة التشبيه :

قد يقتضى المقام تكرار أداة التشبيه أو تعددها توسعاً في الوصف
وافتناءً في الكلام ؛ وذلك حينما يكون المشبه جوانب عدة تستدعى ما يناسبها
من المشبه به ، فيؤتى بالمشبه ثم يكرر المشبه به مع أداة التشبيه .
أو تكون الصورة التى يريد الواصف رسمها واسعة الرقعة كثيرة الألوان
فيكرر أداة التشبيه وطرفيه : المشبه والمشبه به مع كل جزء من أجزائها

ولاء حتى يأتي عليها ، ليستوعب بذلك جميع مناحيها حين لم يتيسر له أن يصوغها جملة .

فن الأول قول البحترى يصف إيوان كسرى :

فكأنى أرى المراتب والقو م إذا ما بلغت آخر حصى
وكان الوفود ضاحين حسرى من وقوف خلف الزحام وخنس
وكان القيان وسط المقاصير م يرجعون بين حو ولعس^(١)
وكان اللقاء أول من أمس م ووشك الفراق أول أمس
وكان الذى يريد اتباعا طامع فى لحوقهم صبح خمس

وقول المتنبي يمدح على بن منصور الحاجب :

هذا الذى أبصرت منه حاضراً مثل الذى أبصرت منه غائباً
كالبدر من حيث التفت رأيتَه يهدى إلى عينيك نوراً ثاقباً
كالبحر يقذف للقريب جواهرها جوداً ويبعث للبعيد سحائبها
كالشمس فى كبد السماء وضوءها يغشى البلاد مشارقاً ومغاربها

وقول السرى الرفاء يمدح سلامة بن فهد الأزدي :

وأغر ما طلعت أسرة وجهه إلا استسرى البدر قبل سراره
مثل الشهاب محرّقا أو كاسفاً ظلم الخطوب بنوره أو ناره
أو كالحسام إذا مضى فى مشهد شهدت مضاربه بعق نجاره
أو كالربيع الطلق واجه قطره وجه الثرى فاخضر من أقطاره
وقول شوقي فى أهرام مصر :

كان أهرام مصر حائط نهضت به يد الدهر لا بنيان بانينا

(١) الحو : جمع حواء ، وهى ما كانت شقتها حراء إلى السواد ، والعس : جمع لعساء ما كان فى لونها أدنى سواد يضرب إلى الحمرة .

كانها ورمالا حولها التطمط سفينه غرقت إلا أساطينا
كانها تحت لآلاء الضحا ذهاباً كنوزُ فرعون غطين الموازين
وقول بعض العصريين في وصف القرآن الكريم :

كانه الروض لا تنفك جدته يهني على العين منها الوشى والحبر
كانه الشمس لا تقنى أشعتها مدى القرون ولا تبلى لها صور
كانه القمر المرموق منظره لكل يوم جمال فيه مدخر
ومن الثاني قول البديع الهمذاني :

لك الله من ليل أجوب جيوه كاني في عين الدجي أبداً كل
كان السرى ساق كان الكرى طلا كأنه شرب كأن المنى نقل
كانا جياع والمطى لنا فم كأن الفلا زاد كأن السرى أكل
كان ينابيع الثرى ثدى مرضع وفي حجرها منى ومن ناقتي طفل
كانا على أرجوحة في مسيرنا لغور بنا يهوى ونجد بنا يعلو
وقول القاضي التتوخي :

وليلة مشتاق كأن نجومها قداغتصبت عين الكرى وهي نوم
كان عيون الساهرين لطلوها إذا شخصت للأنجيم الزهر أنجم
كان سواد الليل والفجر ضاحك يلوح ويخفى أسود يتسم
وقول ابن هانيء الأندلسي من قصيدة بارعة : (١)

كان السماكين اللذين تراهما على لبدتيه ضامنان له حتفاً
كان سهيلاً في مطالع أفاقه مفارق ألف لم يجد بعده إلغا
كان رقيب الصبح أجدل مرقب يقلب تحت الليل في ريشه طرفاً

(١) نفع الطيب — ٢ — ٣٦٥ — ستر الفصاحة — ٢٣٨ — ٢٣٩

(٢) الضمير في لبدتيه لأسد السماء .

كَانَ بَنِي نَعَشٍ وَنَعَشًا مَطَافِلُ بوجرة قد أضللت في مهمه خشفا^(١)
 كَانَ سَهَاها عَاشِقٌ بَيْنَ عُوْدٍ فأونة يبدو وأونة يخفى
 كَانَ مَعْلَى قَطْبِهَا فَارِسٌ لَهُ لوأان مركوزان قد كرها الزحفا
 كَانَ قُدَامَى النسر والنسر واقع قصصن فلم تسم الخوافى له ضعفا
 كَانَ أَخَاهُ حِينَ دَوْمٍ طَائِرُ أتى دون نصف البدر فاختطف النصفا
 كَانَ الهَزِيعُ الْآبِنُوسَى وَهْنَةً سرى بالنسيح الحسروانى ملتفا
 كَانَ ظَلامُ اللَّيْلِ إِذْ مَالَ مِيلَةً صريع مدام بات يشربها صرفا
 كَانَ عَمُودُ الصَّبْحِ خَاقَانُ مَعَشَرُ من الترك نادى بالنجاشى فاستخفى
 كَانَ لَوَاءُ الشَّمْسِ غَرَّةُ جَعْفَرُ رأى القرن فازدادت طلاقته ضعفا
 وقد أعجب بها المقرئ حتى قال عنه : إنه خرق فيها المعتاد .

وقول عفيف الدين التلمسانى فى وصف الرياض^(٢) :

رِياضٌ بَكَاهَا الْمُرْنُ فِى بَوَاسِمِ وناحت لغير الحزن فيها الحمايم
 كَانَ الْأَقَاحَى وَالشَّقِيقُ تَقَابِلَا حدود جلاهن الصبا ومباسم
 كَانَ بِهَا لِلزَّجَسِ الْغَضُّ أَعْيَنَا تنبه منها البعض والبعض نائم
 كَانَ ظِلَالُ الْقُضْبِ فَوْقَ غَدِيرِهَا إذا اضطربت تحت الرياح أرقام
 كَانَ غِنَاءُ الْوُرْقِ أَلْحَانُ مَعْبَدٍ إذا رقصت تلك القدود والنواعم^(٣)
 كَانَ نِشَارُ الشَّمْسِ تَحْتَ غَصُونِهَا دنانير فى وقت ووقت دراهم
 كَانَ ثَمَارُهَا فِي غَصُونِ تَوْسُوسِ لعارض خفاق النسيم تمام
 كَانَ الْقُطُوفُ الدَّانِيَاتُ مَوَاهِبُ فى كل غصن ماس فى الدوح حاتم

(١) المطافيل : ذوات الطفل من الإنس والوحش ، والحشف : الظبي الصغير

(٢) وفات الوفيات للإصلاح السكتي ١ - ٣٦٢

(٣) معبد : مغن مشهور فى الدولة الأموية .

وقول العسكري :

لبس الماء والهواء صفاء واكتسى الروض بهجة ورؤاء
وكان النّاء صرن رياضاً وكان الرياض عدن نهاء (١)
وكان الهواء صار حقيقاً وكان الرقيق صار هواء
وتخال السماء بالليل أرضاً وترى الأرض بالنهار سماء
وقول ابن برد يصف مكاناً — وقد أبدع أيما إبداع — :

كان ترثم الأطيّار فيه أغان فوق أوتار فصاح
كان تننى الأشجار فيه عذارى قد شربن سلاف راح
كان الجدول المنساب نصل صقيل المتن هز إلى كفاح
كان رياضه أبراد وشى تعطف فوق أعطاف ملاح
وقول المتنبي يصف طول الليل :

كان الفجر حب مُستزار يُراعى من دُجته رقيقاً
كان نجومه حلّى عليه وقد حذيت قوائمه الجيوباً (٢)
كان الجو قاسى ما أقاسى فصار سواده فيه شحوباً
كان دجاء يجذبها سهادى فليس تغيب إلا أن يغيباً

وقول على بن محمد الكوفى — وقد تخلص منه إلى المدح — :

نجوم أراعى طول ليل برّجها وهنّ لبعد السير ذات لُغوب
كان التى حول المجرة أوردت لتكرع فى ماء هناك صيب
كان رسول الصبح يخلط فى الدجى شجاعة مقدم بجن هبوب
كان اخضرار الفجر صرح مُردّ وفيه لآلٍ لم تُشن بثقوب

(١) النّاء بالكسر : جمع نهى بالكسر والفتح وتخفيف الياء وهو الغدير .

(٢) الجيوب بالفتح : الأرض .

كَأَن سَوَادَ اللَّيْلِ فِي ضَوْءِ صَبْحِهِ سَوَادَ شَبَابٍ فِي يَاضِ مَشْيَبِ
كَأَن نَذِيرَ الشَّمْسِ يَحْكِي بِنَشْرِهِ عَلِيٌّ بْنُ دَاوُدَ أَخِي وَنَسِيبِ
وَقَوْلِ الْخَفَاجِيِّ — وَقَدْ عَارِضَ بِهَا قَصِيدَةَ ابْنِ هَانِئِ الْمُتَقَدِّمَةِ — وَقَدْ تَخَلَّصَ
فِيهَا إِلَى الْمَدْحِ أَيْضًا :

كَأَن الدَّجَى لَمَّا تَوَلَّتْ نَجُومَهُ مُدَبِّرُ حَرْبٍ قَدْ هَزَمْنَا لَهُ صَفَا
كَأَن عَلَيْهِ لِلْجَرَّةِ رَوْضَةٌ مَفْتَحَةُ الْأَنْوَارِ أَوْ نَثْرَةُ زَعْفَا ^(١)
كَأَنَا وَقَدْ أَلْقَى إِلَيْنَا هَلَالَهُ سَلْبِنَاهُ جَامَا أَوْ قَصَمْنَا لَهُ وَقْفَا ^(٢)
كَأَن السَّهَاءَ إِنْسَانٌ عَيْنُ غَرِيقَةٍ مِنَ الدَّمْعِ يَبْدُو كُلُّهَا ذَرَفَتْ ذَرَفَا
كَأَن سَهِيلًا فَارِسٌ عَيْنُ الْوَعْيِ فَقَرٌّ وَلَمْ يَشْهَدْ طَرَادًا وَلَا زَحْفَا
كَأَن سَنَا الْمَرِيخِ شُعْلَةٌ قَابَسٌ تَخْطِفُهَا عَجَلَانُ يَقْذِفُهَا قَذْفَا
كَأَن أَفْوَلَ النَّسْرِ طَرْفٌ تَعْلَقَتْ بِهِ سِنَّةٌ مَا هَبَّ مِنْهَا وَلَا أَعْفَى
كَأَن نَصِيرَ الْمَلِكِ سَلٌ حَسَامُهُ عَلَى اللَّيْلِ فَانْصَاعَتْ كَوَاكِبُهُ كَسْفَا
وَلِحَازِمِ صَاحِبِ الْمُقْصُورَةِ :

كَأَن الثَّرِيَا كَاعِبٌ أَزْمَعَتْ نَوَى وَأَمَّتْ بِأَقْصَى الْغَرْبِ مَنَزَلَةً شَخْطَا
كَأَن نَجُومِ الْهَقِيقَةِ الزُّهْرُ هُودَجٌ لَهَا عَن ذُرِّ الْحَرْفِ الْمَنَاخَةُ قَدْ حُطَّتَا ^(٣)
كَأَن رِشَاءَ الدَّلُو رِشْوَةٌ خَاطِبٌ لَهَا جَعَلَ الْأَشْرَاطُ فِي مَهْرِهَا شَرْطَا ^(٤)
كَأَن السَّهَاءَ قَدْ دَقَّ مِنْ فَرْطِ شَوْقِهِ إِلَيْهَا كَمَا قَدْ دَقَّقَ السَّكَاتِبُ النَّقْطَا
كَأَن سَهِيلًا إِذْ تَنَامَتْ وَأَنْجَدَتْ غَدَا يَأْتِئُهَا مِنْهَا فَأَتَتْهُمْ وَانْحَطَّتَا
كَأَن خَفُوقَ الْبَرَقِ قَلْبٌ مَتِيمٌ تَعْدَى عَلَيْهِ الدَّهْرُ فِي الْبَيْنِ وَاشْتَطَّتَا

(١) النثرة : الدرع اللينة الواسعة .
(٢) الوقف : السوار .
(٣) الهقعة : ثلاثة كواكب فوق منكب الجوزاء كالأنثى ، والحرف : الناقة القوية .
(٤) الأشرط : ثلاثة كواكب اثنتان منهما قرنا الحمل .

كَأَن الَّذِي ضَمَّ الْقَوَادِمَ مِنْهُمَا
كَأَن أَخَاهُ رَامَ فَوْتًا أَمَامَهُ
هُوَ وَاقِعًا لِلْأَرْضِ أَوْ قَصَّ أَوْ قَطَا
فَلَمْ يَعُدْ أَنَّ مَدَ الْجَنَاحِينَ وَارْتِطَا (١)

وَقَوْلُ الْحَلَبِيِّ الدَّمَشْقِيِّ الْحَنْبَلِيِّ :

وَكَمْ لَيْلَةٍ سَامَرْتُ فِيهَا نَجُومَهَا
كَأَن نَجُومًا فِي الْمَجَرَّةِ خَرْدُ
كَأَن سَنَا الْجُوزَاءِ إِكْلِيلُ جَوْهَرٍ
كَأَن سَهِيلًا - وَالنَّجُومُ وَرَاءَهُ -
كَأَن الدَّجَى هَيْجَاءُ حَرْبِ نَجُومِهِ
كَأَن النَّجُومُ الْمَهَادِيَاتُ فَوَارِسُ
كَأَن سَنَا الْمَرِيخِ شُعْلَةٌ قَابِسُ
كَأَن السَّهَاءُ صَبَّ سَهَاءٍ نَحْوِ الْفَه
كَأَن ثَرِيًّا أَفْقَهُ فِي انْبِسَاطِهَا

وَقَوْلُ شَوَقِي فِي وَصْفِ الْوَقَائِعِ الْعُثْمَانِيَةِ الْيُونَانِيَةِ ، وَلَعَلَّهَا أَطْوَلُ مَا جَاءَ
مِنْ هَذَا النَّوعِ ؛ فَقَدْ تَكَرَّرَتْ فِيهَا أَدَاةُ التَّشْبِيهِ سِتْ عَشْرَةَ مَرَّةً :

كَأَنَا أَسْوَدُ رَابِضَاتٍ ، كَأَنَّهُمْ
كَأَن خِيَامَ الْجَيْشِ فِي السَّهْلِ أَيْتَقُ
كَأَن السَّرَايَا سَاكِنَاتُ مَوَائِجَا
كَأَن الْقَنَا دُونَ الْخِيَامِ نَوَازِلَا
قُطِيعٌ بِأَقْصَى السَّهْلِ حَيْرَانٌ مُذْتَب (٢)
نَوَاشِرُ فَوْضَى فِي دَجَى اللَّيْلِ شُرْب (٣)
قَطَائِعُ تُعْطَى الْأَمْنُ طَوْرًا وَتُسَلَبُ
جَدَاوِلُ يُجْرِيهَا الظَّلَامُ وَيَسْكُبُ

(١) ارتط : لم يبرح مكانه .

(٢) مذتب : فزع من الذئب .

(٣) نواشر : مرتفعة ، وشرب متفرقة .

كأن الدجى بحر إلى النجم صاعد كأن السرايا موجه المتضرب
 كأن المنايا في ضمير ظلامه هوم بها فاض الضمير المحجب
 كأن صهيل الخيل ناع مبشر تراهن فيه ضحكاً وهي تحب
 كأن وجوه الخيل غراً وسيمة درارئ ليل طلع فيه ثقب
 كأن أنوف الخيل حراً من الوغى بجامر في الظلماء تهدأ وتلهب
 كأن صدور الخيل غدر على الدجى كأن بقايا النضج فيهن طحلب
 كأن سنا الأبواق في الليل برقه كأن صداها الرعد للبرق يصحب
 كأن نداء الجيش من كل جانب دوى رياح في الدجى تتدأب^(١)
 كأن عيون الجيش في كل مذهب من السهل جن جول فيه جوب
 كأن الوغى نار ، كأن جنودنا بجوس إذا ما يمموا النار قربوا^(٢)
 كأن الوغى نار ، كأن الردى قرى كأن وراء النار حاتم يأدب^(٣)
 كأن الوغى نار ، كأن بنى الوغى فراش له في ملمس النار مأرب

ولا خلاف أن الشعراء المفلقين يستطيعون أن يكرروا التشبيهات دون
 أن يفترؤا أو يسفؤا كما رأينا في بعض القطع المتقدمة ، ولكن من الخير
 أن يهمل الشاعر الجزئيات القليلة القيمة ويصرف همه إلى التواحي البارزة
 فيصوغها في صور تركيبية ، فإن توالى التشبيهات المفردة على هذا النمط
 يجعل الشعر ناضباً شاحباً ، ويسوق إلى التكلف ، ويوقع القارىء في الضجر

(١) تتدأب : تجيء مرة كذا ومرة كذا .
 (٢) قربوا : قدموا القربان .
 (٣) يأدب : يقيم المآدب .

والسامة ، ومن خصائص الشعر الأصلية الجنوح إلى التجميع والتركيـ
ز والنفور من السرد والتقصى .

التشبيه باعتبار الأداة .

والتشبيه باعتبار الأداة يرد على وجهين :

١ - على جهة الإنشاء ، كقوله - تعالى - : « كأنهن الياقوت والمرجان » .

والغرض من كونه إنشاء : أنه لا يحتمل صدقا ولا كذبا .

٢ - أن يرد على جهة الإخبار ؛ كقوله - تعالى - : « فثله كثل الكلب

إن تحمل عليه يلهث وإن تتركه يلهث ^(١) » .

الفصل السادس عشر

الغرض من التشبيه

الغرض من التشبيه عند البيانين : هو الأمر الحامل على إيجاده .
ولا بد في كل تشبيه من غرض يرمى إليه ، وإلا كان وقوعه ضرباً من
العبث ، لأنه يكون - إذ ذاك - كلاماً ملق على عواهنه لا يجري إلى هدف ،
ولا يسعى وراء غاية ، ومثل ذلك يعد خلفاً من القول وشعبة من الهذر
والهذيان ، وهو أشبه بكلام المجانين والمعتوهين والسكران ، لأن العقلاء
يصنونون أقوالهم من السخف والفضول .
وهذا الغرض يعود إلى المشبه إلا في حال قلب التشبيه فإنه يعود
إلى المشبه به .

وذلك بحكم الاستقراء ، بل بقضاء العقل ، إذ المشبه أصل في الكلام
وغيره تبع له ، لأنه بمنزلة المحكوم عليه ، أو بمنزلة الموصوف ، أو بمنزلة
المقيس بالنسبة إلى المقيس عليه ، وكل ذلك يقتضي عودة الغرض إليه .
وفي عودة الغرض إلى المشبه مقاصد بلاغية مختلفة منها :

١ - بيان حال المشبه .

وذلك حينما تكون صفة المشبه به معلومة ، وصفه المشبه مجهولة أو في
حكم المجهولة ، فيساق التشبيه تمكيناً للذهن من إدراك المشبه وتصوره ، كافي
تشبيه وجه بوجه في البياض إذا علم لون المشبه به دون المشبه .

وكقولك : الورس : نبات كالسمسم .

وأبو براقش : طائر صغير برى كالقنفذ .

والبراق : دابة نحو البغل تركبه الرسل عند الخروج إلى السماء^(١) .
أما إذا كان حال المشبه معلوماً قبل التشبيه ، فإن ذلك لا يكون بياناً لحال
المشبه ، لأنها معروفة من قبل ، وتعريف المعروف عبث .

وهذا النوع يرد كثيراً في المسائل العلمية للإفهام والتوضيح ، فهو جزيل
الفائدة عظيم النفع ، كما أنه يقع بكثرة في كلام الناس لصلته القوية بالفطرة ،
لأن الإنسان بطبيعته يستظهر بمعارفه المخترنة على الإحاطة بما يحمله ، وحواسنا
دائمة العمل في هذا المضمار ، ولا تفتأ تحمل إلينا ألواناً من المعارف الثمينة
تزيد في رصيدنا الثقافى على مدى الزمن ، وهو ما يسمى بالعقل المكتسب .
مثاله من النثر البليغ قول الرسول - صلوات الله عليه - :

« مثل المؤمن كالنحلة لا تأكل إلا طيباً ولا تطعم إلا طيباً . »

« أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم . »

« المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً . »

« الحياء من الإيمان كالرأس من الجسد . »

« الناس كأسنان المشط في الاستواء . »

« أمى كالمطر لا يدرى أوله خير أم آخره . »

« مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن كمثل الأترجة طعمها طيب وريحها

طيب ، ومثل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن كمثل التمرة طعمها طيب ولا ريح

لها ، ومثل المنافق الذى لا يقرأ القرآن كمثل الخنثلة طعمها مر ولا ريح لها ،

ومثل المنافق الذى يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب ولا طعم لها . »

ومن الشعر قول طفيل الغنوى :

إن النساء كأشجار نبتن معاً منهن مرٌ وبعض المر مأكول

وقول آخر :

إن النساء رياحين خلقن لنا وكلنا يشتهي شم الرياحين
وقول بشار :

كان الناس حين تغيب عنهم نبات الأرض أخطأه القطار ^(١)
وقول المتنبي :

وما الموت إلا سارق دق شخصه وصول بلا كف ويسعى بلا رجل
وقوله :

وما أنا إلا سمري حمله فزين معروضا وراع مسددا ^(٢)

٢ — بيان مقداره في القوة والضعف والزيادة والنقص وما إليها .
ولا بد أن يكون المشبه معروف الصفة بوجه عام ، ويأتي التشبيه بعد
ذلك لتحديد ما ، فإن كانت محاولة أصالة كانت لبيان الحال لا لبيان المقدار ،
وهذا هو الفرق بينهما .

مثاله من النثر قوله — تعالى — : « وما أمر الساعة إلا كلمح البصر
أو هو أقرب » .

وقول ابن المقفع : الدنيا نوم نائم ، وحلم حالم .
وقول شوقي : هل دولة الحسن إلا كدولة الزهر ، وهل عمر الصبا
إلا أصيل أو سحر .

ومن الموجز الرائع : أن أعرايا سئل : كم تشرب من النبيذ ؟
فقال : على قدر النديم .

وقول الأعشى :

كان مشيتها من بيت جارتها مر السحابة لا ريث ولا عجل

(٢) يخاطب سيف الدولة .

(١) القطار : جمع فطرة .

وتشبه المرأة بالسحابة لتهادها وسهولة مرها ، وهذا ما تلحقه العين منها ،
فأما الخفة فهي كأسرع مار وإن خفي ذلك على البصر ، قال الله - عز وجل - :
« وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب » .

وقد انتقد الأصمعي على الأعشى هذا البيت وقال : جعلها خراجة ولأجة !
هلا قال كما قال الآخر :

ويكرمها جاراتها فيزرنها وتعتل عن إتيانن فتعذر

والنقد موجه إلى الخروج من البيت لا إلى التشبيه .

وقول عمر بن أبي ربيعة :

قال لي صاحبي ليعلم ما بي أحب القتل أخت الرباب
قلت وجدى بها كوجدك بالما إذا ما فقدت برد الشراب
وقول أبي تمام :

وفتكت بالمال الجزيل وبالعدا فتك الصباية بالمحب المغرم
وقول العظامي :

ألا إنما نيران قيس إذا شتوا لطارق ليل مثل نار الحبأحب^(١)
وقول المعتز :

ألا إنما الدنيا كظل غمامة إذا مارجاها المستظل اضمحلت
وقول المتنبي :

والغنى في يد التميم قبيح قدر قبح الكريم في الإملاق
وقول شاعر :

ياليلة لم تبين من القصر كأنها قبلة على حذر

(١) نار الحبأحب ونار أبي حبأحب : تضرب مثلا للشئ يروق ولا طائل تحته .

لم تَكْ إِلَّا كَلًا ، و « لا ، ومضت تدفع في صدرها يدُ السَّحَر »^(١) والتشبيه هنا يفيد في الجملة ما يفيد ذكر الخاص بعد العام ؛ فإن مشية الحبيبة التي شبهها الأعشى بامر السحابة ، يمكن أن تشبه بأشياء كثيرة يصعب حصرها ويعز تكيفها ، وتوقع في البلبلة والاضطراب ، لكثرة ما يتوارد على الذهن من المعاني المتماثلة .

ولكنه حين ذكر مر السحاب نصَّ على مشية معينة يحيط الذهن بصورتها ، فتمثلت لها في النفس هيئة خاصة تجعلها متميزة من بين المشيات جميعاً ، وهذا بدت الصورة واضحة وزال ما يكنفها من الغموض واللبس ، بعد أن كانت شيئاً يلح في جملة أشياء تنازعه الوجود .

٣ — تقرير حاله .

وهو نوع من بيان الحال ، ولكنه بيان على وجه التمكن بتوضيح حال المشبه في ذهن السامع ، وتقوية شأنها ، وتحقيقها في نفسه ، وتأكيدها في خاطره .

ويتم ذلك بإبرازها في صورة أقوى وأظهر وأبهر حين تشبه المعنويات المجردة الموهومة بالحسيات المشاهدة أو المتخيلة ، وهو الغالب الكثير ، كقول ابن المعتز :

✓ ويجرح أحشائي بعين مريضة — كما لان متن السيف والحد قاطع
فجرح الأحشاء بالعين المريضة معنى دقيق يلطف على بعض الأذهان ، حتى لیتعجب من حقيقته ، أو يشك فيها ، لأن المرض ضعف ، والضعف لا يُقوى معه على شيء .

(١) كلا ولا : يشبه به الزمن القصير .

ثم إن الصورة — على تدينها للثقف الخبير بأساليب الغزل — عليها
ظلال من الخفاء ، لأنها تتخيل ولا تحس ، وتلمح بالفكر لا البصر ، فإذا
جاء التشبيه وصبها في قالب حسي وضحت معالمها فارتسمت في شبكة العين ،
ونقشت في صحيفة الذهن ، وأصبح مقبولا معقولا مسلما أن ترح العين
بجفنها الفاتر وطرفها الناعس ، لأن السيف لا يمنع لين منته أن يقد الأجسام
ويحز الرقاب بصله المرهف الحاد .
ومثل ذلك تجده في قول الصنوبري :

محن الفتى يخبرن عن أخلاقه كالنار مخبرة بفضل العنبر —
وقول المظفر الأمدى :

قل للذين جفوني إذ لهجت بهم دون الأنام وخير القول أصدقه ✓
أحكم وهلاكى في محبتكم كعابد النار يهاها وتحرقه
وقول ابن رشيق :

أحب أختي وإن أعرضت عنه وقل على مسامعه كلامي
ولي في وجهه تقطيب راض كما قطبت في وجه المدام
وقوله :

في الناس من لا يرتجى نفعه إلا إذا مس بأضرار ✓
كالعود لا يطمع في طيبه إلا إذا أحرق بالنار
وقول ابن العميد :

ذو ملة يأتيك أثبت عهده كالخط يرسم في بسيط الماء (١)
وقول أبي الصلت الأندلسي في صديق ثقیل — وقد أجاد — :

(١) الملة : اسم مرة من اللال .

لى جليس عجت كيف استطاعت هذه الأرض والجبال تقله
أنا أراءه مكرها وبقلى منه ما يقلق الجبال أقله
فهو مثل المشيب أكره مرآ ه ولكن أصونه وأجله
ومن روائع أبى نواس :

سخنت من شدة البرودة حتى صرت عندى كأنك النار
لا يعجب السامعون من صفى كذلك الثلج بارد حار

فهذا كلام فلسفى ، وفيه المذهب الكلامى (١) :

وهو يدل على نظره فى علم الطبائع ، لأن الهند تزعم أن الشئ إذا
أفرط فى البرد عاد حاراً مؤذياً .

ووجدت فى بعض كتبهم لا ينبغى للعاقل أن يغتر باحتمال السلطان
وإمساكه ، فإنه إما شرس الطبع بمنزلة الحية إن وطئت فلم تلسع لم يغتر بها
فيعود لو طئها ، أو سحيح الطبع بمنزلة الصندل الأبيض البارد إن أفرط فى حكة
عاد حاراً مؤذياً (٢) .

ومن النثر الآية الكريمة : « والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه
الظمان ماء ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله
سريع الحساب » .

« وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب » .

والحديث الشريف : « مثل الذى يعلم الخير ولا يعمل به مثل السراج
الذى يضى للناس ويحرق نفسه » .

ويروى : « مثل الفتيلة تضى للناس وتحرق نفسها » (٣) .

(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة - ٥٠٧

(١) العمدة - ٢ - ٦٥ .

(٣) أسرار البلاغة - ٩٤ .

وقولهم : « التعليم في الصغر ، كالنقش في الحجر ، والتعليم في الكبر ، كالنقش في الماء .

وكما يأتي في تشبيه المعقول بالمحسوس - كما مر - يأتي في تشبيه المحسوس بالمحسوس إن كان أحدهما أقوى في ظهور الحجة ، ولكن هذا النوع أقل من سابقه .

مثاله قول شوقي :

وكم صيد بدا لك من ذليل كما مالت من المصلوب عنق
وقول الشاعر القروي :

أبكي وأضحك للعذاب كمرضع شد الوليد بشعرها المسترسل
وقول بعض العصريين :

بسمات تحت الدموع كما افترت م عن البرق مزنة وطفاء
وقد ذكر البلغاء العلة في استرواح النفس إلى هذا النوع من التشبيه ، وأشادوا بقيمته البانية في إسهاب عليه طابع علم النفس ، فقالوا : إن المعاني العقلية وإن كانت ثابتة مقطوعاً بها متيقنة ، خلا أن التمسك بالمحسوسات والتعويل عليها في المشابهة أولى وأحق ، لكونها تفيد زيادة قوة ومزيد إيضاح ، لما يحصل لها من الوثاقة واطمئنان النفس إليها ، وانشراح الصدر بها . وقد أشار الأصمعي إلى ذلك حين استقرضه صديق له من أخلص أصدقائه ، فقال : نعم وكرامة ! ولكن سكن قلبي برهن يساوى ضعف ما تلتسمه .

فقال له : يا أبا سعيد ، ألسنت واثقا بي ؟

قال : بلى ! ولكن هذا خليل الله كان واثقا بربه حين قال : « رب أرني

كيف تحي الموتى ، قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي ^(١) .

وبخاصة أن الأمور العقلية متأخرة في الحصول لدى النفس عن الإدراكات الحسية في الزمن ؛ لأن النفس في مبدأ الفطرة خالية من العلوم فلا جرم أن إلف النفس بالحسيات أتم من إلفها بالعقليات^(١) ، فإذا ذكرت المعنى العقلي الجلي ثم عقبته بالتمثيل الحسي ، فكأنك نقلت النفس من المعنى الغريب إلى المعنى القريب .

ولو كان الرجل مثلاً على طرف نهر في وقت مخاطبة صاحبه وإخباره له : بأنه لا يحصل من سعيه على شيء ، فأدخل يده في الماء وقال : انظر هل حصل في كفي من الماء شيء ، فكذلك أنت في أمرك ، كان لذلك ضرب من التأثير زائد على القول ، والنطق بذلك دون الفعل .

ولو أن رجلاً أراد أن يضرب لك مثلاً في تنافي الشيتين ، فقال : هذا وذاك لا يجتمعان ، وأشار إلى ماء ونار حاضرين ، وجدت تمثيله من التأثير ما لا تجده إذا أخبرك بالقول ، فقال : هل يجتمع الماء والنار ؟ !
أو تمثل بقول الشاعر :

ومكلف الأيام ضد طباعها متطلب في الماء جذوة نار
وإنك قد تعبر عن المعنى بالعبارة التي تؤديه ، وتبالغ وتجتهد حتى لاتدع في النفوس منزعا ، كقول حنيد بن حنيد المري :

في ليل صول تناهى العرض والطول كأنما لي — بالليل موصول
فلا تجد له من الأنس ما تجده لقول بشرمة بن الطفيل :

ويوم كظل الرح قصر طوله دم الزق عنا واصطفاق المزاهر^(٢)
على أن عبارتك الأولى أشد وأقوى في المبالغة من هذا ، فظل الرح

(١) قال الجاحظ : ليس يريدون به الطول فقط ، ولكنهم يريدون مع الطول : أنه صيق غير واسع . الحيوان . ٥ — ٥٥ .

على كل حال متناه تدرك العين نهايته ، وأنت قد أخبرت عن اليوم : كأنه لا آخر له .

وكذلك تقول : يوم كأقصر ما يتصور ، وكأنه ساعة ، وكلح البصر ، وكلا ولا ، فتجد هذا مع كونه تمثيلا لا يؤنسك إيناس قولهم : أيام كأباهم القطا^(١) .

وقول جرير :

ويوم كإيهام القطاة محبب إلى هواه غالب لي باطله
وقول ابن المعتز :

بُذلت من يوم كظل حصاة ليلا كظل الرمح غير موات
وقول آخر :

كانهم كُلِّي غنم الأضاحي إذا قاموا حسبتهم قعودا
وقول آخر :

ظللنا عند باب أبي نعيم بيوم مثل سالفه الذباب
وكذلك تقول : فلان إذا هم لم يزل عن ذكره وقلبه ، وقصر خواطره على إمضاء عزمه ولم يشغله شيء عنه ، فتحتاط للمعنى بأبلغ ما يمكن ، ثم لا ترى في نفسك له هزة ولا تصادف لما تسمعه أريحية ، وإنما تسمع حديثا ساذجا وخبراً غفلا ، حتى إذا قلت :

إذا هم ألقى بين عينيه عزمه ونكّب عن ذكر العواقب جانباً
امتلات نفسك سروراً وأدركتك طربة ، لاتملك دفعها عنك ، ولا تقل

(١) والشعراء يشبهون الشيء الصغير القصير بإيهام القطا ، والخباري وأظفور العصفور . ثم أراد الفتح بن العميد أن يتبدع عليهم في اللفظ والمعنى ، فكتب إلى أبي الحسين بن فارس رقعة صدرها : وصلت رقعة الشيخ فكانت أصغر من أنمل النمل .

ذاك لمكان الإيجاز فإنه وإن كان يوجب شيئا منه ، فليس الأصل له ، بل لأنه أراك العزم واقفا بين العينين ، وفتح إلى مكان المعقول من قلبك بابا من العين (١) .

ثم يجب ألا يغيب عنا أن اللغة آلة لنقل الفكر ، وهى من هذا القبيل عائق يعوق نقله مع أنها من ضرورياته .

ويظهر ذلك جليا من تصور الفرق بين نقل المعانى البسيطة بواسطة اللغة وبواسطة الأصوات والإشارات الطبيعية ، فإن المعنى المنقول إلى أذهاننا بواسطة هذه الأخيرة أفعل جداً بنا منه إذا ترجم إلى الألفاظ .

فمثلا ضع إصبعك على أنفك وزم شفتيك قليلا إلى الأمام ، أو قل : لا تتكلم .

ثم تصور شدة الفرق فى التأثير بين هذين التعبيرين .

ومثل هذا ، قولك : لا أدري ، وإشارتك بهز كتفك مع رفع الشفة السفلى قليلا إلى الأعلى ، بحيث يظهر تقصُّن أطرافها ، بل ما من إشارة كلامية تساوى إشارة فتح العينين ، ورفع الحاجبين دلالة على التعجب (٢) . ولأمر ما قالوا : رب إشارة أبلغ من عبارة ، ولسان الحال أفصح من لسان المقال .

وجعلوا للعيون لغة تعرب عن مكنونات النفس .

ومن ذلك قول بعض العصريين :

دعى عيونك تلقانا بلا حجب فللعيون مناجاة وأسرار

(١) أسرار البلاغة - ٩٩ - ١٠٠ - ١٠١ .

(٢) نهاية الإيجاز - ٧٥ - مواهب الفتاح - ٣ - ٣٩٧ - الطراز - ١ - ٣٥١ -

فلسفة البلاغة لجبر جومط - ١٤ .

وقوله :

هـ — هذه النظرة تنبئ منك عن سر دفين

هو — فى ظنى — حب حقق الله ظنه — ونى

وكثيراً ما رأينا المعارك الدامية تثور بين الدهماء والأغفال ، لإشارة بإصبع ، أو غمزة بعين ، أو كسر حاجب ، أو إخراج لسان ، لأن ذلك يفعل فى نفوسهم من تمييز الحفيظة ، وإلهاب الغيظ والحنق ما لا تفعله الشتائم الصريحة .

ومن هنا عظمت الحاجة إلى وسائل الإيضاح فى المحاضرات العامة والدروس العلمية ؛ كالسينما والفاونوس السحرى والرسوم والصور والنماذج المجسمة وعمل التجارب ؛ لإدخال السرور على النفوس ، واسترعاء الانتباه ، وشرح الغامض ، وتجلية الخفى .

وما من شك فى أن لهذه الأشياء أثر كبير فى إدراك الحقائق ، وتحصيل المعارف ، وتثبيت المعلومات فى النفس ، وصدق « جورج ديهاى » فى قوله : ومن الممكن أن تكون للصورة فى بعض الأحوال قدرة على العبارة تفوق أدق حيل التدليل العقلى ، وهى لا غنى عنها فى بعض فروع العلم .^(١)

ولهذا يرى ابن الأثير : أن هذا الضرب من أغراض التشبيه أبلغ من سابقه « بيان الحال وبيان المقدار » لتمثيله المعانى الموهومة بالصورة المشاهدة .^(٢)

ويجب أن يفتن إلى دقة الفرق بين ما جاء لتقرير حال المشبه ، وبين مقداره .

(١) دفاع عن الأدب — ٣٦ « ترجمة الدكتور مندور » .

(٢) المثل الثائر — ١٥٧ .

فما فيه بيان المقدار إن قصد من حيث التقرير ؛ لما فيه من قوة الظهور
والتمام ، كان من التقرير .

وإن قصد من حيث مجرد فهم الكيفية ، كان من بيان المقدار .^(١)
فمثلا قول الحسن بن وهب :

مداد مثل خافية الغراب وأقلام كرهفة الحراب

يصح أن ينظر فيه إلى مبلغ السواد ، والرهافة فقط ؛ فيكون لبيان
مقدار الحال .

ويصح أن ينظر فيه إلى ما خلعه المشبه به على المشبه : من تأكيد
ووضوح فيكون للتقرير .

سـ لم يرض

المشبه

الفصل السابع عشر

٤ - بيان إمكان المشبه

هذا الضرب داخل في بيان الحال ، والمقصود : بيان أن المشبه أمر جائز الوقوع على صفة مخصوصة .

وذلك في كل أمر غريب لا يظهر وجه إمكانه ، فيسهل أن يُمارى في صدقه ، وتدعى استحالاته ؛ فيؤتى بالتشبيه دليلاً على إثباته ، بأن تلحق الحال الممتنعة بحال مسألة الإمكان لوقوعها ، كقول المتنبي :

وما أنا منهمو بالعيش فيهم ولكن معدن الذهب الرغام

فقد ادعى أنه أمة وحده ، وجنس آخر متميز من الناس ، لا يعد منهم في قليل ولا كثير ، وإن لا بسهم في عيشهم ، وشاركهم في حياتهم .

ولما كان من السهل أن يسفه رأيه ويفند قوله ، ويرد عليه مدعاه ، لأن الناس يرونه رأى العين بشراً سوياً كسائر الخلق ، ولأن من الأعاجيب أن يسمو بعض أفراد الجنس في مدارج الكمال الخاصة به ، حتى يصير شيئاً لا تكاد تربطه رابطة بأصله الذي تفرع عنه ، احتاج أن يقيم على ذلك دليلاً لا يتأتى إبطاله حتى يبرأ من مذمة الكذب ، ويخرج من نقیصة الإحالة والتهجم على دعاوى الغريبة من غير سلطان مبين .

وكان دليله أن الذهب النفيس يسكن جوف التراب ، ولكن العقول تسلم تسليماً مطلقاً بأنه يخالفه مخالفة تامة ، ولا يمت إليه بنسب ولا سبب . فالأمر — كما ترى — لا يعدو أن يكون قضية وردت في صدر البيت ،

يظهر بطلانها بادية النظر ، فيأتى التشبيه فى العجز برهاناً على صدقها ، وجواز وقوعها .

والفرق بين هذا الغرض وغيره من أغراض التشبيه : أن المشبه فيه يقابل بالإنكار ابتداء ، ويعد وجوده مستحيلاً .

أما فى غيره فلا يرد عليه الإنكار ، بل يقابل بالتسليم المحض . ومن أمثلته البارعة قول أبى تمام :

يأياها الملك النأى بغرته ليس الحجاب بمقص عنك لى أملا
و قول أبى فراس الحمدانى :

ولو سدغىرى ماسددت اكتفوا به وما كان يغلو التبر لو نفق الصفر^(١)
وقول ابن الرومى — وقد مثل به السكاكى — :

قالوا أبو الصقر من شيطان قلت لهم كلاً لعمرى ولسكن منه شيطان
كم من أب قد علا بابن ذرا شرف كما علت برسول الله عدنان
وقول أبى الفتح البستى :

فالحر حر عزى النفس حيث ثوى والشمس فى كل برج ذات أنوار
وقول الحصرى :

أبا بكر إن أصبحت بعض ملوكهم فإن الليالى بعضها ليلة القدر
وقول ابن مسعويه الخالدى :

لا يعجبنيك حسن القصر تنزله فضيلة الشمس ليست فى منازلها
وقول عبد الصمد بن بابك :

تقاعس عنك الفاخرون فأحجموا وخيل المعالى غير خيل المواكب

(١) نفق : راج ، والصفر : النحاس الأصفر .

فإن زعم الأملاك أنك منهم نغاراً فإن الشمس بعض الكواكب
وقول مهيار - بعد إسلامه يخاطب قومه - :

لئن كنت منكم فإن الهجين يخرج في الفلوات النيجيا (١)
وقوله :

يُطَرِّبُه البيت وهو يحزُّه ومن أنين الحمامة الطرب
وقول صردُّر :

إطراقه يُخشى ويُرهَب صمته والسيف محذور وإن لم يُشهر
وقوله :

من الورى هولكن فاتهم كرما كذلك الدر والحصباء أحجار
وقول أبى الفتح البستي :

أبوك حوى العليا وأنت مبرز عليه إذا نازعته قَصَب المجد
وفى الخمر معنى ليس للكرم مثله وفى النار نور ليس يوجد فى الزند
وخير من القول المقدم - فاعترف -
نتيجته والنحل يُكرم للشهد
وقوله :

أبوك كريم غير أنك سابق مداه بلا ضيم عليه ولا ذيم (٢)
فلا يعجبَنَّ الناس مما أقوله وأقضى به فالغيث أُنْدَى من الغيم
وقول البارودى :

فلا عجب إن لم يصُرنى منزل فليس لعقبان الهواء وكور
وقد كثر هذا النوع فى شعر المتنبي ؛ لولوعه بالحكمة وضرب المثل ،
وجريه وراء المعانى الدقيقة .

(١) الهجين : غير الأصل ، وأصله : من كان أبوه من العرب وأمه من العجم .

(٢) القديم : العيب . (٢) يصوره : يضمه .

ومن ذلك قوله :

ماكل ما يمتنى المرء يُدركه تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن
من ينسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إيلام
ومن الخير بطء سبيك عني أسرع السحب في المسير الجسام
لا تحسبوا من قتلتم كان ذارمق فليس تأكل إلا الميتة الصبيح
لا يُعجبن مضيًا حسن بزته وهل تروق دفينًا جودة الكفن
إن السلاح جميع الناس تحمله وليس كل ذوات الخلب السبع

وله البيت المشهور في مدح سيف الدولة من قصيدة يرثي بها والدته
- وهو من قلائده - :

فإن تفق الأنام وأنت منهم فإن المسك بعض دم الغزال

يريد أن يقول : إن الممدوح قد فاق الناس جميعاً بحيث لم يبق يفتنه ويذنبهم
مشابهة بوجه ، بل صار أصلاً برأسه ، وجنساً بمفرده ، وهذا في الظاهر
كالمستع ، لا استبعاد أن تتناهى بعض آحاد النوع في الفضائل الخاصة به إلى أن
يصير كأنه ليس منها ، فاحتيج لهذه الدعوى وبين إمكانها : بأن شبه حاله
بحال المسك الذي هو من الدماء ، ثم لا يعد منها لما فيه من الأوصاف التي
لا توجد في الدم (١) .

وهذا معنى قد اخترعه المتنبي (٢) ، وكرره في تفضيل البعض على الكل
فأحسن غاية الإحسان حيث قال :

فإن يك سيّار بن مكرم انقضى فإنك ماء الورد إن ذهب الورد

وقال :

وإن تكن تغلب الغلباء عنصرها فإن في الخمر معنى ليس في العنب^(١)
غير أن ابن وكيع يقول : لا أعرفه منظوما^(٢) لكن وجدته في مشور ؛
وهو أنه قيل : الناس يتفاضلون تفاضل الدماء ؛ فمنها مسك يباع ، وعلق
يضاع^(٣) .

وعلى ذلك لا يكون المعنى من اختراع المتنبي .
وقبل بيت المتنبي السابق :

فإن تفق الأنام وأنت منهم
قوله يخاطب به سيف الدولة :

رأيتك في الذين أرى ملوكا كأنك مستقيم في محال
وروى أن بعض من حضر مجلس سيف الدولة اعترض على المتنبي
في قوله : « مستقيم في محال » : بأن المستقيم لا يضاد المحال ، وإنما يضاد
المعوج .

فقال له سيف الدولة : هب أن القصيدة جيمية فما كنت تصنع
باليث الثاني ؟

فقال المعترض :

فإن البيض بعض دم الدجاج

فقال سيف الدولة ارتجالا : حسن ! إلا أنه يصلح أن يباع في سوق
الطير ، لا أن يمدح به الملوك^(٤) .

(١) تغلب : قبيلة سيف الدولة والضمير في عنصرها لأخته التي يرثها المتنبي .

(٢) يريد معنى قول المتنبي :

فإن تفق الأنام

(٣) العلق : بفتح العين واللام : الدم عامة أو الشديد الحرارة أو الغليظ أو الجامد .

(٤) عروس الأفراح - ٣ - ٣٩٦

وقد أعجب الشعراء ببيت المتنبي كل الإعجاب فأخذوه على جهة التضمن .

فمن ذلك قول السراج الوراق :

وأصيدُ ظلَّ يدرك يوم صيد طرائدهُ بجُرد كالسَّعالِ
فإن عبقَّتْ لنا يميناهُ مسكا فإن المسك بعض دم الغزال
وقول الشهاب بن بنت الأعز :

وقالوا بالعذار تسلَّ عنه وما أنا عن غزال الحسن سالى
وإن أبدى لنا خداه مسكا فإن المسك بعض دم الغزال
وأخذ أبو بكر الخوارزمي معنى البيت :

فإن تفق الأنام وأنت منهم

ومعنى البيت الآخر :

وما أنا منهم بالعيش فيهم

فقال :

فديتك ما بدا لي قصدُ حرٍّ سواك من الورى إلا بدالى^(١)
وإنك منهم وكذلك أيضا من الماء الفرائد والآلى
وتسكن دارهم وكذلك سُكنى م الحجارة والزمرد فى الجبال
والفرق بين صياغة الشعرين كالفرق بين شاعرية المتنبي والخوارزمي .
وأشار شوقي إلى البيت الأول إشارة بارعة فى قوله من قصيدة يمجدها
استقلال سوريا :

رسولُ الصابرين أَلَمْ وهنا وبلَّغنى التحية والسؤال

(١) بدالى الثانية معناها : ندم . هكذا يستعمل كثيرا بدون فاعل ، وكذا يقال فيمن تغير رأيه وفاعله ضمير المصدر الذى فى ضمنه ، لأنهم قد صرحوا به ، قال فى الجمل : يقال : بدالى فى هذا الأمر بداء : أى تغير رأيه عما كان عليه .

دنا منى فناوانى كتابا أحست راحتى له جلالات
وجدت دم الأسود عليه مسكا وكان الأصل فى المسك الغزالا
والتشبيه المسوق لبيان الإمكان : تشبيه ضمنى مكنى عنه كما جاء فى
المطول ؛ لأنه لم يذكر صراحة بل كناية بذكر لازم التشبيه وهو وجه
الشبه - أى فوقانه الأصل - وإرادة الملزوم وهو التشبيه .
فكأنه شبه هذه الحال - وهى فوقانه جميع الأنام - بحال المسك
وفوقانه سائر الدماء ، والجامع الفوقان فى كل منهما .

ولا يخفى ما فى ذلك من التكلف .
وقد ذكر بعض البلغاء تعليقا على قول المطول : « ويسمى هذا التشبيه
ضمنيا ومكنيا عنه » : أى إنه إنما سمي ضمنيا لأنه يفهم من الكلام ضمنا ،
وسمى مكنيا عنه لأنه خفى ومستتر .
وهذا التعليل أحسن من سابقه (١) .

ومهما يكن فهو تشبيه لا يرد على صور التشبيهات المعروفة غالبا (٢) ، بل
يلحظ فى تضاعيف الكلام ، وفيه يقع المشبه به دائما دليلا على إمكان المشبه .
وإنما قلنا غالبا لأنه قد يأتى على صورة الصريح كما أشار إليه الثعالبي
فى قول المتنبي المتقدم :

فإن يك سيار بن مكرّم انقضى فإنك ماء الورد إن ذهب الورد
وكذا فى قول خلف بن عبد العزيز النحوى :
ما أنت بعض الناس إلا مثلها بعض الحصى الياقوتة الحمراء

وهو المشبه فى الأغراض الأربعة :

يرى الخطيب : أن هذه الأغراض الأربعة المتقدمة ، تقتضى أن يكون
وجه الشبه فى المشبه به أتم : أى أوفى وأقوى وأكمل وأحكم .

وأن يكون المشبه به بوجه الشبه أشهر: أى أعرف وأسير ، وذلك عند المخاطب بالتشبيه وإن لم يكن أشهر فى الواقع ، لأن الأمر - كما قال الفزرى - بحسب الرسوم والعادات ، فقلما يوجد وصف لأمر يعظم اشتغاره عند كل الناس ^(١).

وسر اقتضاء أشهرية المشبه به بوجه الشبه جلى واضح .

ذلك أن المشبه به كالمبين المعرف للمشبه ، فيجب أن يكون أوضح لأن التعريف يكون بالأوضح ، حتى يتحقق الغرض منه وهو الكشف والبيان . ولو لم يكن كذلك لزم أن يكون فى التشبيه تعريف بجهول بجهول ، وهو ينافى حقيقة البلاغة .

ولهذا ضعف قول البحرى :

على باب قنسرين والليل لاطخ جوانبه من ظلمة بمداد
فإنه رب مداد فاقد اللون ، والليل بالسواد وشدته أحق وأحرى .

ولهذا قال ابن الرومى :

حبر أبى حفص لعاب الليل يسيل للإخوان أى سليل
فبالغ فى وصف الحبر بالسواد حين شبهه بالليل ^(٢) .

ويقول العسكرى : إن البحرى أخذ بيته المتقدم من قول ذى الرمة ، - وقصر فى الأخذ - :

ودوية مثل السماء عسفتها وقد صبغ الليل الحصى بسواد ^(٣)
وليس البيت عنده على السكة المختارة .

ويقول فى قوله : « لاطخ جوانبه من ظلمة بمداد » : من بعيد الاستعارة ^(٤) .

(١) حاشية الدسوقي - ٣ - ٣٩٣ (٢) الإيضاح - ١٧٠

(٣) ديوان المعانى - ١ - ٣٤٤ (٤) دوية : الفلاة الواسعة .

(٥) الحق أن البيت تشبيه لا استعارة لذكر الطرفين فيه ، والتقدير : لاطخ جوانبه بمداد من ظلمة .

ويقول الحصري^(٤) : إن الأصل في هذا قول أعرابي :

والليل قد صبغ الحصى بمداد

وقد أخذه أبو نواس أيضاً فقال :

قد اغتدى والليل كالمداد والصبح ينفيه عن البلاد

طرد المشيب حالك السواد

ويظهر من توافر عدة شعراء على تشبيه الليل بالمداد ، أنه تشبيه صائب وأنه لا معنى لنقده ، فرمما كان الخبر في عهدهم شديد الحلوكة أكثر من الليل ، بحيث يمكن أن يعتبر أصلاً له .

وقد رأينا الميكالي يتابعهم على ذلك في وصفه للشمعة فيقول :

وليل كلون الحجر أو ظلمة الخبر نصبت لراعيه عموداً من التبر

يشق جلاليب الدجى فكأنما بدا بين أيدينا عمود من الفجر

ومن الصعب أن نعتقد أن هؤلاء الشعراء جميعهم قد وقعوا في الخطأ تقليداً للسابق .

وكذلك عابوا - للسبب المتقدم - قول ابن قلايس :

أما ترى الصبح يخفى في دجنته كأنما هو سقط بين أحشاء

فإن بهجة الصبح في أواخر الليل أبهج من السقط بين الأحشاء ، والمشيبه

أعلى وأعلى من المشبه به^(١) .

ورأي أيضاً : أن هذا التشبيه غير معيب إذ المراد منه مطلق الاستتار

وحده ، لا إرادة شيء آخر كالبهجة والإشراق ، فهو يعني أن الصبح جنين

لما تتمخض عنه الظلماء كالسقط في غيبة الرحم .

وفي معناه يقول السري الرفاء :

قد اغتدى نشوان من خمر الكرى أنتحب بردى على مُبرد الثرى

والصبح حمل بين أحشاء الدجى

وبديهى أن اعتراضنا على الشعر الذى مثلوا به ، لا على القاعدة المتعلقة ، بالآتمية ، « والأعرفية » فى وجه الشبه بالنسبة المشبه به .

ويرى بعضهم : أن تقرير المشبه فتمط هو الذى يقتضى ذلك ، لأن المراد تمكين ذلك الوجه فى النفس وتقريره عندها حتى تطمئن إليه ، وتثبت عليه ، وتدفع ما يساورها من الأوهام والوسوس والشكوك بشأن الفائدة الحاصلة منه .

فالآتم والأشهر أمكن عند النفس من غيره لإلفهاله وميلها إليه ، وعدم إمكان دفعه بالوهم والتساهل والغفلة ، فالتشبيه بالوجه الذى يكون كذلك أجدر وأحق بالزيادة التى هى تقرير المقصود .

وأما ما عده فلا يقتضى الآتمية وبخاصة بيان المقدار ، لأن المخاطب قد عرف الحال فى المشبه ، وهو طالب أو كالمطالب لمقدار تلك الحال ، فلا بد أن يكون الوجه الذى هو الحال المطلوب مقدارها فى المشبه به على قدره فى المشبه من غير زيادة ولا نقصان ، وإلا لزم الكذب والخلل فى الكلام^(١) .

والتحقيق عند التفاتنا : أن بيان الإمكان والحال لا يقتضيان إلا « الأشهرية » ، فقط ليصح القياس والاحتجاج فى الأول ، ويعلم الحال فى الثانى .

ومعنى ذلك : أن بيان المقدار والتقرير يقتضيان « الآتمية » ، فوق « الأشهرية » .

وهذا مشكل بالنسبة إلى بيان المقدار ، فقد تقرر — كما تقدم — أن تحقق الآتمية فيه يورثه الخلل^(٢) .

(١) مواهب الفتاح — ٣ — ٤٠١

(٢) انظر شروح التلخيص — ٣ — ٤٠٠

الفصل الثامن عشر

٥ - تحسين المشبه أو تقييده

وذلك للترغيب فيه أو للتنفير منه .

والطريق إلى هذا : ربطه بمشبه به حسن أو قبيح ، فتسرى إليه صفات الحسن أو القبح ؛ فتميل إليه النفوس أو تميل عنه عملاً بالقاعدة المقررة في الجبالات ، وهي أن ما جاز على أحد المثلين جاز على الآخر ، تحت تأثير البيان وخلا بته مصداقاً لقول ابن الرومي :

في زُخرف القول ترويح لباطله والحق قد يعتريه سوءُ تعبير
تقول هذا مجاج النحل تمدحه وإن ذممت فقل في الزناير
مدحا وذكما وما جاوزت وصفهما حسنُ البيان يرى الظلماء كالنور
ولله ابن سُكَّرَة الهاشمي حيث يقول :

والشعر نار بلا دخان وللقوافي رُقيٌّ لطيفه
لو هُجِيَ المسك وهو أهل لكل مدح لصار جيفه
كم من معلى المقام سام هوت به أحرف خفيفه

التحسين :

ويمكن تقسيم التحسين إلى ثلاثة أقسام :

١ - تحسين شيء حسن قصد المبالغة في وصفه ، كقول البارودي يصف مكاناً خصباً :

فترابه نفس العبير ونبتة سرق الحرير وماؤه فلق الضحا

وقول ابن المنير في الرفسة :

عَلِقَ الْفَوَادُ بِرَفْسَةٍ شَبَّهَتْهَا بِحَزِيرَةٍ مَا بَيْنَ بَحْرِ بَزْخَرِ
الزَّبْدِ بِحَرِّ وَالْفَطِيرِ حَبَابِهِ وَالشَّهْدِ مَوْجِ وَالْجِبَالِ السَّكْرِ^(١)
٢ — تَحْسِينُ شَيْءٍ تَخْتَلِفُ فِيهِ أَهْوَاءُ النُّفُوسِ كَسَوَادِ النِّسَاءِ وَطَوْلُنَّ ،

فَإِنْ بَعْضُ النَّاسِ يَتَعَشَّقُهُ ، أَوْ لَا يَنْفِرُ مِنْهُ عَلَى الْأَقْلَى ، وَكَالشُّقْرَةِ وَالْبَدَانَةِ إِلَى
غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَعْسُرُ أَنْ يَجْتَمَعَ عَلَيْهِ الطَّبَاعُ وَالْأَمْرُجَةُ وَالْأَذْوَاقُ .
فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ بَنِ رَشْمِقٍ فِي سَوْدَاءَ :

دَعَاكَ الْحَسَنُ فَاسْتَجَبِي يَا مَسْكَ فِي صِبْغَةٍ وَطِيبِ

تَهَيَّ عَلَى الْبَيْضِ وَاسْتَطِيلِي تَيْهَ شَبَابٍ عَلَى مَشِيبِ

وَلَا يَرُوكَ اسْوَدَادُ لَوْنِ كَمَقْلَةِ الشَّادَنِ الرَّيْبِ

فَإِنَّمَا النَّوْرُ عَنْ سَوَادِ فِي أَعْيُنِ النَّاسِ وَالْقُلُوبِ

وَقَدْ أَخَذَهُ ابْنُ قَلَّاقِسٍ فَقَالَ :

رَبِّ سَوْدَاءَ وَهِيَ بَيْضَاءُ مَعْنَى نَافِسِ الْمَسْكِ فِي اسْمِهَا الْكَافُورِ

مِثْلَ حَبِّ الْعَيُونِ يَحْسِبُهُ النَّاسُ سِوَادًا وَإِنَّمَا هُوَ نَوْرٌ

كَأَخَذَهُ السَّيِّدُ تَوْفِيقُ الْبُسْكُرِيِّ فِي وَصْفِ بَارِيسَ ، فَقَالَ : يَقْبَلُ الْمَرْءُ

عَلَى بَارِيسَ فَإِذَا حَدَاقَ وَقُصُورُ ، وَلَيْلُ كَسَوَادِ الْعَيْنِ كُلِّهِ نَوْرٌ .

وَكَقَوْلِ الزُّرْكَشِيِّ فِي دَنَانِيرِ الْبَرْمَكِيَّةِ .

أَشْبَهَكَ الْمَسْكَ وَأَشْبَهَتْهُ قَائِمَةٌ فِي لَوْنِهِ قَاعِدَةٌ

لَا شَكَّ إِذْ لَوْنُكَ وَاحِدٌ أَنْكَ مِنْ طِينَةٍ وَاحِدَةٍ

وَقَدْ أَخَذَهُ ابْنُ الرُّومِيِّ وَأَضَافَ إِلَيْهِ أَشْيَاءَ أُخْرَى تَوْسَعُ اقْتِدَارًا ،

(١) الرِّفْسُ : طَعَامٌ نَقِيسٌ وَيُسَمَّى رَفْسَةً ، وَهُوَ مِنْ لِبَابِ الْبَرِّ وَالزَّبْدِ الطَّرِي وَالسَّكْرِ
وَالْفَسْتَقِ وَالزَّرْعِفَرَانِ وَمَاءِ الْوَرْدِ وَالْمَسْكِ . شَقَاءُ الْغَلِيلِ — ٩٥

فقال :

يذكر المسك والغوالي والسك م ذوات النسيم والعبق^(١)
فزاد على جميع من تعاطى مدح السواد ، لأن الأبيض الشديد البياض
معيب^(٢) وقد دل عليه بقوله :

وبعض ما فضل السواد به والحق ذو سلم وذو نفق
ألا يعيب السواد حلكته وقد يعاب البياض بالبهق^(٣)
ثم يقول :

ليست من العبس الأكف ولا م الفلح الشفاه الخبائث العرق
فوصفها بالسكال في الصفة ، لأن من عيب السودان : أن أكفهم عابسة
متشقة ، وأطرافهم ليست بناعمة لينة ، وكذلك لا يزال الفلح في شفاههم
وهو الشقوق المذمومة الموجودة في أوساط الشفاه :

وأيضاً فإن الأسود يهيج بخرث العرق ، فنفي هذه الصفات المذمومة
في أكثر السود عنها ، ثم عاج بخاطره على وصف هذه السوداء بأضداد تلك
الصفات المذمومة فقال :

في لين سمورة تخيرها الفراء م أولين جيد الدلق^(٤)
ثم قال :

أكسبها الحب أنها صُبغت صبغة حب القلوب والحدق
فانصرفت نحوها الضمائر والأبصار م يُعنفقن أيما عنق^(٥)
فأبدع في مدح السواد ، وأخبر أن القلوب إنما أحبتها بالمجانسة التي
بينها وبين حب القلوب وبين الأحداق من السواد .

(١) السك : نوع من الطيب متعب في صنعه . انظر القاموس .

(٢) في زهر الآداب — ١ — ٢٧٦ : أنها لأبي حفص الشطرنجي .

(٣) والحق ذو سلم إلخ : يريد أن الحق يتصرف في جهات ، وضرب الصعود والنزول مثلاً لذلك .

(٤) الدلق : دويبة كالسمور . (٥) العنق : نوع من سير الإبل .

(م ١٥ — فن التشبيه)

ثم يقول بعد هذه المقدمة البليغة :

يفتر ذاك السواد عن يقق ✓ من ثغرها كاللآلئ الفلق
كانها والمزاح يُضحكها ليل تفرى دجاء عن فلق (١)
وقول الصابي :

لك وجه كأن يمتأى خطته م بلفظ تملة آمالي
فيه معنى من البدور ولكن نفضت صبغها عليه الليالي
وقول ابن برد الأصغر :

إن أزهرت ليلاً نجوم السما بيضاً على أسود ممرخي الإزار
وأوجد العكس مثلاً لها فالسود في الأرض نجوم النهار
وقول المتنبي في كافور :

جاءت بنا إنسان عين زمانه ✓ وخلت بياضاً خلفها ومآقيا
وقد أخذه من قول الجاحظ :

وإن سواد العين في نورها وما لبياض العين نور فيعلها
ويقول البهاء زهير في سمراء طويلة :

وسمراء تحكى الرمح لونا وقامة لها مهجتي مبدولة وقيادي ✓

لقد عابها الواشي فقال طويلة مقال حسود مظهر لعناد

فقلت له بشرت بالخير إنها حياتي وإن طالت فذاك مرادي

وما عابها القد الطويل وإنه لأول حسن للهليجة بادي

رأيت الحصون الشم تحرس أهلها فأعددتها حصناً لحفظ ودادي

ويقول سلم الخاسر في صفراء :

تبدت فقلت الشمس عند طلوعها بوجه غنى اللون عن أثر الورس (٢)

(٢) الورس : نبات كالسمسم ينبت بانين فقط .

(١) تفرى : انشق .

فقلت لأصحابي وبني مثل ما بهم على مربة ما ههنا مطلع الشمس
وقال مسعود الأصفهاني من شعراء الخريدة :
وقيصة قال لها ناقص كملت لولا صُفرة الحسن
قلت اتد فالشمس مصفرة وهي صلاح الأرض في السكون
وفي الشقرة يقول ابن حزم^(١) : إني أحببت في صباى جارية لى شقراء
الشعر فما استحسنت من ذلك الوقت سواد الشعر ولو أنه على الشمس ،
أو على صورة الحسن نفسه .
وفي ذلك يقول :

يعيونها عندي بشقرة لونها
يعيون لون الثور والتبر ضلة
وهل عاب لون الزرجس الغض عائب
وأبعد خلق الله من كل حكمة
بها وصفت ألوان أهل جهنم
ومذ لاحت الرايات سوداً تيقنت
نفوس الورى الأسبيل إلى الرشيد^(٢)
ومن طرائف هذا النوع^(٣) : أنه تحاكم إلى أبي أيوب سليمان البطليوسي
المعروف بالملتس فتاتان جميلتان ؛ أيهما أحسن ؟
وكانت لإحدهما لمة شقراء ، وللأخرى لمة سوداء فقال :

وشادين ألماً بي على مقة
كأن لمة ذا من زرجس خلقت
وحكما الصب في التفضيل بينهما
ولم يخافا عليه رشوة الحدق
تنازعا الحسن في غايات مستبق
على بهار وذا مسك على ورق

(١) طوق الحمامة — ٢٧

(٢) الرايات السود : شعار بني العباس ، وكان ابن حزم أندلسيا فهواه مع الأمويين .

(٣) فتح الطيب — ٢ — ١٩٠

فقام يبدى إليه الريم حجته
فقال وجهي بدر يستضاء به
مبيناً بلسان منه منطلق
ولون شعري مصبوغ من الغسق
فقالت صاحبة اللمة الشقراء أحسنت ؛ ولكن استمع لمقالى :

أنا على أفقى شمس النهار ولم
وفضل ما عيب في عيني من زرق
تغرب وحمرة شعري حمرة الشفق
أن الأسنة قد تُعزى إلى الزرق
قضيت للمة الشقراء حيث حكى
لوني كذا حبا يقضى على رمق
فقام ذو اللمة السوداء يرشقنى
سهماً أجفانه من شدة الحنق
وقال جرت فقلت الجور منك على
قلبي ولى شاهد من دمعى الغدق
وقلت عفوك إذ أصبحت متهما
فقال دونك هذا الحبل فاخترق

٣ — تحسين مالا ربية في قبحه أو كراهة النفوس له ، كقول دعبل

في الشيب :

أهلا وسهلا بالمشيب فإنه
وكان شيبى نظم در زاهر
سمة العفيف وحلية المتحرّج
في تاج ذى مُلك أغر متوج
وقول على بن الجهم حين حبسه المتوكل :

قالوا حبست فقلت ليس بضائر
أو ما رأيت الليث يألف غيلة
حبسى وأى مهنّد لا يغمد
كبرا وأوباش السباع تردّد
والتار في أحجارها مخبوءة
بيت يجدد للكريم كرامة
والشمس لولا أنها محجوبة
عن ناظريك لما أضاء الفرقد
وقول أبى الأسود الدؤلى في عجوز :
يلومونى في أم عمرو وحبا
عجوزاً ومن يعشق عجوزاً يُفند
عجوزاً

كبرد اليماني قد تقادم عهده ورُقعته ما شئت في العين واليد
وقول أبي تمام في صفرة المرض :
معدن الحسن والملاحة قد أصبح م للسقم معدنا وقرارا
لم تشن وجهه الجميل ولكن جعلت ورد وجنتيه بهارا^(١)
وقول البحتري :
بدت صفرة في وجهه إن حمدهم من الدرما اصفرت نواحيه في العقد
وقول أحمد بن إسحاق الطالقاني :
لقد حلت الخمي بساحة خده فأبدلت التفاح بالسوسن الغض^(٢)

* * *

وقول ابن الأنباري في ابن بقية الوزير ، وقد صلبه عضد الدولة بن بويه :^(٣)
علو في الحياة وفي الممات لحق أنت إحدى المعجزات
كأن الناس حولك حين قاموا وفود نذاك أيام الصلات
كأنك قائم فيهم خطيباً وكلهم قيام للصلاة
مددت يديك نحوهم احتفاء كدهما إليهم بالهبات
ولما ضاق بطن الأرض عن يضم علاك من بعد الممات
أصاروا الجو قبرك واستعاضوا عن الأكفان ثوب السافيات^(٤)
لُعْظَمُكَ في النفوس تبيت ترعى بحراس وحفاظ ثقات
وتُشعل عندك النيران ليلا كذلك كنت أيام الحياة

* * *

(١) البهار : زهر أصفر من أزهار البادية .

(٢) السوسن : بالفتح والضم زهر أحسنه الأبيض .

(٣) قيل : إن عضد الدولة تمي أن يكون المصلوب وأنه قيلت فيه هذه القصيدة .

(٤) السافيات : الرياح .

وقول زين الدين بن الوردى فى أعور :

بأنى أعور عينٍ فاتن مثل بدر التّم والبدر بعين ^(١)
طرفه الواحد غضب ذكر فله فى الحسن حظ الاثنين
وقول البهاء زهير فى عمياء :

قالوا تعشقتها عميا فقلت لهم ما شأنها ذاك فى عيني ولا قدحا
إن يجرح السيف مسلولا فلاجب وإنما عجبى من مُغمد جرحا
وقول ابن سناء الملك فى مثلها :

شمس بغير الشمس لم تحتجب وفى سوى العينين لم تكسف
مغمدة المرهف لكها تجرح بالجفن بلا مرهف
رأيت منها الجيد فى جوذر ومقلتي يعقوب فى يوسف ^(٢)

وقد أساء ابن سناء الملك فى بيته الأخير ، فإن يعقوب - عليه السلام -
لم يكف بصره وإنما ابضت عيناه من الحزن فلما رأى يوسف ارتد بصيراً !
وقول شاعر فى رمد بعض الأمراء :

قضب الهند والقنا أخذانك والمقادير فى الورى أعوانك
أيها ذا الأمير ما رمدت عينك م حاشا لها ولا أجفانك
بل حكى فعلك الكريم ليضحى شأنها فى العلا سواء وشانك
فهى تحمر مثل سيفك فى الروى ع وتصفو كما صفا إحسانك
وقول البهاء زهير فى أرمد :

حببى عينه قالوا تشككت وذلك - لو دروا - عين المحال
أنشكو عينه ألما وفيها يقال أصح من عين الغزال
ولكن أشبهت لون الحميا كما قد أشبهتها فى الفعال ^(٣)

(١) يزعم العامة : أن البدر بعين واحدة كما يتخلونه . (٢) الحميا : الحمر .

وقول سيف الدين المشد :

وشادن همت فيه وجدا لما غدت مقلته رُمدا
لم يتقص حسنه ولكن نرجس عينيه صار وردا

وقول الأسعد بن بليطة على لسان مجدر :

من رأى الورد تحت قطر نداه لم يعب فوق وجتى جُدريا
أنا شمس أردت في الأرض مشيا فنثرت النجوم حليا عليا
وقول ابن عبدوس القرطبي :

أكثر الحاسدون فيك فقالوا جُدرى بدا على وجنتيه
ويحهم ما دروا بأنك ورد نُثر الجوهر النفيس عليه
وقول أبي زيد القاضى :

عابه الحاسد الذى لام فيه أن رأى فوق خده جدريا
إنما شبهه هلال تمام جعلوا برقعا عليه الثريا
وقول أبي الهيثم فى أجرب :

قالوا به جرب فقلت لهم قفوا تلك الندوب موافع الأبصار
هو روضة والقدر غصن ناعم أرأيتم غصنا بلا نوار
ويقول البزاز الأندلسى فى قصر الشعر :

وقالوا قصير شعر من قد هويته فقلت دعونى لأرى منه مخلصا
حياه شمس قد علت غصن قدّه فلا عجب للظل أن يتقلّصا
ويقول البحترى فى ابن المدبر - وقد ضربه الزنجبالا هو اضر به فى وجهه - :

ووجه ضمان البشر فيه موقّف على النجح والحاجات تترى عججالها
به من صفيح الهند وشم تبينه صحيفة وضاح يروق جمالها
متى ربّدتها عزة أو حفيظة أعيد إليها بالسؤال صقالها

متى ترها يوما عليها دليلها تعجبت من شمس عليها هلالها

التقييح أو التثوير .

١ — فمن تقييح القبيح مبالغة في الذم قول كشاجم في كبر الأنف :
لقد مر عبد الله في السوق راكبا له حاجب من أنفه وهو مطرق
رعبت له من جانب السوق مخطئة توهمت أن السوق منها سيغرق
فأقذر به أنفا وأقذر بربه على وجهه منه كنيف معلق
وقول الخالدي في رجل أبحر خلق سباله^(١) بعد أن أطاله :

حلقت سبالك جهلا بما يوارى من النكرات القباح
فعذبت صبحك حتى المساء وعذبت عرسك حتى الصباح^(٢)
وقول الناجم في قينة قبيحة الصوت والخلقة :

وقينة شتمها قنوت أحسن أصواتها السكوت
مفقودة الكل غير بطن مشقل فهي عنكبوت
٢ — تقيح ما تختلف فيه الأهواء والأمزجة ، كزغب السيقان :
فقد قال فيه ابن شرف القيرواني :

و « بلقيسية ، زينت بشعر يسير مثلها يهب الشحيح^(٣)
رقيق في خد لجة رداح خفيف مثل جسم فيه روح^(٤)
حكى زغب الخدود وكل خد به زغب فم عشوق مليح
فإن يك صرح بلقيس زاجا فمن حدق العيون لها صروح

(١) السبال : مقدم شعر اللحية جمع سبلة بفتح الباء .

(٢) العرس بالكسر : الزوجة .

(٣) نسبة إلى بلقيس زوج سليمان — عليه السلام .

(٤) الحدجلة : الممتلئة الضخمة ؛ والرداح : العظيمة الأوراك .

وقال فيه ابن رشيق :

يعيبون بلقيسية أن رأوا لها كما قدرأى من تلك من نصب الصرحا
وقد زادها التزغيب ملحا كمثلها يزيد حدود الغيد تزغيبها ملحا^(١)
والسبب في إنشاء هذه الأبيات المتقدمة : أن المعز بن باديس الصنهاجي خلا
بابن شرف وبابن رشيق يوما فقال لهما : أريد أن تصنعاشعرأتمدحان به الشعر
الراقي الخفيف الذي يكون على سوق بعض الناس فإني أستحسنه ، وقد
عاب بعض الضرائر به بعضاً وكلهن قارئات كاتبات ، فأحب أن أريهن هذا
وأدعى أنه قديم لأحتج به على من عابه ، وأوسى من عيب عليه .

وقد نقد المعز على ابن رشيق قوله : « يعيبونها » وقال : أوجدت
لخصمها حجة بأن بعض الناس قد عابه^(٢) .

وقد جاء مدحه في وصف عصام الكندية للحارث بن عمرو ملك كندة ؛
أم إياس بنت عوف بن محم الشيباني : تحتها ساقان خدجتان كالبردى وشيتا
بشعر أسود كأنه حلق الزرد . . .

٣ — تقييح ما تواطأ الناس على استحسانه ، كقول ابن سناء الملك
في الشمس :

لا كانت الشمس فكم أصدأت	صفحة خد كالخسام الصقيل
وكم وكم صدت بوادي الكرى	طيف خيال جاءني عن خليل
وأعدمتني من نجوم الدجى	ومنه روضاً بين ظل ظليل
تكذب في الوعد وبرهانه	أن سراب القفر منها سليل
وهي إذا أبصرها مبصر	حديد طرف راح عنها كليل
يا علة المهموم يا جلدة المحموم	يا زفرة صب نحيـل
يا قرحة المشرق عند الضحا	وسلحة المغرب عند الأصيل

(٢) رسائل البلقاء « جمع الأستاذ كرد علي — ٢٣٤

(١) الماح : الملاحه .

أنت عجوز لم تبرجت لى وقد بدا منك لعاب يسيل ؟
وقول ابن الرومى فى ذم القمر :

رُبَّ عرض منزه عن قبيح دَنَسَتْهُ معرَّضات الهجاء

لو أراد الأديب أن يهجو البد ر رماه بالخُطَّة الشنعاء

قال يا بدر أنت تغدِّر بالسَّا رى وتُزرى بزورة الحسناء

كَلَّفَ فى شحوب وجهك يَحْكى نُكَّتَا فوق وجنة برصاء

يعتريك المحاق ثم يَحْلِيكَ م م شبيه القلامه الحِجَاء^(١)

ويليك النقصان فى آخر الشهر م م فيمحوك من أديم السماء

فإذا البدر نيل بالهجو هل يَأ من ذو الفضل ألسن الشعراء

لا لأجل المدح بل خيفة الهجو م م أخذنا جوائز الخلفاء

وقال فيه ابن المعتز :

يا سارق الأنوار من شمس الضحى يا مشكلى طيب السكرى ومنغصى

أما ضياء الشمس فيك فناقص وأرى حرارة نارها لم تنقص

لم يظفر التشبيه منك بطائل متسلِّح بهقاً كون الأبرص

وقول ابن الرومى فى ذم الورد :

يا ماحد الورد لا تنفك عن غلط أَلَسْتَ تنظره فى كف ملتقطه

كأنه سرم بغل حين يخرج عند البراز وباقي الروث فى وسطه

ويقول فى ذلك الحموى : الظاهر أنه كان جُعَلِيًّا ، وإلا فثله لا يخالف

الإجماع ويبالغ فى مثل هذه المغايرة ، ولعمري إنه فى بابه من التشايبه البليغة

مع نفور الطباع من صنعته^(٢) :

(١) الحِجَاء : العوجة .

(٢) خزانة الأدب - ٢١٦ .

يريد بقوله : «جعلى» أن الجعل يتأذى برائحة الورد .

وفى ذلك يقول المتنبي :

بذى الغباوة من إنشادها ضرر كما تُضر رِيّاح الورد بالجُعَل
وقد رد عليه ابن المعتز بقوله :

يا هاجى الورد لاحت من رجل غلّط والمر قد يُؤتى على غلظه
هل تنبت الأرض شيئاً من أزهارها إذا تحلت يحاكى الوشى فى نمطه
أحلى وأشهر من ورد له أرج كأنما المسك مذورر على وسطه
كانه خد جى حين ملكنى وصاله بعد طول الهجر من سخطه^(١)

وقول أبى العلاء السرورى فى ذم النرجس ، وتشبيهه أعلاه بأسفله :

كرّانة ركبت عليها صفرة يبيض على رقاقه

ويظهر أنه اقتدى بابن الرومى وبشيت القدوة !

وقول أبى حيان فى ذم البيض ومدح السود :

لنا غرام شديد فى هوى السود نختارهن على يبيض الطلى الغيد^(٢)
لون به أشرقت أنوارنا وحكى فى اللون والعرف نفح المسك والعود
لا تهو بيضاء لون الجص واسم إلى سوداء حسناء لون الأعين السود

ثم عاد ففند رأيه بقوله :

إذا مال للفتى للسود يوما فلا رأى لديه ولا رشاد

(١) أحدثنا فى البيت بعض التغير تفاديا من كنية شائنة . انظر الأصل فى نهاية الأرب -

١٩٢-١١ (٢) الرائحة : ما يخرج من بطن الدابة .

(٣) الطلى : الأعناق جم طليه بالضم .

أتهوى خنفساء كأن زفتنا
وما السوداء إلا قدر فرن
وما البيضاء إلا الشمس لاحت
وجوه المؤمنين لها ايضاض
وقول ابن شرف القيرواني في التين :
لا مرجباً بالتين لما أتى
ممزق الجلباب يحكى لنا
والأمثال على ذلك كثيرة .

كسا جلدأ لها وهو السواد
وكانون وفخم أو مداد
تنير العين منها والفؤاد
ووجه الكافرين به اسوداد
يسحب كالليل عليه وشاخ
هامة زنجى عليها جراح



الفصل التاسع عشر

التلطف

تحسين القبيح وتقييح الحسن : نوع معروف في البديع سماه العسكري :
التلطف .

وهو أن تتلطف بالمعنى الحسن حتى تهجنه والمعنى الهجين حتى تحسنه .
وهو القياس الشعري المذكور في المنطق ، وقد ورد كثيراً في كلام
العرب .

فن الأول قول الفرار السُّلبي في تحسين الفرار :

وكُتِبة لبستها بكتيبة حتى إذا التبتت نفضت لها يدي

فتركتهن تقص الرماحُ ظهورهم من بين منجدل وآخر مسند (١)

هل ينفعني أن تقول نساؤهم وقُلت دون رجالهم لا تبع (٢)

وقول الحارث بن هشام المخزومي في معناه :

الله يعلم ما تركت قتالهم حتى رموا مهرى بأشقر مزبد

فصرفت عنهم والأحبة فيهم طمعاً لهم بعقاب يوم مفسد

وفيه يقول أبو عبيدة : ما اعتذر أحد من الفرارين بأحسن مما اعتذر

به الحارث .

وهذا الذي سمعه صاحب «رتيل» (٣) فقال : يا معشر العرب : حسنتم

كل شيء فحسن حتى الفرار .

(١) الوقص : الكسر .

(٢) لا تبع بضم العين من البعد ضد القرب ، أو يفتحها من البعد بفتح العين وهو الهلاك .

(٣) رتيل : من بلاد التركستان ، والكلمة دعاء تقوله العرب لهوتي .

ولما فر أُمّية بن عبد الله بن خالد يوم « مرداء هجر » (١) من أبي فديك
الخارجي ، وفد عليه أهل البصرة ولم يدروا كيف يكلمونه ولا ما يلقونه
به من القول : أيهتونه أم يعزونه ؟ حتى دخل عبد الله بن الأَهمم فاستشرف
الناس له وقالوا : ما عسى أن يقال للمنهزم ، فسلم عبد الله ثم قال : مرحبا
بالصابر المخذول الذي خذله قومه ! الحمد لله الذي نظر لنا عليك ولم ينظر
لك علينا ، فقد تعرضت للشهادة جُهدك ، ولكن علم الله حاجة أهل الإسلام
إليك ، فأبقاك لهم بخذلان من معك لك .

فقال أُمّية : ما وجدت أحداً أخبرني من نفسي غيرك . (٢)

وقول منصور الفقيه في مدح الموت :

قد قلت أن مدحوا الحياة فأسرفوا في الموت ألف فضيلة لا تعرف
منها أمان لقائه بلقائه وفراق كل معاشر لا ينصف
وقول شاعر في مدح إفشاء الأسرار :

✓ وما أكنتم الأسرار لكن أنمها ولا أدع الأسرار تغلي على قلبي
فإن قليل العقل من بات ليلة تقلبه الأسرار جنباً على جنب
وقول أبي العتاهية في مدح البخل :

جُزِيَ البخيل على صالحته عني لخصته على ظهري
أعلى وأكرم عن نداه يدي فعلت ونزّه قدره قدرى
ورزقت من جدواه عافية ألا يضيق لشكره صدرى
وظفرت منه بخير مكرمة من بخله من حيث لا يدري
ما فاتني خير امرئ وضعت عني يداه مثونة الشكر

(١) مرداء هجر : موضع بهجر ، وهجر قاعدة البحرين .

(٢) العقد الفريد - ١٠٤٤

ومن اللطيف في معناه قول الآخر :

أعتقني سوء ما صنعت من الرق م فيا بردها على كبدى
فصرت عبداً للسوء فيك وما أحسن سوء قبلى إلى أحد
وقول نهشل بن جرى في مدح الجبن - وهو أحسن ما قيل فيه - :
فلو كان لى نفسان كنت مقاتلاً يا أحدهما حتى تموت وأسلها
وقول ابن الرومى في الحلف الكاذب :

وإنى لذو حلف كاذب إذا ما اضطررت وفى الأمر ضيق
وما فى اليمين على امرئ يدافع بالله ما لا يطيق
وقوله فى مدح الإعراض :

ما ساءنى إعراضه عنى ولكن سرنى
سألفته عوض من كل شيء حسن

وقوله فى مدح الحقد :

وما الحقد إلا توهم الشكر فى الفتى وبعض السجايا ينتسب إلى بعض
فحيث ترى حقداً على ذى عداوة فثم ترى شكراً على حسن القرض
إذا الأرض أدت ربيعاً ما أنت زارع من البذر فيها فهى ناهيك من أرض
وقد أخذه من قول عبد الملك بن صالح الهاشمى - وقد قال له يحيى
البرمكى : أنت حقود - !

فاجابه : إن كان الحقد عندك بقاء الخير والشر فإنهما عندى لباقيان .

فقال يحيى : ما رأيت أحداً احتج للحقد حتى حسنه غيرك .

وقد عاد ابن الرومى فذمه بقوله :

يا مادح الحقد محتالاً له شها لقد سلكت إليه مسلكاً وعثاً^(١)
كم زخرف القول ذو زور ولبسه على القلوب ولكن قل ما لبثا

(١) الوعث : المكان السهل .

الحقد داء دوى لا دواء له يرى الصدور إذا ما جمره حرثاً (١)
 فاستشف منه بصفح أو معاتبة فإتما يرى المصدر ما نفثا
 ويلاحظ أن ابن الرومي يذم ما يمدح ويمدح ما يذم كثيراً توسعاً
 واقتداراً .

وقد يكون ذلك لاعتلال مزاجه .
 وفي مدح الشر ذكروا : أن المتوكل قال لأبي العيناء — حين دخل
 إليه — : بلغني أن فيك شراً ! فقال : يا أمير المؤمنين ، إن يكن الشر ذكر
 المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ؛ فقد زكى الله — عز وجل — وذم ، فقال
 في التزكية : « نعم العبد إنه أواب » .
 وقال في الذم : « هماز مشاء بنميم مناع للخير معتد أثيم عتل بعد ذلك زنيم »
 وقد قال الشاعر :

إذا أنا بالمعروف لم أثن دائماً ولم أشتم الجبس اللثيم المذمماً (٢)
 فقيم عرفت الخير والشر باسمه وشق لي الله المسامع والفها
 ومن الثاني : أن الحسن رأى على رجل طيلسان صوف ، فقال له :
 أيعجبك طيلسانك هذا ؟

قال : نعم !
 قال : إنه كان على شاة قبلك .

فهجته من وجه قريب .
 وقال شاعر في حاجب اسمه « سعد » :
 يا حاجب الوزراء إنك عندهم سعد ولكن أنت سعد الذابح (٣)

(١) يرى الصدور : يحرقها .

(٢) الجبس بالسكسر : الجبان .

(٣) سعد الذابح : اسم كوكب .

ويقول العسكري : سمعت والدي - رحمه الله - يقول : لعن الله الصبر
فإن مضرته عاجلة ومنفعته آجلة ، وذلك أنك معجل بالصبر ألم القلب لتنال
المنفعة في العاقبة ، ولعلها تفوتك لعارض يعرض ، وكنت قد تعجلت الضرر
من غير أن تصل إلى نفع .

وما سمعت هذا المعنى من غيره فنظمته بعد ذلك وهو :

الصبر عما تُجْهِهُ صَبْرٌ ونفع من لأم في الهوى ضرر^(١)
من كان دون المرام مصطبراً فلست دون المرام أصطبر
منفعة الصبر غير عاجلة وربما حال دونها الغير
فقم بنا نلتمس مآربنا أقام أو لم يقم بنا القدر
وابغ من العيش ما تُسر به إن عذل الناس فيه أو عذروا
وقد يظن أن الشعراء يركبون التناقض البغيض ، ويفزعون إلى الكذب
الصراح حين يستحسنون ما يستقبح ، ويستقبحون ما يستحسن ، ويمدحون
ما يذم ، ويذمون ما يمدح .

والحقيقة أنهم لا يتناقضون ولا يكذبون ، وإنما هم يتناولون بعض
الجوانب دون بعض في ذلك ، كما فعل عمرو بن الأهتم حين مدح البرقان
بن بدر بين يدي الرسول - صلوات الله عليه - بأكرم صفات المدح ، ثم
ذمه بأدائها ، فلما رأى الكراهة في وجه الرسول حين اختلف قوله ، قال :
يا رسول الله : رضيت فقلت أحسن ما علمت وغضبت فقلت أقبح ما علمت
وما كذبت في الأولى ولقد صدقت في الثانية .

فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إن من البيان لسحرا ... »
وقد أشار إلى ذلك شوقي بقوله :

فامدح على الحق الرجال وذمهم أو خل عنك نصيحة النصاح

(١) الصبر : عصارة شجر مر .

وقد احتج لهم المرتضى في ذلك بقوله ^(١) : من شأن الشعراء أن يتصرفوا في المعاني بحسب أغراضهم وقصودهم ؛ إذا رأى أحدهم مدح شيء قصد إلى أحسن أوصافه فذكرها وأشار إليها حتى كأنه لا وصف له إلا ذلك الوصف الحسن ، فإذا أراد ذمه قصد إلى أقبح أحواله فذكرها حتى كأنه لا شيء فيه غير ذلك ، وكل مصيب بحسب قصده ؛ ولهذا ترى أحدهم يقصد إلى مدح الشيب فيذكر ما فيه من وقار وخشوع ، وأن العمر منه أطول وما أشبه ذلك ، ويقصد إلى ذمه فيصف ما فيه من الإدناء إلى الأجل ، وأنه أخل الألوان وأبغضها إلى النساء وما أشبه ذلك .

وهذه سبيلهم في كل شيء وصفوه ، ولمدحهم موضعهم ولذمهم موضعهم فمن ذم الوداع لما فيه من الإنذار بالفراق وبعد الدار ، قد ذهب مذهباً صحيحاً كما أن من مدحه لما فيه من القرب للمحبوب والسرور بالنظر إليه وإن كان يسيراً ، قد ذهب أيضاً مذهباً صحيحاً .

يقول البحتري في كراهة الوداع يعتذر لأبي جعفر بن سهل المروزي :

الله جارك في انطلاقتك تلقاء شامك أو عراقك

لا تعذلي في مسيرك م يوم سرت ولم ألافك

إني خشيت موافقاً للبين تسفح غرب ماقلك

وعلمت أن بكاءنا سبب اشتياقي واشتياقك

وذكرت ما يجد المودع عند ضمك واعتناقك

فتركت ذاك تعمدنا وخرجت أهرب من فراقك

ويقول في مدحه :

إن للبين نعمة لا تؤدى ويداً في تماضر بيضاء

حجبوها حتى بدت لفراق كان داء لعاشق ودواء

أضحك البين يوم ذاك وأبكي كل ذي صبوة وسر وساء

فجعلنا فيه الوداع سلاماً وجعلنا الفراق فيه لقاء
وقال آخر :

جزى الله يوم الدين خيراً فإنه أرانا على علاته أم ثابت
ومهما يكن فهذا مذهب له أنصار من قديم الزمن .
وقد قيل للأصمعي : من أشعر الناس ؟ قال الذى يجعل المعنى الخسيس
بلفظه كبيراً ، أو يأتى إلى المعنى الكبير فيجعله بلفظة خسيساً^(١) .
وقد قالوا : حسن البلاغة : أن يصور الحق فى صورة الباطل والباطل
فى صورة الحق^(٢) .

المرئية بالفتية .

وباب التحسين والتقييح مدخل واسع مهدى لطبيب الطباع وصقل العواطف ،
وتصفية الأذواق ، وتربية النفوس على الفضيلة وقدها عن الرذيلة ، وتحسينها
فى الخير وتسكينها فى الشر ، وحشها على كل عمل صالح نافع ، وملئها بالحماسة
والإقدام ، وحب التضحية والفداء ، والوقوف فى وجه الظلم ، ومجابهة الموت
بلا خوف ولا وجل .

انظر وقع هذا البيت على ضمير المرائى الذى يأمر بالخير ولا يعمل به :
وغير تقى يأمر الناس بالتقى طيب يداوى الناس وهو مريض
أو قول أحمد بن يوسف :
وعامل بالفجور يأمر بالبر م كهاد يقود بالظلم
أو كطبيب قد شفه سقم وهو يداوى من ذلك السقم
يا واعظ الناس غير متعظ ثوبك طهر أولاً فلا تلم
وقدر أثر هذا الشعر فى نفس لاه غافل لا يجرى ذكر هاذم الذات على
لسانه ولا يخطر له على بال .

الموت باب وكل الناس داخله يا ليت شعري بعد الباب ما الدار
الدار جنة عدن إن عملت بما يرضى الإله وإن خالفت فالنار

وهل تكسر من شرة الجشع الحريص إلى جمع المال من الحلال والحرام
وتحسم مادة تكالبه على زهرة الدنيا بأحسن من هذا القول :

انظر إلى لاعب الشطرنج يجمعها مغالياً ثم بعد الجمع يرميها

كلهم يكدهم للدنيا ويجمعها حتى إذا مات خلاها وما فيها

وهل تكف شهوة النهم الرغيب ، الحقوq الالتقام ، الفيلى الالتهام

بأفضل من هذا الشعر :

يا آكلا ما اشتهاه وشاتم الطب والطبيب

ثمار ما قد غرست تجنى فانتظر السقم عن قريب

يجتمع الداء كل يوم أغذية السوء كالذنوب

وهل كان الشاب المصرى يؤثر اللصوق بأرضه حتى ليسكره التوظيف

فى غير منسقط رأسه ، وبعد غيرها من بلاد مصر ديار غربة ، فضلا عن

الهجرة إلى أكناف الأرض الواسعة كالإنجليز واليونان أو أشقائه اللبنانيين

لو أنه غذى من صغره بمثل قول ابن منير الطرابلسى :

وإذا الكريم رأى الخمول نزله فى منزل فالحزم أن يترحلا

كالبدر لما أن تضامل جدّ فى طلب السكّال فخازه متنقلا

فارق ترق كالسيف سلّ فبان فى متنيه ما أخفى القربا وأخملا

وهكذا يمكننا بتحسين المشبه أو تقييحه أن نحمل النفوس على ما نريد

بتبهيج مشاعرها ، وإلهاب عواطفها ، وبعث وجداناتها فتنتلق إلى الشأو

المرسوم كالسهم المرسل لا يلوى على شئ .

الفصل العشرون

استطراف المشبه

في اللغة : استطرف الشيء عدّه طريفاً ، أو استحدثه :
والمراد هنا : المعنى الثاني : أى إنشاء مشبه يعدُّ طرفه ، لجذته و غرابته
بغية التلذذ به ، لأن لكل جديد لذة في الأعم الأغلب .

وفي هذا المعنى يقول الشاعر :

لكل جديد لذة غير أنى وجدت جديد الموت غير لذيد^(١)

ويصح أن يكون بالظاء من الظرف بفتح فسكون ، والعامة تضمه
وهو خطأ .

ولا مانع من إرادة ذلك المعنى ، لأن من معانى الظرف حسن الوجه
والهيئة^(٢) ، فيكون استطراف المشبه : جعله حسناً جميلاً يتمتع السمع
ويونق النفس .

وبعضهم يجعله من صفات اللسان فهو يتعلق بالمنطق خاصة^(٣) .

ومنه قول الحسن - ض - : إذا كان اللص ظريفاً لا يقطع : أى
إذا وقع دفع عن نفسه بطلاقة لسانه ومنطقه^(٤) .
فكلاً معني الظرف صالح لما نحن بسبيله .

(١) تمثل به الخطيئة عند احتضاره . الشعر والشعراء - ١٨١

(٢) القاموس المحيط . (٣) المثل السائر - ٧٠ (٤) تزيين الأسواق - ٣٥

وسائل الاستطراف :

ومرد الاستطراف في التشبيه إلى شئين :

١ — إبرازه في صورة الممتع في العادة وإن لم يكن مُمتنعاً عقلاً ،
كتشبيهم البحر الموقد في الفحم يبحر من المسك موجه الذهب ، نقلاً له عن
صحة الوقوع إلى امتناعه ^(١) .

فالناس في واقع حياتهم الطويلة الممتدة لم يروا ولن يروا مثل هذا البحر
العجيب الغريب الذي لا يتحقق إلا في سبجات الخيال وأضغاث الأحلام !
وكذلك قول السري الرفاء يصف الشمعة :

كأنها نخلة بلا سعف تحمل أترجةً من النار

فمثل هذه النخلة بهذا الوصف الطريف لا تبرزه العادة يوماً ما .
وهذا الاستطراف — لما كان فيه وجه الشبه هيئةً اعتبرت في الممتع
عادة — لم يقتض أن يكون الوجه أظهر وأعرف .

ولكن لما كان المشبه به أخفى — ومعلوم أنه يلزم من خفاءه خفاء
وصفه — كان التشبيه أشد استطرافاً على ما تقرر في جميع الأشياء الغريبة .
فليس وجه الشبه هنا هو منشأ المنع عادة كما كان منشأ الاستغراب في
بيان الإمكان ، بل منشأ المنع ذات المشبه به .

٢ — أن يكون المشبه به نادر الحضور في الذهن .

إما مطلقاً لبعد تصوّره سواء أخطرت المشبه ببالك أم لا .
وذلك كالمثالين المتقدمين ، فإنه من المستصعب أن تتمثل في خيالك
صورة بحر من المسك موجه الذهب حين تنظر فخاً فيه جمر موقد .

فإذا أحضرت هذه الصورة استطرفت استطراف النوارد عند مشاهدتها
واستلذت استلذاذ الفلوات لجلدتها .

وإما أن تكون نُدرة الحضور ليست في كل الأحوال ، بل عند حضور المشبه في إبان الحديث عنه ، بأن يكون المشبه به مشاهداً معتاداً ، لكن موطنه غير موطن المشبه لأن كلا منهما من واد غير وادى الآخر ، فيبعد حضور أحدهما في الذهن عند حضور الآخر لبعد نسبته إليه ، كقول ابن الرومي المشهور^(١) :

ولا زوردية تزهو بزرقها بين الرياض على حمر اليواقيت
كأنها فوق قامات ضعفن بها أوائل النار في أطراف كبريت
شبه نوار البنفسج بأوائل النار عند أخذها بأطراف الكبريت في الهيئة
الحاصلة — من تعلق أجرام صغيرة لطيفة على شكل مخصوص ولون الزرقة —
بحرم صغير .

وصورة أوائل النار بأطراف الكبريت لا تندرج في الذهن ، إنما يندر حضورها عند حضور صورة البنفسج ، فإذا حضرت مع صحة التشبيه حدث الاستطراف .

ومثله قول النيرى :

بنفسج بذكي المسك مخصوص ما في زمانك إن وافاك تنغيص
كأنما شعل الكبريت منظره أو خد أعيد بالتخميش مقروص
ولا يخفى أن صورة اتصال النار بأطراف الكبريت ، لا يندر حضورها في الذهن ندرة بحر من المسك موجه الذهب ، لكن يندر حضورها عند حضور صورة البنفسج ، فإذا أحضر المشبه به استطرف لمشاهدة عناق بين صورتين متباعدتين كل التباعد .

(١) هكذا في معاهد التنصيص ، وفي المطول نسب إلى أبي الغتاهية ، وفي نهاية الأرب نسب إلى أبي القاسم بن هذيل الأندلسي وابن المعتز .

وهذا يذكرنا بما حدث لجريير مع ابن الرقاع العاملي ، فقد استمع إليه وهو يشد الوليد بن عبد الملك قصيدته التي أولها :

عرف الديار توها فاعتادها

قال جرير فحسده على أبيات منها ، حتى أنشد في صفة الظبية :

تُزجى أغنَّ كأن إبرقة رَوْقه

فقلت في نفسي : وقع والله ! ما يقدر أن يقول أو يشبه به .

فلما قال :

قلم أصاب من الدواة مدادها .

لم أقدر حسداً أن أقيم حتى انصرفت ^(١) :

وفي هذا الدليل الواضح على منزلة هذا التشبيه من الطرافة وندرة

خطوره بكل بال .

وحسبنا أن جريرا — على علو كعبه في الشعر وقوة طبعه — لم يستطع أن

يلمح الجامع بين طرفيه ، لدقة المسلك وبعد المأق ، فلما وقف عليه استحالت

رحمته للشاعر حسداً له لشعوره بالعجز عنه .

وذهب عبد القاهر مذهباً طريفاً في بيان سر الاستطراف في بيتي

« البنفسج والكبريت » فبناه على القاعدة النفسية « ظهور الشيء من معدنه

لا يستغرب » .

وقد ظهر الشيء هنا من غير معدنه فعد غريباً .

يقول : ولذلك نجد تشبيه البنفسج في قوله

ولازوردية ..

أغرب وأعجب وأحق بالولوع وأجدر من تشبيه الزجس بمداهن در

حشوهن عقيق^(١) لأنه إذ ذاك مشبه لنبات غصّ يرف ، وأوراق
رطبة ترى الماء فيها يشف ، بلهب نار مستول عليه اليبس ، وباد فيه الكلف .
ومبنى الطبايع وموضوع الجبلّة على أن الشيء إذا ظهر من مكان لم يعهد
ظهوره منه ، وخرج من موضع ليس بمعدن له ، كانت صباية النفس به أكثر
وكان بالشغف أجدر .

ولو أنه شبه البنفسج ببعض النبات ، أو صادف له شبيهاً في شيء من
المتلونات ، لم نجد له هذه الغرابة ولم ينل من الحسن هذا الخط^(٢) .

ويرى العسكري : أن هذا الشعر في الحُرْم لا في البنفسج ؛ لأن قوله :
« فوق قامات ضعفن بها » يدل على أنه أراد الحرْم ؛ لأن ساق البنفسجة
لا يضعف عن حمل وردتها ، وهذا الوصف بالحرْم أشبه منه بالبنفسج ،
لكبر نوره ودقة ساقه فاعرف ذلك^(٣) .

وما يزيد في قيمة الاستطراف : أن يكون المشبه شيئاً حقيراً تافهاً أبرز
في صورة شيء نفيس ثمين .

كقول السري الرفاء يصف النار :

خفقت راية الصباح وللنا ر لhib كالراية الصفراء
واستقرت تحت الرماد خفيلت ذهباً تحت فضة بيضاء
وقول ابن المعتز فيها :

كأن الشرار على نارنا وقد راق منظرها كل عين
سُحالة تبر إذا ما علّا فإما هوى فُقتات اللجين^(٤)

(١) يشير إلى قول ابن المعتز :

وعجنا إلى الروض الذي طله الندي

كأن عيون النرجس القض حوانا

(٢) أسرار البلاغة — ١٠٣ .

(٣) ديوان المعاني — ٢ - ٢٤

(٤) السحالة بالضم : ما يسقط من الذهب والفضة عند بردهما .

وقد أخذه العسكرى فقال :

أوقدت بعد الهدوء نارا لها على الطارقين عين
شرارها إن علا نضار لكنه إن هوى لجين
وقول ابن المعتز أيضا يصف الأترجة :

يا حبذا أترجة تحدث في النفس الطرب
كأنها كافورة لها غشاء من ذهب

وقول السلامي في دجلة :

وقد صار ياقوتاً حصاها وعنبرا ثراها وأمسى الماء وهو رحيق

ويتبين لنا مما تقدم من أقوالهم أن الطرافة في التشبيهات تستوجب الحسن دائماً وأبداً ، كأن كل معنى مستحدث لا بد أن يكون جيداً .

وهذا يخالف مذهب قدامة الذي لا نمارى في صحته واتفاقه مع الواقع ، حينما نطبقه على ما بين أيدينا من الآثار الأدبية .

فقدامة يقرر أن الغرابة والطرافة أن يكون المعنى مما لم يسبق إليه ، أو

يكون فرداً قليلاً ، فإذا كثر لم يسم بذلك .

ثم يعود فيقرر : أن الغريب والطريف غير الحسن والجيد ، لأنه قد يجوز أن يكون الشيء حسناً جيداً وهو غير غريب ولا طريف ، مثل تشبيههم الدروع بحباب الماء الذي تسوقه الرياح ، فقد تعاوره الشعراء قديماً وحديثاً ، فهو جيد وليس بجديد .

وذلك كقول عمرو بن كلثوم التغلبي^(١) :

علينا كل سابعة دلاص ترى فوق النطاق لها غضونا^(٢)
كأن غصونهن متون غدر تصفّقها الرياح إذا جرينا

(٢) الدلاص : المساء اللينة .

(١) التمثيل بالشعر للمؤلف .

وقول البحترى يصف بركة المتوكل :

إذا علتها الصبا أبدت لها حُبكا مثل الجواشن مصقولا حواشيها
وقول ابن حمديس :

نثر الريح على الماء زرد أى درع لقتال لو جمّد
وقول ابن العطار :

مررنا بشاطئ النهر بين حدائق بها حدق الأزهار تستوقف الحدق
وقد نسجت كف النسيم مُفاضة عليه وما غير الحَبَاب لها حلق^(١)
وقول الطغرأتى :

وقد كسته الريح من نسجها درعا به يلقي نبال المطر
وقد يكون طريفا وغريبا لم يسبق إليه وهو قبيح بارد ، فلهذا الدنيا
أشعار قوم من المحدثين سبقوا إلى البرد فيها .^(٢)
والإصابة واضحة في هذا الكلام ، إذ لو صح ما قالوه لكان قول بعضهم
في عيون نساء « المنصورة » من عيون الشعر :

عيون كلها فتن وأصداء من الفتن
أحن لسُمره فيها كسُمره مائها الفنى

فإن سُمرة العين وسُمرة مائها وفنيتها ما لم يسبق به القائل^(٣) على حد تعبير
زميلنا الأستاذ « عبد الوهاب حمودة » .

ولسان ابن سكرة الهاشمى وأبو الرقعمق من شعراء « الصفع » أعلى
كعبا من أبى تمام والبحترى والمتنبى ، فليس لهؤلاء ما لهما من المعانى الأبتكار
فى ألوان الهذر والمجون !

بل لو جب أن يكون ابن حجاج أشعر الشعراء جميعاً غير مدافع ولا

(١) المفاضة : الدرع الواسعة . (٢) قد الشعر — ٨٨

(٣) التجديد فى الأدب المصرى الحديث — ٥٦

منازع ، فقد كان - كما يقول الثعالبي - : فرد زمانه في فنه الذي شهر به ، وأنه لم يسبق إلى طريقته ولم يلحق شأوه في نمطه ، ولم ير كإتقانه على ما يريده من المعاني التي تقع في طرزه ، وإن كانت مفصحة عن السخافة .

ويكفي أن يقول ابن نباتة منوها بابتكاره في خطبة كتابه المسمى « تلطيف المزاج في شعر ابن حجاج » : إني رأيت نتائج أفكار الشعراء ذرية بعضها من بعض ، وأما أشعارهم تبعث جميعا في صعيد واحد من الأرض ، إلا أشعار الأريب الفريد أبي عبد الله بن الحسين بن حجاج ، فإنها أمة غريبة تبعث وحدها ، وذرية عجيبة تبلغ ياتقان اللهو واللعب رشدها ، لم يحط خاطر أحد بمثلها خبرا ، ولا استطاع على معارضة شهداء صبرا ^(١) .

أُمثال من التشبيهات الطريفة الغريبة .

ونختتم هذا الفصل بقنون من التشبيهات الغريبة الطريفة استزادة للفائدة فمن ذلك قول المتنبي :

سقانا وحيانا بك الله إنما على العيس نور والحدور كإثمه
فقد جاء بأملح شيء وأوفاه من الطرافة والغرابة ^(٢) .
وقول السري الرفاء :

وحلل من أزواره النبت فاغتمدى كلفظ جليب هم أن يتفصحا
وقوله في انبثاق الصباح :

كراهب جن للهوى طربا فشق جلبابه من الطرب
وقول الخالدي في وصف النجوم :

كأنما أنجم السماء لمن يرُمُّها والظلام منطبق
مال بخيل يظل يجمعه من كل وجه فليس يفترق

وقول ابن مكنسة في الإبريق والقدح :

إبريقنا عاكف على قدح كأنه الأم ترضع الولدا
أو عابد من بنى المجوس إذا توهم الكأس شعلة سجدا

وقول ابن شرف في النمام :

وناصب نحو أفواه الورى أذنا كالقعب يلقط فيها كل ما سقطا

يظل يلتقط الأخبار مجتهداً حتى إذا ما وعاما زقاً ما لقطا

وقول ابن لسلك يهجو أبا الهندام كلاب بن حمزة الشاعر — وقد شبهه
بدار البطيخ — :

أنت ابن كل البرايا لكن اقتصروا على ابن حمزة وصفا غير تسميخ
« كدار بطيخ » تحوى كل فاكهة وما اسمها الدهر إلا دار بطيخ
والمعنى جيد ولكن القافية ثقيلة ، لأنها بنيت على الخاء وهى ليست من
الحروف الشعرية .

ودار البطيخ تباع فيها جميع الفواكه والرياحين وتنسب إلى البطيخ وحده
وقد سمي عبد الله بن طاهر قصيدة ابن الرومى التى أولها :

أجنت لك الوجد أغصان وكشبان فيهن نوعان تفاح ورماني
« دار البطيخ » وهى كذلك لما فيها من ذكر الفواكه والرياحين (١).

وقول أسعد بن بليظة فى الأفايح :

أحجب بنور الأفايح نوراً عسجده فى لجينه حارا

أى عيون صُورن من ذهب رُكب فيها اللجين أشفارا

إذا رأى الناظرون بهجتها قالوا نجوم تحف أقمارا

كأن ما اصفر من موسطه عليل قوم أتوه زوارا

كَانَ مَيِّضُهُ صَقَالِبَةً صَارُوا بِجَوْسَاءَ فَاسْتَقْبَلُوا النَّارَ
كَأَنَّهُ ثَغْرٌ مِنْ هَوَيْتٍ وَقَدْ أَلْقَيْتَ فِيهِ بَنِي دِينَارِ
وَقَوْلُ شَاعِرٍ فِي لَوْزَةِ بَقْلَيْنِ :

وَمَهْدٌ إِلَيْنَا لَوْزَةٌ قَدْ تَضَمَّنَتْ لِمَبْصَرِهَا قَلْبَيْنِ فِيهَا تَلَاصِقَا
كَأَنَّهُمَا حَبَابٌ فَازَا بِخُلُوةٍ عَلَى رِقْبَةٍ فِي مَجْلَسٍ فَتَعَانَقَا
وَقَوْلُ أَبِي هَلَالٍ الْعِسْكَرِيِّ فِي الْخَوْخِ :

وَخَوْخَةٌ مَلَأَتْ يَدَ الْجَانِيَةِ تَمْلِكُ لِحْظَ الْأَعْيُنِ الرَّانِيَةِ
مَصْفَرَةٌ الْوَجْنَةَ حُمْرَةً كَأَنَّمَا عَاشِقَةٌ سَالِيَةِ
وَقَوْلُ كَشَاجِمٍ فِي الْعَنْبِ الْأَسْوَدِ :

رَحْنًا إِلَى حَدِيقَةٍ بِكُلِّ حَسَنِ مُحَدِّقَةٍ
كَأَنَّمَا عَنُقُودُهَا زَنْجٌ جَنُودًا فِي سَرْقَةٍ
فَأَصْبَحَتْ رَوْسُهُمْ عَلَى الذَّرَا مَعْلَقَةً

وَقَوْلُ ابْنِ مَنَقْدٍ فِي التِّينِ :

أَمَا تَرَى التِّينَ فِي الْغُصُونِ بَدَا مَزَّقَ الْجِلْدَ مَائِلَ الْعُنُقِ
كَأَنَّهُ رَبُّ نَعْمَةٍ سُلِبَتْ أَصْبَحَ بَعْدَ الْجَدِيدِ فِي خَلْقِ
أَوْ كَأَنَّهُ شَرَّةٌ أُغِيطَ وَقَدْ مَزَّقَ جَلْبَابَهُ مِنَ الْخُنُقِ

وَقَوْلُ ابْنِ سَعِيدٍ الْأَصْفَهَانِيِّ فِي طَاقَةِ آسٍ (١) :

وَمَشْمُومَةٌ مَخْضَرَةُ اللَّوْنِ غَضَّةٌ حَوَتْ مَنَظَرَ الْبَاقِلِينَ أُنِيقَا
إِذَا شَمَّهَا الْمَعْشُوقُ خَلَّتْ أَخْضَارُهَا وَوَجْنَتَهُ فَيُوزَجَا وَعَقِيقَا
وَقَوْلُ ابْنِ وَكَيْعٍ فِيهِ أَيْضًا :

خَلِيلِي مَا لِلْآسِ يَعْجَقُ نَشْرَهُ إِذَا هَبَّ أَنْفَاسُ الرِّيحِ الْمَوَاطِرِ

(١) آس : هو ما تسميه العامة ريحان القبور .

حكى لونه أصداع ريم معذر وصورته آذان خيل نوافر^(١)
وقول العباس الخياط في مغن اسمه نصر :

رأيت نصراً شادياً يضرب فقامت من مجلسنا أهرُب
لأنه ينبج في عوده عليك من أوتاره أكُـب
كأننا نسمع في حلقه دجاجة يخنقها ثعلب
وقول المصيصي في هجاء عواد :

وإذا تربّع - لا تربّع بعدها - وغدا يحرك عوده متقاعسا
فسكان جردان المدينة كلها في عوده يقرضن خبزاً يابسا
وقول بعضهم في وصف الماء الصافي :

وتحدث الماء الزلال مع الحصى فجرى النسيم عليه يسمع ماجرى
فسكان فوق الماء وشيا ظاهراً وكأن تحت الماء درأ مضمراً
وقد قال فيه الحموي : إن تشبيه هذا الدر المضمهر هنا أغلى قيمة من الدر الظاهر
في عقود الأجياد^(٢).

وقول آخر في مدح زامر :

وزامر يبعث في زمره إلى قلوب الناس أفراحا
كأن إسرافيل في نايه ينفخ في الأموات أرواحا
وقول آخر في وصف الرقيب :

ورقيب عدمته من رقيب أسود الوجه والقفا والصفات
هو كالليل في الظلام وعندي هو كالصبح قاطع اللذات
وقول ابن الدهان في الصبا الفاتت :

وعهدي بالصبا زمنا وقدي حكى ألف ابن مقلة في الكتاب

(١) المعذر بتشديد الدال المسكورة : من ثبت شعر عذاره .

(٢) خزانة الأدب - ٢١٨

فصرت الآن منحنيًا كأنى أقفش فى التراب على شباني
وقول ابن منير الدمشقي فى الحبيب المعرض :

وبلى من المعرض الغضبان إذ نقل م الواشى إليه حديثًا كله زور
سلمت فازور يثنى قوس حاجبه كأننى كأس خمر وهو مخمور
وقد سمعهما السلطان عماد الدين زنكى فاستحسنهما واتخذ ابن منير نديمًا له .^(١)
وقول الصاحب فيمن لا يشبه أباه فى أخلاقه :

أبوك أبو على ذو المعالى إذا عد الكرام وأنت نجله
وإن أباك إذا تعزى إليه لكالطاوس تقبج منه رجله
وقول آخر فى معناه :

أبوك أبى والجد لا شك واحد ولكننا عودان آس وخرواع
وقول أبى الصلت الأندلسى فى أهرام مصر :

بعيشك هل أبصرت أحسن منظرًا على طول ما عاينت من هرمى مصر
أنافا بأكتاف السماء وأشرفا على الجو إشراف السماء على النسر^(٢)
وقد وافيا نشزًا من الأرض عاليا كأنهما نهدان قاما على صدر^(٣)
وقول القاشانى فى الدموع :

عيني مذ شطت الديار بكم تحكى سماء والدمع أنجمها
كان فى وجنتى أبالسة تسترق الدمع وهى ترجمها
وقول ابن صارة الأندلسى فى الشهاب :

وكوكب أبصر العفريت مسترقا للسمع فانقض يدنى خلفه لهبه
كفارس حل إعصار عمامته جفرها كلها من خلفه عذبه

(١) ديوان الصباية - ١٣٣

(٢) النسر . أحد كوكبين فى السماء بهذا الاسم .

(٣) النسر : المسكان المرتفع .

وقول ابن خفاجة في أسود يسبح في لجة :

وأسود يسبح في لجة لا تكتم الحصباء غُدرانها
كأنها في شكلها مقلة وذلك الأسود إنسانها

وقول ظافر الحداد في كرسى النسخ :

انظر بعينك في بديع صنائعي وعجيب تركبي وحكمة صانعي
فكأنني كفا محب شبكت يوم الفراق أصابعا بأصابع

وقول الشنتريني في الوراق :

أما الوراق فهي أنكد حرفة أوراقها وثمارها الحرمان
شبهت صاحبها بصاحب إبرة تكسو العراة وجسمها عريان

وقوله في ذم صديق :

وصاحب لي كداء البطن صحبته يودني كوداد الذئب للراعي
يُثنى على - جزاه الله صالحة - ثناء هند على روح بن زنباع
يريد بهند : هند بنت النعمان بن بشير الأنصاري ، وروح بن زنباع
زوجها ، وكانت تكرهه وفيه تقول :

وهل هند إلا مهرة عربية سلية أفراس تجللها بغل
فإن تُتجت مهر أكرما فبالحرى وإن يك إقراق فما أنجب الفحل

ويروى : فمن قبل الفحل ، وهو إقواء^(١) .

وفي بعض الروايات : « تجللها نغل ، بالنون ، والنغل : الخسيس من
الناس والدواب ، وأصله نغل ككتف وسكن للضرورة .
وهذه الرواية خير من الأولى لأن البغل لا ينسل .

(١) وفيات الأعيان - ١ - ٤٧٣

وقول صاحب في هواء جرجان :

نحن والله من هوائك يا جرجا ن في حيرة وأمر شديد
حرها ينضج الجلود فإن هبت م شمال تكدرت بركود
كحبيب مواسل كلما هم م بوصل أحاله لصدود
وقول ابن طباطبا في التشبيه بالماء — وهو من محاسن التشبيه — :

يا قمرأ ثوبه ورامقه منه حذار البلى على حذر
يا من حكى الماء فرط رفته وقلبه في قساوة الحجر
يا ليت حظي كحظ ثوبك من جسمك يا واحد من البشر
لا تعجبوا من بلى غلاته قد زر كتانه على القمر
ويروى أزراره^(١) بدل كتانه .

وقد ذكروا في «زر أزراره» : أنه استعارة لاتشبيه وإن كان ذكر الطرفين بطريق الحمل أو غيره ينافيها على التحقيق ، لكن شرطه أن يكون على وجه ينفي عن التشبيه وهناليس كذلك .

ومنه أخذه ناصر الدولة أبو المطاع فقال :

تري الثياب من السكتان يلمحها نور من البدر أحيانا فيليها
فكيف تنكر أن تبلى معاجرها والبدر في كل يوم طالع فيها^(٢)
وكذلك أخذه الشريف الرضي فقال :

كيف لا تبلى غلاته وهو بدر وهي كتان
ومن أغرب ما عرف في التشبيه وصف لون الهواء لأبي القاسم أسعد
بن علي الكاتب المترسل في قوله :

كان شكل الهلال قرط أو عطفة النون أو قلامه

(٢) المعاجز : ثياب تغطي بها المرأة رأسها .

(١) طراز المجالس — ٩

كان لون الهواء ماء أو سندس رقّ أو غمامه

وقد ذكر الغزولي : أنه لم ير أحداً وصف الريح غيره .^(١)

ومن طرائف هذا النوع ما حكاه ابن شهيد^(٢) ، قال : تناول بعض أصحابنا نرجسة فركبها في وردة ثم دفعها إلى وإلى صاعد اللغوى ، وقال :
قولا قولاً .

فأبهمت دوننا أبواب القول .

ثم دخل الزبير — وكان أمياً لا يذكر من الكلام إلا ما علق بنفسه
في المجالس — فأشعر بأمرنا فجعل يقول دون روية :

ما للأديبين قد أعتيها مليحة من ملح الجنه

نرجسة في وردة ركبت كمقلة تطرف في وجهه^(٣)

ويجب أن يلاحظ : أنه إذا كان الغرض من التشبيه نفس المحاكاة بين
الشيئين ، فلا يكفي فيه مجرد الادعاء ، بل يجب لحصول هذا الغرض أن يتحقق
وجه الشبه في الطرفين بحسب الواقع ؛ كقول مجير الدين بن تميم :

كأنما النار في تلبها والفحم من فوقها يغطيها

زنجية شبكت أناملها من فوق نارنجة لتخفيها

(١) مطالع البدور في منازل السرور — ١ — ٤٤ هـ

(٢) نفع الطيب — ٢ — ٣٢٨ (٣) تطرف : تنظر .

الفصل الحادي والعشرون

التشبيه المقلوب

ذكرنا فيما سبق أن الغرض من التشبيه يعود إلى المشبه إلا في حال قلب التشبيه فإنه يعود إلى المشبه به .

كما قدمنا أن التشبيه الجارى على السنن المألوف لا يخلو من المبالغة .

ونحب أن نقول هنا : إن المتفهمين في طرق الأداء من أرباب الصناعة اللبانية لم يقفوا عند التشبيه العادى ؛ لأنهم يرون أن هذه المبالغة المعتدلة أقل من أن تشبع رغبتهم فيما يتوخونه من أغراض الكلام في الغزل والمدح والثناء وما إليها ، فكان أن سلكوا لذلك طريق القلب في التشبيه توصلا لهذه الغاية المنشودة .

على أنه من الحق أن نصرح أن التشبيه من حيث هو لم يُرض نزعة بعض الشعراء المحيين للإغراق .

١ - فبعضهم ازدرى التشبيه أصالة ؛ كقول المتنبي يفخر بنفسه :

أمط عنك تشبيهى بما وكأنه فما أحد فوقى ولا أحد مثلى
وقوله يمدح عمر بن سليمان الشراى :

يجل عن التشبيه لا الكف لجة ولا هو ضرغام ولا الرأى مخذم^(١)
أنقصه من حظه وهوزائد ونبخسه ولبخس شيء محرم

وقول المهلهل بن يموت بن المنزرع :

جلت محاسنه عن كل تشبيه وجل عن واصف في الناس مبطريه

(١) المخذم : السيف الفاظم .

الترجس الغض والورد الجنى له والافحوان الندى النضر في فيه
انظر إلى حسنه واستغن عن صفتي سبحان خالقه سبحان باريه
دعا بالحاظه قلبي إلى عطى فجاءه مسرعا طوعا يليه
مثل الفراشة إذ تأتي ترى لهباً إلى السراج فتلقى نفسها فيه
والشاهد في البيت الأول .

وقول بعض الجوارى العاشقات (١) :

يا من شكا ألماً للحب شبهه بالنار في القلب من حزن وتذكر
إني لأعظم ما بي أن أشبهه شيئاً يقاس إلى مثل ومقدار
لو أن قلبي في نار لأحرقها لأن أحزانه أذكى من النار
٢ - أو طلب التشبيه فعزّ وصوله إليه ؛ كقول البحرى :

قد طلبنا فلم نجد لك في السؤدد والمجد والمكارم مثلاً
وقول المتنبي يصف قرية « كفر ديس » :

خضراء حمراء الترا ب كأنها في خد أعيد
أحببت تشبيهاً لها فوجدته ما ليس يوجد
وقوله :

فكن كما شئت يا من لا شبه له وكيف شئت فما خلق يدانك
وقول الأمير تميم بن المعز الفاطمي :
وساق يملأ العينين حسنا رخم دله يصبو ويصبي
شقائق خده للحظ تسبي ولحظ جفونه بالسحر يسبي
تبارك من براه بلا شبه وسلطه على قتل الحب
٣ - أو وجد السبيل إلى التشبيه ولكن عفا عنه ارتفاعا بقدر المشبه
عما يشبه به في العادة ؛ كقول قيس لبي :

إذا عبتَها شَبَّهَها البدر طالِعاً وحسبُك من عيب لها شَبَّهَ البدر
لقد فُضِّلَتْ لَبْنِي على الناس مثلاً على ألف شهر فُضِّلَتْ ليلة القدر
وقول المتنبي يمدح الأمير الحسن بن طنج وآله :

ولولا احتقار الأسد شَبَّهَهم بها ولكنها معدودة في البهائم
ويروى : شَبَّهَها بهم فيكون مقلوباً .
والرواية الأولى أظهر (١) .

وقوله في مدح عبد الرحمن بن المبارك الأنطاكي :
أكبر العيب عنده البخل والظعن م عليـــــــــــــــــه التشبيه بالرتبال
وقوله في مدح الأمير فاتك المصري الملقب بالمجنون :

لا يدرك المجد إلا سيد فطن لما يُشَقُّ على السادات فعال
كفاتك ودخول الكاف منقصة كالشمس قلت وهل للشمس أمثال
وقوله في الغزل :

هام الفؤاد بأعرابية سكنت بيتاً من القلب لم تمدد له طُناً
مظلومة القد في تشبيهه غُصْناً مظلومة الريق في تشبيهه ضرباً (٢)
وقول أبي عبد الرحمن العطوي :

قد رأينا الغزال والغصن والنجمين م شمس الضحا وبدر التمام
فوحق البيان يعضده البرهان م في ما قُطِّع ألد الخصام (٣)
ما رأينا سوى المليحة شيئاً جمع الحسن كله في نظام
وقول ابن الصلت الأندلسي :

غزاة أخملت سَمِيَّتَها فلم تُشَبَّهَ بها وحاشاها

(١) وفيات الأعيان في ترجمة الإخشيد - ٢ - ٥٦ .
(٢) الضرب بالفتح : الشهد . (٣) المأقظ : للأزق .

هيبها لها حسننها وبهجتها فهل لها جيدها وعينها
وقول البهاء زهير :

يا بدر إن رمت به تشبها رمت شطط
ودعه يا غصن النقا ما أنت من ذاك النمط
وقول أبي الفرج المحمدي يمدح ابن قلاص — وكان المادح قد انكسرت
به سفينة في البحر الأحمر فكاد يغرق — :

والثم بنان يمينه وقل السلام عليك بحرا
وغلظت في تشبيهه بالبحر فاللهم غفرا
أو ليس نلت بذا غنى جمّا ونلت بذاك فقرا
وعهدت هذا لم يزل مدأ وذاك يعود جزرا
وقول شاعر :

وغزال كل من شبهه بغزال أو بيدر ظلمه
قال إذ قبلت وهما فمه قد تعدّيت وأسرفت فمه (١)
وقول آخر :

ما أنت مادحها يامن تشبهاها بالشمس والبدر لا بل أنت هاجبها
من أين للشمس خال فوق وجتها أو أين للشمس طعم الشهد في فيها
وقول شاعر عسري في الأميرة « سميحة حسين » — وقد تبرعت بجملة
من حلبيها النفيس « لجمعية الهلال الأحمر » — :

لقد شبهوك بنيل البلاد وأين السحاب من الأبحر
تباريتما فسحا بالمياه وبالدر — جدت — وبالجوهر
ومن النثر البليغ قول ابن العميد يصف رسالة لأبي محمد خلاد الراهمري
القاضي :

(١) مه : اسم فعل بمعنى انكف.

وتأملت النظم فلكنى العجب به ، وبهرنى التعجب منه ، وقد رمت أن
أجرى على العادة فى تشبيهه بمستحسن من زهر جنى وحلل وحلى ، وشذور
الفرائد فى نحور القلائد :

والعذارى غدون فى الحلل البيض م وقد رحن فى الخطوط السود
فلم أره لشيء عدلا ، ولا أرضى ما عدده له مثلا ، والله يزيدك من
فضله ، ولا يخليك من إحسانه .

وقد يجرى الشاعر الأنفة من التشبيه على لسان المحبوب إدلالا بجماله
وازدهاء بحسنه ، كقول العباس بن الأحنف :

قالت ظلوم وما جارت وما ظلمت إن الذى قاسنى بالبدر قد ظلما
البدر ليس له عين مكحلة ولا محاسن لحظ يبعث السقا
وقول على بن المنجم :

شبهتها بالبدر فاستضحكت وقابلت قولى بالنكر
وسفحت رأى وقالت متى سُمجت حتى صرت كالبدر
البدر لا يرنو بعين كما أرنو ولا يبسم عن نعر
ولا يُميط المرط عن ناهد ولا يشدُّ العقد فى نحر
من قاس بالبدر صفاتى فلا زال أسيرا فى يدى هجرى
وقول ابن الزيات فى جارية يهاها اسمها عذر ،

يا عذر زينِّ باسمك العذر وأسا ولم يحسن بك الدهر
وهى التى قالت وقد جعلت ينسلُّ من وجناتها الجمر
أكمد بدائك هل رأيت كذا بدرأ يلوح بخده البدر
وقول بعض الأندلسيين .

رأتنى وقد شبهت بالورد خدما فتاهت وقالت قاس خدى بالورد

كما قال إن الأحقوان كبسمي
إذا كان هذا في البساتين عنده
وأن قضيب البان يشبه قدي
فقولوا له لم جاء يطلبه عندي
ولابن مطروح :

من لي بغصن بالحافظ بمنطق — حلو الشمائل واللبى والمنطق
مثرى الروادف مملق من خصره — أسمعت في الدنيا بمثر مملق
وأقول يا أخت الغزال ملاحه — فمقول لا عاش الغزال ولا بقى
ومن الطريف أنه جرت في البيت الأخير منازعة بين ابن مطروح
وابن شمس الخلافة ، فقد ادعاه كل منهما لنفسه وعمل محضراً شهد له فيه
جماعة بأن البيت له وأنه في ديوانه :

قال ابن خلكان : وقد حلف لي ابن مطروح أن البيت له ، وكان محترزاً
في أقواله ولم تعرف منه الدعوى بما ليس له ، والله المطلع على السرائر^(١) .
وقول أبي القاسم بن هشام الأندلسي مرتجلاً في حسناء عضت وردة ثم
رمت بها إليه^(٢) .

ومعجز الأوصاف والوصاف في بردى جمال طرّاً بالتيه
سوسان أنمله تناول وردة فغدا يمزقها أقاحى فيه
فكأننى شبت وجنته بها فرمى بها غضبا على التشبيه
وقد ينطق الشاعر بذلك الأعضاء المشبهة من المحبوب ، أو الأشياء التي
جرت العادة أن تجعل مشبها لها زيادة في تقرير الوصف الذي يريد ، كقول
ابن نباتة :

سألت النقا والبان أن يحكما لنا
فقال كثيب الرمل ما أنا حملها
روادف أو أعطاف من زاد صدها
وقال قضيب البان ما أنا قدما

وقول شرف الدين الأصيلي المصري :

تقول أعطافها لما نشبهها بالريح من قال إن الريح حاكف
عطفای حلوان مما أينعا ثمرأ فكيف تحكيهما أعطاف مُران
وقول بعضهم :

وزائرة يحتثها الشوق طارقه أتتنا من الفردوس لا شك آبقه
إذا ما تثنت قال للريح قدھا كذا حرکی الأغصان إن كنت صادقه
ومن هذا اللون قول ابن سناء الملك :

ولو أبصر النظام جوهر ثغرها لما شك فيه أنه الجوهر الفرد
ومن قال إن الخيزرانة قدھا فقولوا له إياك أن يسمع القد
من هذه الأمثلة الكثيرة التي أوردناها قصد الإيضاح والإفادة يتبين لنا
كيف لم يرض الشعراء عن التشبيه مع افتنانهم في تلويحه بمختلف الأصباغ .
بل إن التشبيه المقلوب نفسه — مع ما يحويه من مبالغة واضحة — لم
يجدوا فيه مقنعا .

فجنون ليلي يقول :

✓ أخذت محاسن كل ما ضنّت محاسنه بحسنه
كاد الغزال يكونها لولا الشوى ونشوزقرنه^(١)
فالغزال يقرب منها شيها لو لم تسكن فيه هذه العيوب الطبيعية .
ويقول ابن المعتز :

✓ لى مولى لا أسميه كل شيء حسن فيه
تصف الأغصان قامته بشئ كثنيه
ويكاد البدر يشبهه وتكاد الشمس تحكيه
كيف لا يخضرّ شاربه ومياد الحسن تسقيه^(٢)

(١) الشوى : الأطراف .

(٢) هذا البيت أحسن ما قيل في « ماء الحسن » طراز المجالس — ٧

فهو يصرح بأن البدر لا يشبهه بل يكاد فقط !

وأبلغ منه قول البديع الهمداني :

وكاد يحكيك صوب الغيث منسجماً لو كان طلق الحيا يطر الذهبا

والدهر لو لم يخن والشمس لو نطقت والليث لو لم يصد والبحر لو عذبا

فهو يشترط لقرب هذه المحاكاة هذه الشروط المستحيلة التحقق !

وابن سناء الملك يقطع بعدم المحاكاة في قوله :

لا الغصن يحكيه ولا الجؤذر حسنك - بما كثروا - أكثر

يا باسمأ أبدى لنا ثغره عقداً ولكن كله جوهر

وآخر يقول بالمحاكاة ، ولكنه يتهكم بأنها محاكاة ناقصة فقدت

أهم عناصرها :

إن تاه ثغر الأقاخي في تشبهه بشجر حبك واستعلي به الطرب

فقل له عندما يحكيه مبتسماً لقد حكيت ولكن فأتك الشنب (١)

فهذه التشبيهات المقلوبة المجردة - كما ترى - لم تحقق بغية الشعراء في المبالغة

فضموا إليها أشياء تزيدها مبالغة على مبالغتها وتخرج بها أحياناً إلى حد

الغلو والإغراق .

ولعل لهم عذراً في أن هذه المبالغة لا يعتد بها عند التأمل والرجوع

إلى الحقيقة ، فليس الأسد في الواقع أشجع من الرجل الشجاع وإن كان نصيبه

أوفر من القوة البهيمية العمياء .

وقد قيل : إن امرأة عمران بن حطان قالت له : أما زعمت أنك لم تكذب

في شعر قط ؟

قال : أوفعلت ؟

(١) الشنب محرّكة : ماء ورقة وبرد وعذوبة في الأسنان أو حدة في الأنياب .

قالت : أنت القائل :

فهنالك مجزأة بن ثور ر كان أشجع من أسامة

أفيكون الرجل أشجع من الأسد ؟

قال : أنا رأيت مجزأة فتح مدينة ، والأسد لا يفتح مدينة^(١).

والغزال موصوف بحسن الجيد ، والمهاة معروفة بحلاوة العين ، فضى الشعراء على أن يشبهوا بهما النساء الحسان في الجيد والكحل حتى قال عمر بن أمي ربيعة :

منعمة أهدى لها الجيد شادن وأهدت لها العين القتل بغوم
وقال يزيد بن أم الحكم :

كان أحور من غزلان ذى بقر أهدى لعائشة العينين والجيدا

والحق أنها سنة مرن عليها الشعراء تقليداً من الخالف للسالف ، وإلا فآين يقع جيد الغزال من جيد الحسناء الأتلع الناصع ! وآين تقع عين البقرة الوحشية من عين الجميلة الديجاء النجلء المكحولة بالسحر !

ولهذا يقول المبرد^(٢) : وقد وقع على ألسن الناس من التشبيه المستحسن عندهم — وعن أصل أخذه — : أن شبهوا عين المرأة والرجل بعين الظبي أو البقرة الوحشية ... فهذا كلام جار على الألسنة .

ويقول : وعين الإنسان مشبهة بعين الظبي والبقرة في كلامهم المشور وشعرهم المنظوم من جارى ما تكلمت به العرب وكثر في أشعارها .
قال مجنون ليلي :

فعينك عيناها وجيدك جيدها ولكن عظم الساق منك دقيق

(٢) المصدر نفسه — ٣٨

(١) الكامل للمبرد وشرح المصنف — ٧ — ٣٣

وقال آخر :

فعيناك عيناها وجيدك جيدها ولونك لولا حشمة في القوائم^(١)

وقال هدية بن الحشرم :

فلم تر عيني مثل سرب رأيتـه خرجن علينا من زقاق بن واقف

طلعن بأعناق الظباء وأعين م الجاذر وارتجت لهن الروادف^(٢)

وقد فطن بعض الأعراب إلى هذه الهجنة في مثل هذا التشبيه فقال :

لقد وهبتني للمنايا غريرة قريبة عهد بالصبا والتمائم

أجعلها كالرئم حاشا لمثلها وللرخص من أطرافها والمعاصم

خلوت بها ليلا وثالثنا التقى ولست على هذا العفاف بنادم

وقال الواسطي في هذا المعنى :

أين غزلان عالج والمصلّى من ظباء سكن نهر المعلى

ألتلك الكشبان أغصان بان وبدور من أفقها تتجلى

أم لتلك الغزلان حسن وجوه لو ترامت للحرز أصبح سهلا

ويذكرون : أن ذا الرمة أردف أخاه فعرضت له ظبية ، فقال :

أيا ظبية الوعساء بين جلاجل وبين النقا آ أنت أم أم سالم^(٣)

فقال أخوه :

فلو تحسن التشبيه والوصف لم تقل لشاة النقا آ أنت أم أم سالم

جعلت لها قرنين فوق جبينها وظلفين مشقوقين تحت القوائم

(١) الحمشة : دقة الساقين . (٢) في البيت إقواء .

(٣) جلاجل بضم الجيم : اسم بعينه ، ويروى حلال بالحاء . وأراد المبالغة في شدة الشبه بين الظبية والمرأة حتى التبستا عليه فسأل سؤال شاك . شرح ابن يعيش على المفصل للزمخشري ج ٩ ص ١١٩

فقال ذو الرمة :

هي الشبه إلا مديها وأذنها سواء وإلا مَشَقَّة بالقوَّائم^(١)
ومما يتصل بما نحن فيه : ما ذكره ابن خلكان ، من أنه حضر يوماً حلقة
ابن الصائغ النحوي ، وبعض الفقهاء يقرأ عليه « اللع » لابن جني ، فقرأ
بيت ذي الرمة المتقدم في باب النداء .

فقال ابن الصائغ : إن هذا الشاعر لشدة وله في المحبة ، وعظم وجده
بهذه المحبوبة « أم سالم » وكثرة مشابقتها للغزال كما جرت عادة الشعراء في
تشبيههم النساء الصباح الوجوه بالغزلان والمها ، اشتبه عليه الحال فلم يدر
هل هي امرأة أم طيبة ؟ فقال : آأنت أم أم سالم ؟

وأطال ابن الصائغ القول في ذلك وبسطه بأحسن عبارة ، بحيث يفهمه
البليد البعيد الذهن ! وذلك الفقيه منصت مقبل على كلامه بكلية حتى يتوهم
من يراه على تلك الصورة أنه قد تعقل جميع ما قاله الشيخ من شرحه .
فلما فرغ ابن الصائغ من قوله ، قال له الفقيه : يا مولانا وأيش^(٢) في هذه
المرأة الحسناء يشبه الطيبة ؟

فقال ابن الصائغ قول منبسط : تشبها في ذنبا وقرونها ! فضحك
الحاضرون وخجل الفقيه ، وانقطع عن مجلسه .^(٣)

ومثل هذا يقال في البدر ، فهو في جملة صفاته ليس بأجمل من الغادة
الحسناء ولا أكثر منها فتنة وخلافة ، وإن أربى عليها في الإشراق والضياء .
وقد ذكروا : أن الرشيد قال لزبيدة — في ليلة مقمرة — : إن لم تكوني
أحسن من هذا القمر فأنت طالق .

فأقنى علماء زمانه بالحنث إلا يحيى بن أكرم ، فإنه قال : لا يقع عليه الطلاق !
ف قيل له : خالفت شيوخك ، فقال : الفتوى بالعلم ، ولقد أقنى به من هو أعلم

(١) المديان : القرآن ، والمَشَقَّة : التفريق بين الرجلين .

(٢) أيش : أي شيء . (٣) وفيات الأعيان ٢ - ٤٥ - ٤٥١

منا وهو الله — سبحانه وتعالى — حيث قال : « لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم » .

أى فى أحسن تعديل لقامته وصورته وحسن شارته ، منتصباً يتناول ما كوله بيديه ، مزينا بالعقل لا كالبهايم^(١) .

وإن صحت هذه الفتيا فلعلها دفعت بالشعراء فى هذا العصر إلى المخالاة فى التشبيهات ، وبخاصة فى هذا اللون المسمى « بالمقلوب » .

سبب تسمية بالمقلوب :

وقد سمي اليبانيون هذا النوع من التشبيه : التشبيه المقلوب ، أو المعكوس أو تشبيه القلب والعكس .

وسماه ابن الأثير فى « المثل السائر » : الطرد والعكس ، وعده من مواضع علم البيان الحسنة الموقع ، اللطيفة المأخذ .^(٢)

وسماه ابن جنى فى « الخصائص » وابن الأثير فى « كنز البلاغة » : غلبة القروع على الأصول^(٣) .

وقال عنه عبد القاهر فى « أسرار البلاغة » : جعل الفرع أصلاً والأصل فرعاً^(٤) .

وهو فى اصطلاح البيان : أن يقصد الشاعر على عادة التخيل أن يؤهم فى الشئ القاصر عن نظيره أنه زائد عليه^(٥) .

وحينئذ يجعل الفرع أصلاً ، ويشبه الزائد بالناقص .

ويكون الغرض فى الحقيقة إعلاء شأن ذلك الناقص : أى هو بالغ إلى حيث صار أصلاً للشئ السكامل فى ذلك الباب .

(١) ديوان الصبابة لابن حجلة المغربي — ٣٨

(٢) المثل السائر — ١٦٤

(٣) الخصائص — ١ — ٣٠٨ — عروس الأفراح — ٣ — ٤٠٧

(٤) أسرار البلاغة — ١٨٢ (٥) نهاية الأرب — ٧ — ٤٧

فغنى كونه مقلوبا : أن يجعل ما الوجه فيه أتم : مشبها ؛ ليتوهم السامع أن المشبه به المقصود بالمبالغة أتم في وجه الشبه من المشبه « الذي أصله مشبه به » .
اعتماداً على القاعدة المقررة : من أن الوجه في المشبه به أتم .

وقد مثلوا له بهذا البيت السائر ، وهو لمحمد بن وهيب يمدح المأمون :^(١)
وبدا الصباح كأن غرته وجه الخليفة حين يمدح
وقبله :

ما زال يلثمى مرأشفه ويعلى الإبريق والقدح
حتى استرد الليل خلعتة وبدا خلال سواده وضح
وقد قال فيه علي بن هارون المتبحر عن أبيه : لم يتوصل أحد إلى مدح
بمثل قول محمد بن وهيب^(٢) .

قصد إيهام أن وجه الخليفة أعرق وأشهر وأتم وأكمل في الوضوح
والضياء من الصباح فاستقام له ذلك بحسب النية .
وهذا أبلغ وأحسن وأمدح من تشبيه الوجه بالصباح ، لأن تشبيه الوجه
بالصباح أصل متفق عليه لا ينكر ولا يستنكر ، وإنما الذي يستنكر تشبيه
الصباح بالوجه^(٣) .

تحليل وقبى للقلب :

وقد حلل الإمامان « عبد القاهر الجرجاني والرازي » هذا البيت تحليلاً
رائعاً يعقب بنفحات ذكية من علم النفس ، وهذا ما جعلنا نذكر هذا البيت هنا
مع شهرته المستفيضة التي أدنته من الابتدال .

(١) معاهد التنصيص — ١ — ١٥٣

(٢) زهر الآداب ٣ — ١٨ (٣) حسن التوسل — ١٩

وفيما يأتي إجمال لما فصلاه^(١):

١ — إن هذا التشبيه دعوى ، وهى إن أشبهت قوهم : لا يدرى أوجه
أنور أم الصبح ؟ وغرته أضواء أم البدر ؟ وقوهم — إذا أفرطوا — :
نور الصبح يخفى فى ضوء جبينه ، أو نور الشمس مسروق من نور جبينه
إلى غير ذلك من وجوه ، فإن فى الطريقة الأولى خلافة ووشتا من السحر ،
وهى كأنه يستكثر للصبح أن يشبهه بوجه الخليفة ، ويوهم أنه قد احتشد
له واجتهد فى طلب تشبيه يفخم به أمره .

٢ — يوقع فى نفسك المبالغة من حيث لا تشعر ، ويفيدكها من غير أن
يظهر ادعاءها ، لأنه وضع كلامه موضع من يقيس على أصل متفق عليه
وأمر مسلم به ، لا يقع فيه اختلاف ولا إنكار ، والمعانى إذا وردت على
النفس هذا المورد كان لها سرور خاص وفرح عجيب ، فكانت كالنعمة
لم تسكرها المنة .

ولأنك لتجد مصداق هذا القول حين توازن بين قول ذى الرمة^(٢):

ورمل كأوراق العذارى قطعته وقد جللته المظلمات الحنادس
وقول بعضهم :

تمشى فتثقلها روادفها فكأنها تمشى إلى خلف
وقول المؤمل — وقد أفرط — :

من رأى مثل حبتى تشبه البدر إذ بدا
تدخل اليوم ثم تد خل أردافها غدا

فإن هذا الكلام الذى يهجم عليك بهذه الصفات المستغربة لا تشعر له
بالأريحية ولا الندادة لخلوه من الخلابة وحسن التأتى الذى يفيدها التشبيه
المقلوب فى البيت الأول .

(١) أسرار البلاغة — ١٨١ — ١٨٢ — نهاية الإيجاز — ٧٦ — ٧٧

(٢) التمهيد للمؤلف .

فإن من تمشى إلى خلف حين تحاول السير إلى الأمام ! ومن تبلغ بها الضخامة أن تخلف أردافها وراءها حين تلج بابا بمقدار يوم ، لا تعد شيئا مثيرا للضحك والسخرية فحسب ، بل تعد شيئا مخيفا مرعبا أكثر من الجان والغيلان !

ولكن انظر كيف جاء آخر بالسحر الحلال في قوله :

آخرها متعب لأولها فبعضها جانر على بعض

٣ - في هذا الموضع نكتة ، وهى أنك تنال الربح فى صورة رأس المال ، وترى الفائدة قد ملأت يدك من حيث حسبتها قد جازتك وأضلتك وتجد الموجود من حيث توهم العدم ، وتحصل على الربح بعد أن تغالط فيه حتى ترى أنه رأس المال .

٤ - إن الممدوح يقف بين أمرين يصعب الجمع بينهما وتوفية حقهما : معرفة حق المادح بالإصغاء والارتياح له ، جزاء ما قصد من تزيينه وتقدير شأنه ، ثم امتلاك نفسه حتى لا يزدحمها السرور ويستخفها الطرب ، فيخرج بها إلى العجب المذموم ، وإلى أن يقول : «أنا» فيقع فى صفة الكبر من حيث لا يشعر ، ويظهر عليه من أمارته ما يذم لأجله ويحقر ، لأن للمدح وقعا عميقا فى النفوس ولهذا يقول الشاعر :

بذا فاندبني وامدحني فإني فتي تعتريه هزة حين يمدح
فإذا كان المدح على صورة وجه الخليفة خف عنه الشطر من تكاليف
هذه الخصلة .

وقد وصف ابن جنى التشبيه المقلوب : بأنه فصل من فصول العربية طريف ، تجده فى معانى العرب كما تجده فى معانى الأعراب ، ومثل له فى كلام العرب بقول ذى الرمة المتقدم (١) :

ورمل كأوراك العذارى قطعته وقد ألبسته المظلمات الخنادس^(١)
فدو الرمة جعل الأصل فرعا والفرع أصلا ، وذلك أن العادة والعرف
في هذا أن تشبه أعجاز النساء بكشبان الأنقاء ، وهو مطرد في يابه كقول
ذى الرمة نفسه :

ترى خلفها نصفاً قناة قويمة ونصفا نقا يرتج أو يتمرمر^(٢)
وقول الطائي الأكبر :

كم أحرزت قضب الهندى مصلته تهتز من قضب تهتز فى كشب
وقول البحتري :

أين الغزال المستعير من النقا كفلا ومن نور الأقا حى ميسا^(٣)
وقول آخر :

أيا من نصفه غصن يميل ، ونصفه كفل
صفاتك فى تباينها فنن فصل ومتصل
فنصفك موج عاصفة ونصفك شارب ثمل

وقول ابن حجاج :

ومدلل أما القضيب فقد شكلا وأما ردفه فى كشيب

يمشى وقد فعل الصبا بقوامه فعل الصبا بالغصن وهو رطيب

فكس ذو الرمة القصيدة فى ذلك ، فشبه كشب الأنقاء بأعجاز النساء ؛
وإنما فعل ذلك مبالغة : أى قد ثبت هذا الموضع وهذا المعنى لأعجاز النساء ،
فصار كأنه الأصل حتى شُبِّهَتْ به كشبان الأنقاء .

(١) رواية المبرد : وقد جللته المظلمات الخنادس ، وألبسته بالبناء للفاعل : غطته . الكامل
شرح المصنف ج ٧ - ٢ .
(٢) تمرمر : اهتز وترجع . (٣) السكفل بالفتح : العجز .

وعلى نحو من هذا جاء قول البحترى :

✓ في طلعة البدر شيء من محاسنها وللقضيب نصيب من تثنيها^(١)

وعلى نحو هذا قالوا للناقاة : مجالية لأنهم شبهوها بالجل في شدته وعلو خلقه .

قال الراعى :

على مجالية كالفحل هملاج

وهو كثير فلما شاع واطرد صار كأنه أصل في بابه حتى عادوا فشبهوا

الجل بالناقاة في ذلك فقال :

وقربوا كل مجالىّ عضه^(٢)

فهذا من حملهم الأصل على الفرع فيما كان الفرع أفاده من الأصل ، ونظائره في هذه اللغة كثيرة .

وقد لاحظ ابن جنى : أن هذا المعنى عينه قد استعمله النحويون

في صناعتهم كما استعمله اللغويون توسعاً ، فشبهوا الأصل بالفرع في المعنى

الذى أفاده ذلك الفرع من ذلك الأصل ، ألا ترى أن سيبويه أجاز في قولك

هذا الحسن الوجه ، أن يكون الجر من موضعين : أحدهما : الإضافة ،

والآخر تشبيهه بالضارب الرجل ، الذى إنما جاز فيه الجر تشبيهاً له بالحسن

الوجه على ما تقدم في هذا الباب ، فعاد الأصل فاستفاد من النوع نفس الحكم

الذى كان الأصل بدءاً أعطاه إياه ، حتى دل ذلك على تمكن الفروع وعلوها

في التقدير^(٣) .

وقد عد ابن جنى هذا النوع من تدريج اللغة ، وعلل تمكن هذه الفروع

والتوسع فيها تعليلاً دقيقاً : بأنها في حال استعمالها على فرعيها تأتى مأتى الأصل

(١) الخصائص ٣٠٨ - المثل السائر - ١٦١

(٢) الغضه : البعير يشككي من أكل الغضاه أو يرعاها ، والغضاه : أعظم الشجر أو الخبط

أو كل ذوات شوك أو ما عظم منها وطال . (٣) الخصائص ج ١ - ٣١٠

الحقيقى لا الفرعى التشبيهى ، وذلك كقولهم : أنت الأسد ، وكفك البحر ، فهذا لفظه لفظ الحقيقة ومعناه المجاز والاتساع ، ألا ترى أنه إنما يريد أنت كالأسد ، وكفك مثل البحر ، وهو واسع كثير ، فلما كثر استعمالهم إياه — وهو مجاز — استعمال الحقيقة واستمر واتلأب^(١) تجاوزوا به ذاك إلى أن أصاروه كأنه هو الأصل والحقيقة ، فاستعادوا معناه لأصله^(٢) .

هذه نظرة ابن جنى للتشبيه المقلوب ، وهى نظرة دقيقة عميقة ، وإن شأنا مزاج اللغوى النحوى لا اللغوى اليبانى .

ولكننا لا نستطيع إلا أن نتابع ابن الأثير فيما أخذه عليه من أنه أرسل هذا النوع مهملاً^(٣) دون أن يقيده بما لا غنى عنه من الشروط .

فليس من الحق أن هذا الباب يحسن فيه القلب دائماً ، فهو يرد على الندرة لظرافته ، والشرط فى استعماله ألا يرد إلا فيما كان متعارفاً ، حتى تظهر فيه صورة الانعكاس ، لأنه لو ورد فى غير المتعارف لكان قبيحاً ، لأن مطرد العادة فى البلاغة على تشبيه الأدنى بالأعلى كما يقول العلوى^(٤) .

وقد بسط عبد القاهر ما أجمله صاحب الطراز معللاً ذلك تعليلاً دقيقاً سائفاً ، فنذكر أنه يمنع من القلب أن يكون بين الشئيين تفاوت شديد فى الوصف الذى لأجله يشبه ، ثم قصدت أن تلحق الناقص منهما بالزائد مبالغة ، ودلالة على أنه يفضل أمثاله فيه .

بيان هذا أن ههنا أشياء هى أصول فى شدة السواد كخافية الغراب والقار ونحو ذلك ، فإذا شبهت شيئاً بها ، كان طلب العكس فى ذاك عكساً لما يوجب العقل ونقصاً للعادة ، لأن الواجب أن يثبت المشكوك فيه بالقياس على المعروف ، لا أن يتكلف فى المعروف تعريف بقياسه على المجهول ،

(١) اتلأب : استقام وانتصب . (٢) الخصائص — ١ — ٥٦٨

(٣) المثل السائر — ١٦٤ (٤) الطراز العلوى — ١ — ٣٠٩

وما ليس بموجود على الحقيقة ، فأنت إذا قلت في شيء : هو كخافية الغراب ، فقد أردت أن تثبت له سواداً زائداً على ما يعهد في جنسه ، وأن تصحح مجهوله ، وإذا لم يكن هنها ما يزيد على خافية الغراب ، فليت شعري ما الذي تريد من قياسه على غيره فيه (١) .

ومن ثم نرى القلب يحسن فيما تعلمه الناس ، كتشبيه الشجاع بالأسد ، والجميل بالبدر والشمس ، والجواد بالبحر ، والرزين بالجبل ، والوديع بالحمل ، والماضى بالسهم والسيف ، والحقود بالجمل ، والاحقق بالنعامة ، والبخيل بالحجر ، والأكول بالفيل ، والرواغ بالشعل ، والمز هو بالطاووس ، واللجوج بالخنفساء .

ومثل هذا يقال في الأعضاء ، فقد تفنن الشعراء في الغزل ، فتغزلوا في المحبوب باسمه ، وكنوا عنه ، واستعاروا له ، ووصفوا أعضائه وشبهوها بأشياء مشهورة ، فشبهوا العين بالترجس ، وأفعالها بالخنز والسهم ، وشبهوا الحواجب بالقسي ، والجبين بالصباح ، والشعور بالليالي ، والسوالف بالغوالى والصواالج والعقارب ، وشبهوا الوجه بالشمس والقمر ، وشبهوا الخدود بالورد والنفاح ، وشبهوا الثغور بالأقحوان ، واللمى بالخنز ، والريق بالشهد ، والشفاه بالعقيق ، والأسنان باللؤلؤ ، وشبهوا النهود بالرمان ، والقوام بالغصون ، والأرداف بالكشيان (٢) .

إلى غير ذلك مما ألفته الأذواق ، وأنست به الأسماع ، أو بما تبتكره القرائح على مدى الأيام مما تسلم به الطباع وتستسيغه العقول ، ومن هنا كان كثير من تشبيهات العصرين الجاهلية المعرقة في الرمزية ، لا يتأقن فيها القلب ، لأنها غير مفهومة على أصلها ، فكيف بها بعد أن تقلب ! واعتبر في ذلك

بهذه التشبيهات التي أسوقها إليك ، وهي غيظ من فيض مما نقرأه في هذه الأيام للشعراء والكتاب المحدثين :

المرأة : أغنية غرام : فنظراتها كوتر الجيتار الناعم الحنون ، وقوامها كشعاع القمر عندما يتسلل من خلال أغصان الأشجار ، وشفقتها كزورق وحيد تائه على صفحة الماء بين أوراق الأشجار الجافة المتساقطة .^(١)

وقد نبه الحصري : إلى أن من المعاني ما لا ينقلب ، ألا ترى أنك تقول : نام القوم حتى كأنهم موتى ، ولا يحسن أن تقول : ماتوا حتى كأنهم نيام .^(٢) وقد أخذ على أبي نواس قوله يصف داراً وقف فيها :

كأنها إذ خرست جارم بين ذوى تقنيده مطرق

فقالوا : إنما يجب أن يشبه الجارم إذا عدلوه فسكت وانقطعت حجة : بالدار الخالية التي لا تحيى ، ويشبه صممه بصمم الحجر ، ولا يقول أحد : سكت هذا الحجر كأنه إنسان صامت .^(٣) وأخذوا عليه قوله :

كان نيراننا في جنب حصنهم معصفرات على أرسان قصار
وقد تبعه أبو تمام الطائي ، فقال في الأفشين^(٤) :

ما زال سر الكفر بين ضلوعه حتى اصطلى سر الزناد الوارى
نار يساور جسمه من حرها لهب كما عصفت شق إزار^(٥)
والشاهد في البيت الثاني .

قالوا : وإنما تشبه الثياب المعصفرة بالنار .

(١) أخبار اليوم ١١ - ٢ - ٥٠

(٢) زهر الآداب - ٢ - ٩٦ - الحيوان - ٤ - ١٤٦

(٣) الأفشين : بوزن فلسين : قائد تركي من قواد المعتصم ، أبلى في الحروب بلاء حسناً ، ثم سخط عليه لانهامه بالزندقة ، فصلبه وأحرقه بتحرير أحمد بن أبي دؤاد .

فهذا وما أشبهه لا يتوازن انعكاسه ، وتنضاد قضاياه ، وإنما يصح القلب فيها يتحقق تضاده أو يتقارب .

وقد يقال : ولكنهم يجيزون القلب في تشبيه الشمس بالمرآة المجلوة ، وبالدينار الخارج من السكة كما قال ابن المعتز :

وكان الشمس المنيرة ديناً ر جلته حدائد الضراب
مع عظم التفاوت بين الشمس والمرآة في النور ، وبينها وبين الدينار في النور والجرم .

والجواب : أن التشبيه هنا قصد به الجمع بين شيئين في مطلق الصورة والشكل واللون ، فهو لم يوضع على مجرد النور والائتلاق ، وإنما قصد إلى مستدير يتألاً ويلع ، ثم خصوص في جنس اللون يوجد في المرآة المجاورة والدينار المختص من حمى السكة كما يوجد في الشمس .

فأما مقدار النور وأنه زائد أو ناقص ، ومتناه أو متقاصر ، والجرم أعظم هو أم صغير فلم يتعرض له .

ويستقيم لك العكس في هذا كله ، نحو أن تشبه المرآة بالشمس . وكذلك لو قلت في الدينار : كأنه شمس ، أو قلت : كأن الدينار شمس صغار لم تعد^(١) . بخلاف ما مر من قول أبي نواس ، فإنه لم يقصد به مجرد الجمع بين شيئين في مطلق الصورة ، بل قصد به المبالغة في إثبات الصفة .

وجملة القول : أنه متى لم يقصد ضرب من المبالغة في إثبات الصفة للشيء ولا القصد إلى إيهام في الناقص أنه كالزائد ، واقتصر على الجمع بين الشيئين في مطلق الصورة والشكل واللون ، أو جمع وصفين على وجه يوجد في الفرع على حدة أو قريب منه في الأصل فإن العكس يستقيم في التشبيه ، كتشبيه

الصبح بغرة الفرس الأدهم ومتى أريد شيء من ذلك لم يستقيم^(١).

ومما قصد منه الجمع بين الشيتين في مطلق الصورة ، هذا التشبيه البديع لابن المعتز :

وجاءني في قيص الليل مستتراً يستعجل الخطو من خوف ومن حذر
ولاح ضوء هلال كاد يفضحنا مثل القلامة قد قدت من الظفر

قال الحموي: وهذا التشبيه ذكروا: أنه من مخترعات ابن المعتز ، ولكن زاده القاضى الفاضل بهجة ، ونقله من الأعلى إلى الأدنى ، فإن رتبة الهلال وعلوها في التشبيه على قلامة الظفر ما برحت مقررة في الخواطر ، إلى أن نقلها القاضى الفاضل بطريفة بديعية اقتضتها الحال ، وهى قوله مبالغا « فى قلعة نجم ، بالعلو: وأما قلعة نجم ، فهى نجم فى سحاب ، وعُقاب فى عقاب ، وهامة لها العمامة عمامة وأنملة إذا خضبها الأصيل كان الهلال لها قلامة .

وهذه غاية فاضلية لا تدرك^(٢).

وأعجب بقول القاضى الفاضل أيضاً « علاء الدين الغرولى ، وسمى القلعة حصن كوكب ،^(٣) .

وذكر ابن خالكان : أن القاضى الفاضل أخذ قوله هذا من قول ابن المعتز السابق :

ولاح ضوء هلال كاد يفضحنا البيت ،

وأن ابن المعتز أخذه من قول عمرو بن قيس^(٤):

كأن ابن مزنتها جانحاً فسيط لدى الأفق من خنصر^(٥)

(١) نهاية الأرب - ٧ - ٤٨ (٢) خزانة الأدب - ٢١٨

(٣) مطالع البدر - ٢ - ٢٦٤ (٤) وفيات الأعيان - ١ - ٥١٠

(٥) الفسيط بفتح الفاء : قلامة الظفر ، وابن مزنتها : كناية عن الهلال .

ولم يرق ابن الأثير مارق الحموى ، و « الغرولى » فى تشبيهه القاضى
الفاضل ، فقال — ينقده — : إن من شرط بلاغة التشبيه : أن يشبه الشيء
بما هو أكبر وأعظم منه ، ومن ههنا غلط بعض الكتاب من أهل مصر
فى ذكر حصن من حصون الجبال مشبها له ، فقال هامة لها العمامة عمامة إلخ .
ثم مضى يقول : وهذا الكاتب حفظ شيئا وغابت عنه أشياء ، فإنه
أخطأ فى قوله : أنملة ، وأى مقدار للأنملة بالنسبة إلى تشبيهه حصن على رأس
جبل ! وأصاب فى المناسبة بين ذكر الأنملة والقلامة وتشبيهها بالهلال .
ثم قال : إنه قد يقال : إن هذا الكاتب تأسى بقول الله — تعالى — :
« الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، فكل نوره
بطاقة فيها ذبالة .

وقوله — تعالى — : « والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون
القديم .

فمثل الهلال بأصل عندق النخلة ^(١) .

وأجاب عن ذلك : بأن هذا مثال ضربه الله — تعالى — للنبي — صلى الله
عليه وسلم — فالشجرة : ذات الرسول ، وقلبه : الزجاجة .
والمراد من إضاءة زيت هذه الزجاجة من غير نار : أن فطرته فطرة
صافية من الأكدار ^(٢) .

وأما الآية الأخرى « فإنه شبه الهلال فيها بالعرجون القديم ، وذلك فى
هيئة نحوه واستدارته لا فى مقداره ، فإن مقدار الهلال عظيم ، ولا نسبة
للعرجون إليه ، لسكنه فى مرأى النظر كالعرجون هيئة لا مقداراً .
وأما هذا الكاتب ، فإن تشبيهه ليس على هذا النسق ، لأنه شبه صورة

(١) العندق بالكسر : قنو النخلة وبالفتح : النخلة بأجمعها .

(٢) فى هذه الآية مذاهب كثيرة فى تفسيرها .

الحصن بأنملة في المقدار لا في الهيئة والشكل ، وهذا غير حسن ولا مناسب وإنما ألقاه فيه أنه قصد الهلال والقلامة مع ذكر الأنملة ، فأخطأ من جهة وأصاب من جهة لكن خطؤه غطى على صوابه ^(١) .

والحق أن ابن الأثير قد تحامل في نقده على القاضي الفاضل وبلغ الغاية في تفنيده ظالماً له !

فقوله : إن من شروط بلاغة التشبيه : أن يشبه الشيء بما هو أكبر وأعظم منه ليس مطرداً وإنما يكون هذا في التشبيه العادى ، وأما في التشبيه المقلوب ، فيجعل الفرع أصلاً والأصل فرعاً ، ويشبه الزائد بالتناقص على جهة التخيل والإيهام .

ثم كيف عرف أن الفاضل يريد تشبيه الحصن بالأنملة في المقدار ! ولم لا يكون مراده التشبيه في الهيئة والشكل كما في الآية الكريمة ، وبخاصة إذا علمنا أنه يصف قلعة مفرطة في العلو ذاهبة في السماء لأنها مبنية فوق جبل ألا يدل ذلك على أنه يصفها في مرأى العين لا من حيث الواقع ، ولهذا فراه ينعتها بأنها « نجم » ، وأنها « عقاب » ، والعقاب من دأبها التحليق .

ولعله مما يؤيد هذا التعصب على الفاضل أن ابن الأثير أغفل اسمه وكفى عنه « ببعض الكتاب من أهل مصر » .

وقد كنت رأيت هذا الرأي اعتماداً على تنافس المعاصرين ، ولا سيما إذا كانا متحدين في الصنعة — والاشتراك في الصنعة عداوة — حتى تحقق لدى ذلك بما ذكره ابن خلكان : من أن ابن الأثير كان يعارض القاضي الفاضل في رسائله ، فإذا أنشأ رسالة أنشأ مثلها ، وكانت بينهما مكاتبات ومجاولات ^(٢) .

ولا شك أن إغفال ابن الأثير لاسم القاضي الفاضل — وهو علم على

رأسه نار — لا يدل على سمو في الخلق ولا في الذوق ، بل هو جفاء وغلظة لا يصح أن تصدر من كاتب ، ولكن شدة إعجاب ابن الأثير بنفسه واعتداده بمقدرته الإنشائية كثيراً ما يحيدان به عن أدب النفس ونزاهة النقد^(١).

قد منّا أن القلب في التشبيه لا يتأتى إلا فيما يكون متعارفاً وأشبغنا القول في ذلك موضعاً بالأمثلة .

ونزيد على هذا شرطاً آخر له أهميته ، وهو أنه لا بد من وجود قرينة تدل على مراد القائل من أنه يقصد جعل الأدنى أعلى كقول الشاعر :

ولم أر مثل هالة في معدّ يشابه حسنّها إلا الهلّالا
لأن الأمر لا بد فيه من النية ، فإذا لم يكن من نية القائل القلب ، وجرى على أصل التشبيه من إلحاق الناقص بالزائد ، فهنا يمتنع العكس مع بقاء الغرض ، لأن تنزيل الزائد منزلة الناقص يضاد المبالغة في الإثبات^(٢) .
والتشبيه المقلوب مبنى على المبالغة ، فلا يأتي شيء منه إلا والمقصود ذلك .
ومن ثم كان الغرض من التشبيه فيه يعود إلى المشبه^(٣) به حتماً حتى تتم المبالغة في شأنه ، بخلافه في غير ذلك فإنه يعود إلى المشبه .
وهذه المبالغة من وجهين :

١ — وهو الغالب ، والكثير الشائع ، لإيهام أن المشبه به أتم في وجه الشبه من المشبه : أي في حال القلب كما مر في الأمثلة مع أنه ليس كذلك في الواقع ، لأننا إذا رجعنا إلى التحقيق لم نجد الأمر يستقيم على ظاهر ما يوضع « القائل » اللفظ عليه ، إذ الإيهام إنما هو في القلب ، وأما المشبه به في الأصل فأتى حقيقة^(٤) .

(١) فن الأسجاع لعلى الجندی ١٣٦ — ١٣٧ .

(٢) الأقصى القريب ٤١ — نهاية الإنجاز ٧٧ — نهاية الأرب ٧ — ٢٨ .

(٣) الفوائد الغيائية ٣٠٣ — (٤) المصدر السابق ٢٠٥ — التجريد ٤ — ٩٩ .

٢ - بيان الاهتمام بالمشبه به لفظاً ومعنى ، كما إذا شبه الجائع وجهاً جميلاً يشبه البدر في الاستدارة والإشراق ، بالـرغيف في الاستدارة واستلذاذ النفس به ، إظهاراً لاهتمامك بشأن الرغيف لا غير .

ويسمى هذا النوع إظهار المطلوب ، وذلك لإتيان صاحبه بما يدل على أنه جائع ، وأن الرغيف مطلوب عنده حتى لا يجد في خاطره عند قصد التشبيه غيره ، فإنه لما عدل عن تشبيه الوجه بالبدر الذي هو المناسب وعكس المعنى ، دل كلامه - بمصاحبة بعض القرائن الحالية أيضاً - على أنه جائع جوعاً أوجب له أنه إذا التفت إلى ما يشبه به هذا الوجه ، لم يجد أقرب من الرغيف لشدة الرغبة الموجبة لعدم زواله عن الخاطر (١) .

على أنه يجب أن يكون معروفاً أن العلاقة بين الوجه والرغيف ليست نائية ولا بعيدة ، ولا تستمد وجودها من حاسة الجوع فقط ، بل تعتمد على صلة وثيقة مستقلة ، ولولاها ما حسن التشبيه ولا كان دقيقاً ، فالفرزدق الشاعر لقب بذلك لأن وجهه كان غليظاً جهماً يشبه «الفرزدق» وهو الرغيف الذي يسقط في التنور ، أو الرغيف الضخم الذي يحففه النساء للفتوت (٢) .

وقال بجير الدين بن تميم :

وكان أرغفة الخوان وحوها بقل تمش إليه نفس الآكل
وجنات غيد صُفِّفت ، وجميعها يبدو بها خط العذار البازل
وكما يشبه الرغيف بالوجه يشبه أيضاً بالقمر ، قال شاعر يهجو الحجاج بأنه كان معلم صبيان :

أينسى كليب زمان الهزال وتعليمه سورة الكوثر (٣)

(١) شروح النسخ - ٣ - ٤١١

(٢) خزائن الأدب للبغدادى - ١ - ٢٠٤ - الأغاني - ١٩ - ص ٢

(٣) كليب : اسم للحجاج وهو صغير .

رغيف له فلسكة مأثري وآخر كالقمر الأزهر^(١)
يريد أن بعض الرغفان غير تام الاستدارة وبعضها تام، لأن خبز
المعلمين يأتي مختلفا، لمجيئه من بيوت صبيان مختلفي الأحوال .
وقال ابن الحجاج :

يا صاحب البيت الذي قد مات ضيفاه جميعا
مالي أرى فلك الرغيف م لديك مشترفا رفيعا
كالبدر لا ترجو إلى وقت المساء له طلوعا
فشمه الرغيف بالبدر لعلتين : إحداهما الاستدارة ، والثانية طلوعه
مساء^(٢)

وقال أبو الحسين الجزار :

قسما بلوح الخبز عند خروجه من فرنه وله الغداة تجار
ورغائف منه تروك وهي في مرأى العيون كأنها أقمار
من كل مصقول السوالف أحمر الخدين م للشونيز في——ه عذار^(٣)
وكان باطنه بكفك درهم وكان ظاهر لونه دينار
كالفضة البيضاء لكن يغتدي ذهابا إذا قويت عليه النار
ويقول حافظ :

ويخال الرغيف في البعد بدرأ ويظن اللحوم صيدا حراما
فالعلاقة — كما ترى — بين هذه الثلاثة : الوجه والرغيف والقمر قوية
مسلمة لم تغب عن نظر الشعراء .

وقد نص السكاكي على أن هذا النوع الأخير — وهو ما سمي « إظهار
المطلوب » — لا يحسن المصير إليه إلا في مقام الطمع في تسنى المطلوب^(٤) .

(١) الفلسكة بفتح فسكون : مستدار كل شيء .

(٢) أسرار البلاغة — ٢٣٧ — (٣) الشونيز : يضم الشين وفتحها : الحبة السوداء .

(٤) مفتاح العلوم — ١٨٥ — شروح التلخيص — ٣ — ٤١١ .

وقد ذكروا : أن صاحب بن عباد قصد مجلسه أحد القضاة ، فاستظرفه وأمر ندماءه أن يحجزوا قوله :

وعالم يعرف بالسَّجْزَى^(١)

فنظموا على أسلوبه حتى انتهت النوبة إلى أحدهم من الأشراف العلويين — وكان جائعا — فقال :

أشهى إلى النفس من الحَبْز .

ففظن صاحب إلى أنه جائع فأمر بإعداد مائدة له .

وليس هذا من قبيل التشبيه ، ولكنه إشارة إلى المثال بتشبيه الوجه

الحسن بالرخيف^(٢) .

على أن الطيبي — كما تقدم — جعل من أدوات التشبيه أفعال التفضيل مثل زيد أفضل من عمرو .

ومما جاء على نحو من قول الشريف العلوى فى القاضى السجزى قول الشاعر الأعرابي^(٣) :

فما صحفة مآدومة بإهالة بأطيب من فيها ولا أقط رطب^(٤)
وقول آخر^(٥) :

فإنك إن ترى عرصات مجمل بعاقبة فأنت إذا سعيد^(٦)
لها عينان من أقط وتمر وسائر خلقها بعد الثريد
يريد بالأقط والتمر ما اجتمع فيهما من البياض والسواد ، وبالثريد :
لين جسمها .

(١) السجزى : نسبة إلى سجستان ، وهى من شواذ النسب . وفيات الأعيان ١ - ٥٤٩ -
الزهو ٢ - ٢٧٩ (٢) القوائد الغنائية - ٢٠٥ (٣) ديوان الحماسة - ٢ - ٤٠٣
(٤) الإهالة : كل ما يؤتد به ، والأقط : ما يتخذ من الخيض الغنمى « الرائب » .
(٥) المصدر نفسه والرقم . (٦) العرصات جمع عرصة : المسكان المتسع ، وبالعاقبة :
أى عقب معرفتها .

فإننا لا نشك حين نسمع هذا الشعر أن صاحبيه في حال إنشائه كانا في شوق عارم إلى هذه الألوان من الأطعمة التي أشادوا بها .

ومثل هذه التشبيهات يحسن أن ننظر إليها من ناحيتين :

الأولى : ناحية الذوق الجمالي ، وهنا لا يسعنا إلا أن نحكم على أصحابها بقلة نصيهم من هذه الموهبة النفسية ، إلا أن يقال : إنها وردت على سبيل المفارقة ، فهي إذاً لون من الهزل لا الجد ، فإنه إذا قال إنسان : إن أجمل ما في الوجود هو شواء الضأن أو كثرة الشراب ، فينبغي أن نعرف أنه عاطل من تذوق الجمال ، وأنه يخلط الجمال بشيء آخر يحبه .^(١)

وليس شيء أذل ولا أسر من عز الأمر والنهي ، ومن الظفر بالأعداء ، ومن عقد المنن في أعناق الرجال ، والسرور بالرياسة وثمره السيادة ؛ لأن هذه الأمور هي نصيب الروح وحظ الذهن وقسم النفس ، فأما المطعم والمشرب والمنسكح والمشم ، وكل ما كان من نصيب الحواس ، فقد علمنا أن كل ما كان أشدّ نهماً وأرغب كان أتمّ لوجدانه الطعم .^(٢)

وقد عبر عن ذلك أصدق تعبير ذلك الشيخ الأعرابي الذي نزل به قتي عاشق أكل ! فقال فيه^(٣) :

وقد رايت من جعفر أن جعفرا يُلج على قرصى ويكي على مُجمل^(٤)
فلو كنت عذرى العلاقة لم تبت بطينا وأنساك الهوى شدة الأكل
فأجابه الفتى :

إذا كان في بطني طعام ذكرتها وإن جعت يوماً لم تسكن لي على ذكر

(١) فلسفة الجمال ترجمة عبد الحميد يونس — ٨٨

(٢) الحيوان — ٢ — ٣٣ (٣) العقد الفريد — ٤ — ٢٤١ — ذيل الأمالي للقالى — ٢١٣

(٤) يلج : يشد .

وبزاد حي إن شبع تجددأ

وان جعت غابت عن فؤادى وعن فكري
ولكنه في مقابل هذا القى المغرم « بجمل ، وبالطعام ، ووجد أناس
حلت اللذات المعنوية من نفوسهم المحل الأسمى .

فقد ذكر الشعبي : أنه كان يحدث عبد الملك بن مروان - وهو يأكل -
فيحبس الخليفة اللقمة ، فيقول الشعبي : أجزها أصلحك الله ! فإن الحديث
من ورائها ، فيقول : والله لحديثك أحب إلى منها ^(١) .

وحدث عيسى بن دأب الخليفة المهدي بنصيحة ملكية ، وفي يده لقمة
قد رفعها إلى فيه ، فأمسكها وقال : ويحك أعد على ما قلت !

فقال يا أمير المؤمنين ، أسغ لقمته !

فقال : حديثك أعجب إلى ^(٢) .

ويقول ابن الماجشون إنى لأسمع بالكلمة المليحة وما لى لإقيص واحد
فأدفعه لصاحبها وأستكسى الله - عز وجل - ^(٣) .

وحدث عروة بن عبد الله : أن عروة بن أذينة الليثى كان نازلا في ديار
أبي العقيق ، فسمعه ينشد لنفسه .

إن التى زعمت فؤادك ملها خلقت هواك كما خلقت هوى لها

فإذا وجدت لها وساوس ملوة شفع الضمير إلى الفؤاد فسلها

يضاء باكرها النعيم فصاغها بلباقة فأدقها وأجلها

لما عرضت مسلما الى حاجة أخشى صعوبتها وأرجو حلها

منعت تحيتها فقلت لصاحبي ما كان أكثرها لنا وأقلها

فدنا وقال لعلها معذورة فى بعض رقيتها فقلت لعلها

(١) روض الأخيار لمحمد بن قاسم بن يعقوب - ٣٣٦ .

(٢) زهر الآداب - ٣ - ١٨٠ (٣) زهر الآداب - ١ - ٢٠

(١٩٢ - فى الشبيه)

قال فأتاني أبو السائب المخزومي ، فقلت له — بعد الترحيب والبشر —
ألك حاجة ؟

قال : نعم آيات لعروة بلغني أنك سمعته ينشدها .
فأنشدته الآيات ، فلما بلغت إلى قوله :
فدنا وقال لعلها معذورة « البيت »

طرب وصاح ! وقال : هذا والله الدائم الصبابة الصادق لا كالذي يقول :
إن كان أهلك يمنعونك رغبة عني فأهلي بي أضن وأرغب
لقد عدا هذا الأعرابي طوره ! وإني لأرجو أن يغفر الله لصاحب هذه
الآيات لحسن ظنه بها وطلب العذر لها !
قال فعرضت عليه الطعام ، فقال : لا والله ما كنت لأخيط بهذه الآيات
طعاما حتى الليل !

ثم انصرف ^(١) .

ونقل عن ابن الأنباري : أنه كان يأخذ الرطب ويشمه ويقول :
أما إنك لطيب ، ولكن أطيب منك ما وهبه الله — عز وجل — لي
من العلم ^(٢) .

وأثر عن الشافعي قوله :

سهرى لتنتقيح العلوم ألدُّ لي من وصل غانية وطيب عناق
وألدُّ من نقر الفتاة بدفها نقرى لألقى الرمل عن أوراق
والناحية الأخرى : ناحية الصدق المؤثر في الأداء والشعور معاً ، وهي
ناحية لا تنكر قوتها وروعها ، لأنها تصور لنا مبلغ أهمية هذه الأشياء
وسلطانها على نفوسنا حين يلدع الجوع أحشاءنا !

وحتى إذا لم نكن قد أصبنا بجوع قط ، ولم نشرد في العراء أبداً كما يقول

« جارية » فإن للطعام والمأوى أهمية بشرية عامة ، ولو أن شاردين Chardin بدلا من رسمه الرغيف رسم مخروطاً غير منتظم ، أو زجاجة شيمانيا ، ولو أن « رامبراندت » بدل رسمه لطاحونة الهواء ، رسم أسطوانة منتظمة أو رذاذا ، مع ما في رسم هذه الأشياء من صعوبة لا تقل عما عداها ، لكان جمال رسوم هؤلاء الفنانين مختلفاً — على الأقل — عن رسومهم التي أنتجوها فعلاً (١) .

ومما لا خلاف فيه أن لهذه التشبيهات القائمة على الشهوات والرغبات من نحو قول الشريف الخلوى :

أشهى إلى النفس من الخبز .

لها صلة وثيقة بالنفس

فمن الثابت ؟

١ — أن الإنسان إذا أحب شيئاً كلف برؤيته ولهج بذكره كما يقول كثير :

أريد لأنسى ذكرها فكأنما تمثّل لي ليلى بكل سميل (٢)

وقول إبراهيم بن المهدي :

لم يُنسِينك سرور لا ولا حزن وكيف لا كيف يُنسى وجهك الحسن !

مازلت مذكّفت نفسي بحبكم كلى بكلك مشغول ومرتهن

نور تجسم من شمس ومن قمر حتى تكامل منه الروح والبدن

ومارواه القالى (٣) :

ولما أبى إلا جماحاً فواده ولم يسلب عن ليلى بمال ولا أهل

تسلّى بأخرى غيرها فإذا التي تسلّى بها تُغرى بليلى ولا تسلى

(١) فلسفة الجمال — ٣٣ (٢) كفى بليلى عن عزة وكثيراً ما يفعلون ذلك .

(٣) الأمالي والنوادر — ١ — ٢١٦ — ونسبهما صاحب تزيين الأسواق إلى مجنون ليلى — ٣٣

ولابن عبد ربه كلمة نفيسة في ذلك ، قال : وقد تكلم الناس في النعمة
والسرور على تباين أحوالهم ، واختلاف همهم ، وتفاوت عقولهم ،
وما يجانس كل رجل منهم في طبعه ، ويؤلفه في نفسه ويميل إليه في وهمه ،
وإنما اختلف الناس في هذا المذهب لاختلاف أنفسهم ، فمنهم من نفسه
عصية ، فإنما همه منافسة الأكفاء ، ومغالبة الأقران ، ومكابر العشرة .
ومنهم من نفسه ملكية ، فإنما همه اليقين في العلوم ، وإدراك الحقائق ،
والنظر في العواقب ، ومنهم من نفسه بهيمية ، فإنما همه طلب الراحة ، واهتبال
النفس على الشهوة من الطعام والشراب والنكاح .^(١)

وقد قيل لامرئ القيس : ما السرور ؟
قال : يضاء رُعبوبة ، بالحسن مكبوبة ، بالشحم مكروبة ، بالطيب
مشبوبة .
وكان مفتوناً بالنساء .

وقيل لأعشى قيس : ما السرور ؟
قال : صباه صافية ، تمزجها ساقية ، من صوب غادية .
وكان مغرماً بالشراب .
وقيل لطرفة : ما السرور ؟
قال : مطعم هني ، ومشرب روي ، وملبس دفي ، ومركب وطى .
وكان يؤثر الخفض والدعة .
وقيل ليزيد بن مزيد : ما السرور ؟ قال : قلة على غفلة .
وكان صاحب وصائف^(٢) .
وقال طفيل :

(١) العقد الفريد — ٤ — ٢٤٦ (٢) المصدر نفسه — ٢٤٧ — ٢٤٨ — زهر
الأدب — ٢ — ٢٠٣ — عيون الأخبار — ١ — ٢٠٩

ألا ليت لي خبزاً تسرّب رائيها وخيلاً من البرنيّ فرسانها الزبد^(١)
فأطلب فيما بينهن شهادة بموت كريم لا يشق له لحد
وقيل لبعض الطفيلين: أى سورة تعجبك في القرآن؟ قال المائدة .
قيل: فأى آية؟
قال: «ذرهم يأكلوا ويتمتعوا» .
قيل: ثم ماذا؟
قال: «ادخلوها بسلام آمنين» .
قيل: ثم ماذا؟
قال: «وما هم منها بمخرجين»^(٢) .
وهكذا كل امرئ أمنته على ما يطابق غريزته، ويوافق^(٣) تخيلته .
وسبحان من أودع في كل قلب ما شغله .
٢ — إذا قوى إحساس الإنسان بشيء حل منه في بؤرة الشعور ،
وانتقل غيره إلى الحاشية ، فأصبح جلياً واضحاً مستثيراً^(٤) يشغل ذهن صاحبه ،
ويجرى على فلتات لسانه من غير قصد .
وقد قيل لأشعب ما أحسن الغناء؟
قال: نشيش المقل^(٥) .
وساوم رجلاً في قوس عربية ، فطلب الرجل ديناراً .
فقال أشعب: والله لو أرمى بها طائراً في جو السماء ، فيقع مشوياً بين
رغيفين ما أعطيتك بها ديناراً^(٦) .
وقيل لطفيلي: كم اثنان في اثنين؟

(١) البرني: ضرب من التمر أصفر مدور وهو أجود التمر .

(٢) المستطرف للأشبهى — ١ — ٢٤٧ (٣) زهر الآداب — ٢ — ٢٠٣

(٤) علم النفس للأستاذين المرحوم الجارم بك ، ومصطفى بك أمين .

(٥) القعد الفريد — ٤ — ٢٤٢ (٦) المصدر نفسه — ٢٣٦

قال : أربعة أرغفة ! (١) .

وقيل لبنتان الطفيلي : كم كان عدد صحابة رسول الله يوم بدر ؟

قال : ثلثمائة وثلاثة عشر رغيفا !

وفي رواية : درهما (٢) .

وقيل لوراق ما تشتهي ؟

قال : قلها مشاقا ، وحبر أبراقا ، وجلود أرقاقا (٣) .

وكان محمد بن راشد البجلي يتغدى ، وبين يديه شبوطة وخياط يقطع

ثيابا له ، ورآه يلحظ الشبوطة .

فقال له زعمت أن هذا الثوب يحتاج إلى خرقه فكم مقدارها ؟

فقال ذراع في عرض الشبوطة (٤) .

ودخل آخر على رجل يأكل أترجة بعسل ، فأزاد أن يقول السلام

عليكم ، فقال : عَسَلَيْكُمْ (٥) .

ويقول الجاحظ في ذلك : ولكل صناعة ألفاظ قد حصلت لأهلها

بعد امتحان سواها فلم تلتق بصناعتهم إلا بعد أن كانت مشاكلة بينها وبين

تلك المعاني في الصناعة .

وقبيح بالمتكلم أن يفتقر إلى ألفاظ المتكلمين في خطبة أو رسالة ، أو في

مخاطبة العوام والجار ، أو في مخاطبة أهله وعبدته وأمتة ، أو في حديثه إذا

حدث أو خبره إذا أخبر ، وكذلك من الخطأ أن يجلب ألفاظ الأعراب

وألفاظ العوام وهو في صناعة الكلام داخل ، ولكل مقام مقال ، ولكل

صناعة شكل (٦) .

(١) العقد الفريد — ٢٣٧ (٢) مطالع البدور — ٢ — ٥١ — البيان والتبيين

(٣) زهر الآداب — ٢ — ٢٠٣ « السندوني »

(٤) الشبوطة بضم الشين وفتحها مع التشديد وقد تخفف : سمكة دقيقة الذنب عريضة الوسط

لينة المس صغيرة الرأس . (٥) البيان والتبيين — ٢ — ١٤٤

(٦) الحيوان — ٣ — ١١٤

(٣) كل واصف ، فإنما يشبه الموصوف من جنس صناعته وبها تكثر رؤيته له (١).

وإنك لتجد مصداق الأول فيما ذكروا : من أنه قدم إلى أبي على الفارسي النحوى شوى غير نصيح ، فقال هذا لم تعمل فيه العوامل (٢) .
وقال ملاح : وقع علينا اللصوص ، فأول رجل دخل علينا السفينة كان طول هذه المدرى ، وكانت نخذه أغاظ من هذا السكّان ، واسود وجه صاحب السفينة حتى صار أشد سوادا من هذا القير (٣) .

وقال أبو هفان : سألت وراقا عن حاله ، فقال عيشى أضيق من محبرة وجسمى أدق من مسطرة ، وجاهى أرق من الزجاج ، ووجهى عند الناس أشد سواداً من الخبر بالزاج ، وحظى أخفى من شق القلم ، ويدائ أضعف من قصبة ، وطعائى أمر من العصف ، وشرائى أحر من الخبر ، وسوء الحال ألزم لى من الصمغ !
فقلت له : عبرت عن بلاء بلاء (٤) .

وكان بعض الأطباء فى خدمة بعض الملوك أثناء غزوة ، ولم يكن معه وقت الانتصار كاتب ، فتقدم إلى الطبيب أن يكتب إلى الوزير يعلمه بذلك ؟ فكتب : أما بعد فإننا كنا مع العدو فى حلقة كدائرة اليمارستان ، حتى لو رميت مبضعاً لم يقع إلا على قيفال ، فلم يكن إلا كنبضة أو نبضتين حتى لحق العدو بحران عظيم ، فهلك الجميع بسعادتك يا معتدل المزاج (٥) .

ومشى السيدق البريدى مع امرأة جميلة ، فقال له شمس الدين المنجم الشاعر :
أراك يا بيدق تفرزن حول هذه النفس !
فقال له : وإذا كان ذلك ؟

(١) يتيمة الدهر للتحالى — ١ — ٤٥ (٢) مطالع البدور — ٢ — ٥٦

(٣) البيان والتبيين — ٢ — ١٤٢ ط — السندوبى . (٤) زهر الآداب — ٢ — ٢٠٠

(٥) مطالع البدور — ٣ — ١٠٨ والقيفال بالكسر : العرق فى اليد يفصد .

فقال المنجم : أخشى عليك من ذلك الرخ يقطعك من الحاشية ، ويرميك عن الفرس ، ويقطع عليك الرقعة ولو كان في كفيك القليل !

يشير بقوله « الرخ » إلى أجد الأعيان وكان يجب المرأة .^(١)

وقد جمعت هذه القطعة كثيراً من مصطلحات الشطرنج .

وقد وصفت البلاغة على السنة قوم من أهل الصناعات^(٢) .

كما وصفت الحرب كذلك^(٣) .

فاستعملوا في أوصافهم مصطلحات فنونهم ، وأسماء آلاتهم فجاءوا في هذا

بكل طريف وغريب !

ولا شك عندنا أن بعض ذلك موضوع ؛ لارتفاع مستوى هذا الكلام

عن طبقتهم ، ولكن لا خلاف أن الذين وضعوا هذه الأقوال ونخلوها

أصحاب هذه الصناعات والمهن ، تخيلوا أن هؤلاء الأقوام لو أتاحت لهم

القدرة على صوغ هذا الكلام ما نطقوا بغيره .

ونجد مصداق هذا في الشعر الملوكي وما ماثله من شعر المترفين ، وفي

شعر الفروسية والبطولة والحماسة ، حيث تلمس في الأول لين الحاشية وبلهنية

العيش ، ونضرة النعيم ، وزهرة الدنيا ، وترى في الثاني أدوات القتال

وآلات الحرب ، وتعانق السيوف واشتجار الرماح ، وجيشان الدماء ،

وطرد الفرسان .

فمن الأول قول الأمير تميم الفاطمي^(٤) :

نَقَبْتُ وَجْهَهَا بِخِزْ وَجَامَتِ بِمَدَامِ مَنَقَبِ بَزْجَاجِ

فَتَأَمَلْتُ فِي النِّقَابَيْنِ مِنْهَا قَرَأَ طَالِعًا وَضُوءَ سَرَجِ

وقول سيف الدولة :

كَأَنَّمَا النَّارُ وَالرَّمَادُ مَعَا وَضُوءُهَا فِي ظِلَامِهِ يَحْجِبُ

(١) مطالع البدور - ١ - ١٧٧

(٢) طراز المجالس - ٦٨

(٣) زهر الآداب - ١ - ١٥٤

(٤) زهر الآداب - ٢ - ١٧٧

وجنة عذراء مسها خجل فامتدت تحت عنبر أشهب
ومن الثاني قول أبي فراس :

والماء يفصل بين زهر الروض في الشطين فصلا
كسباط وشى جردت أيدى القيون عليه نصلا
وقوله يصف بستانه المسمى « البديع » (١) :

انظر إلى زهر الربيع والماء في برك « البديع »
وإذا الرياح جرت عليه في الذهاب وفي الرجوع
نثرت على بيض الصفا مخ بيننا حلق الدروع

فانظر إلى هذا الفارس الشاعر ، كيف لم يفارقه خيال البطولة ! فأحال
هذا البستان « البديع » ، الوديع ميدانا لمعركة طاحنة تتطايّر فيها أنسجة الدروع
على شفار السيوف !

ولإبراهيم بن موسى بن جميل :

غزتي بجيش من محاسن وجهها فعبّا لها طرفي ليدفع عن قلبي
فلما التقى الجمعان أقبل طرفها يريد اغتصاب القلب قسر أعلى الحب
ولما تجارحنا بأسياف لحظنا جعلت فؤادي في يديها على العضب
وناديت من وقع الأسنة والقنا على كبدي يا صاح مالى وللحب
فصرت صريعاً للهوى وسط عسكر قتيل عيون الغانيات بلا ذنب
وقد لا يكون هذا الشاعر من رجال الحرب ، ولكن هذا لا يمنع أن
تكون فيه طبيعة الفرسان .

ومثله ما نسب إلى حمدونة الأندلسية ، وقيل لمهجة بنت عبد الرازق
الغرناطية (٢) :

ولما أبى الواشون إلا فراقنا وما لهم عندي وعندك من ثار

وشنوا على أسماعنا كل غارة وقلّ حماق عند ذاك وأنصاري
غزوتهم من مقلتيك وأدعني ومن نفسي بالسيف والسيل والنار
ويقال فيه ما قيل في سابقه ، فبعض النساء فيهن طبيعة الرجال ؛ وهن
اللاتي يسمين بالمدكرات :

ومن أروع ما قرأت في ذلك : ما رواه النويري ^(١) ولم ينسبه إلى قائله
ولكن جاء في غضون الآيات ما يدل على أنه كان من الفرسان المحاربين .
ويروك فيما قاله : أنه وازن بين أدوات الحرب وأدوات الغرام موازنة
من مارس المعركتين معا وقاسى حرهما ، فعرفنا منها أيهما أشد هولا
وأصعب مراسا :

هزوا القدود وجردوا الأجفانا فاطلب لنفسك إن قدرت أمانا
والق السلاح إذا اثنونا وإذارنونا وكن الجبان وإن ملكت جنانا
واحذر ضرباً بالعيون وسل به مثلى ، وجانب بالقدود طعانا
فلقد رأيت الأسد وهى كواسر تخشى بمعترك الهوى الغزلانا
لا تعباً بذابل ويباثر وخف المهفف واحذر الوسنانا
لولا تشابه مقلة أو قامة ماخفت يوماً صعدة وسنانا
وأنا الذى حضر الوقائع فى الهوى وأقام فى أسر الغرام زمانا
ولكم رأيت به الشدايد مرة ولكم رأيت به الممات عيانا
وثبت بين معاطف ولواظ فى موقف يذر الشجاع جبانا
مستسلماً للعشق لا مستصرخا صبراً ولا مستنجداً سوانا
أرجو الشهادة إن قُتلت به وما ولّيت فيه ولا ثنيت عنانا
يا ويح قلب ما خلا من شغله بصباية وحجة مذكانا

لوقشوه لما لقوا لسوى الهوى فيه ولا غير الغرام مكانا
ومن قول شاعرنا ، حافظ ، فى ذلك يصف مجلس أنس :

وفتيان راح أقسموا أن يبددوا جيوش الدجى ما بين أنس وأفراح
فهبوا إلى خمارة قيل إنها قعيدة خمر تمزج الروح بالراح
وقالوا لها إنا أتينا على ظما نحاول ورد الراح رغماً عن اللاحي
فقامت فى أجفانها كسل الكرى وفى ردفها واستعرضت جيش أقداح

وقد علق شارح ديوانه الأستاذ ، محمد هلال ، على هذه المقطوعة
فقال : يلوح لنا أن صاحبنا لم يقل هذه الآيات إلا فى ليلة قضى نهارها فى
تمرينات عسكرية ، ما لبث عقبها أن لحق بخلائه فى مجلس لهوهم هذا ، مفعماً
صدره بألفاظ الجندية من تجميش الجيوش ، وتبديد العدو ، واستعراض
الجند إلى غير ذلك ، مما يقره فى قراره ، ويرده إلى معدنه (١) .

الفصل الثاني والعشرون

قيمة التشبيه المقلوب وتطوره وما يتصل بذلك

بعد هذا الاستطراد الذى أوردناه فى الفصل السابق والذى هو من صميم موضوعنا نقول : إن البيانيين لم يفهم أن يُشيدوا بجمال التشبيه المقلوب ، فقال الوطواط : أجمل التشبيهات ، وأكثرها قبولا لدى الطباع : هى تلك التى إذا انعكست ، وشبه فيها المشبه به بالمشبه ، فإن الكلام يستقيم مع صحة المعنى وسلامته وصواب التشبيه وصحته ، مثل تشبيه الطرة بالليل البهم ، فإنهم إذا شبهوا الليل البهم بالطرة كان التشبيه جميلا مقبولا ، ومثل تشبيه الهلال بنعل الجواد ، فإنهم إذا شبهوا نعل الجواد بالهلال كان التشبيه كذلك حسنا (١) .

وهذا كلام صحيح فى أصله ، ولا يعكر عليه إلا تشبيه الهلال بنعل الجواد وبالعكس فإننا لا نراه حسنا ؛ فإنه وإن تشابها هيئة فى الجملة إلا أن فيه زراية على هذه الصورة السماوية الوضيئة الجميلة ، ونزولا بها إلى مستوى شئ محقر .

وحسبنا أن بعض المتورعين نهى عن تصغير القمر لأن الله كبره . ويقول الحصرى : وقد ترى تسكير الشعراء من تشبيه أوراك النسوان بالرمل والكشبان ، قال الشاعر :

ويض نصيرات الوجوه كأنما تَأْزُرْنَ دُونَ الْأَزْرِ رَمَلَاتٍ عَالِجٍ (٢)

(٢) عالج : مكان به رمل .

خِذال الشوى لا تحشى غير خلقها إذا الرّسح لم يصبرن دون المنافع^(١)
يذرّن مروط الخزّ ملأى كأنها قصار وإن طالت بأيدي النواصج
وهذا المعنى متداول متناقل في الجاهلية والإسلام ، فأغرب ذو الرمة
في قلبه وأحسن فقال يصف رملا^(٢) :

ورمل كأوراك العذارى ، البيت المتقدم ،
ويقول داود الأنطاكي : وأرفع الكل — يريد أساليب التشبيه —
جعل الممدوح مشبهاً به محذوف الأداة ، مرشحا بلطائف الأوصاف ،
وقل سالكه كقوله :

شمس الضحا كجيينك الوضاح أف لمن جعلوه كلمصباح^(٣)
ويلاحظ أن المثال الذي أورده غير محذوف الأداة .
على أنه ليس من الحتم ، أن يقع التشبيه المقلوب صريحا ، فيعد منه ما لم
يعرج فيه على ذكر التشبيه بل يشعر باحتياج المشبه إلى المشبه^(٤) .
وكثيراً ما يقع كذلك كقول يزيد بن معاوية :
مليحة لورأتها الشمس ما طلعت من بعد رؤيتها يوما على أحد
وقول الخالدي :

يا قضيبا يمس تحت هلال وهلال يرنو بعين غزال
منك يا شمسنا تعلمت الشمس م دنو السنّا وبعد المنال
وقد سرقه من قول ابن الرومي^(٥) :

يا شبيه البدر في الحسن م وفي بعد المنال

(١) خِذال الشوى : ممتلكات الأطراف ، والرسح : جمع رسحاء ؛ قليلة لحم العجز
والفخذين ، والمنافع : الحشيات توضع فوق الأرداف لتضخيمها .

(٢) زهر الآداب — ٢ — ٩٣ — ٩٤ (٣) تزيين الأسواق — ١٨٩

(٤) المصدر نفسه — ١٨٩ (٥) بقيمة الدهر — ٢ — ١٨٣

ولسيف الدين بن المشد :

وبهم حتى من لو بدت للشمس من تحت النقاب
سرت محاسن وجهها خجلا ولاذت بالسحاب
وقول كشاجم :

البدر لا يغنيك عنها إذا غابت وتغنيك عن البدر
في فها مسك ومشمولة صرف ، ومنظوم من الدر
فالمسك للنسكة والخمر للريقة م واللؤلؤ للثغر
وقول ابن النفيس القطرسي :

أتظن غصن البان يعجبني م وقد عاينت قدك ا
أم يخدع النفاخ الحاظي م وقد شاهدت خدك ا
وقول عبد الجليل بن وهبون :

وافت به غفلة الرقيب والنجم قد مال للغروب
نشوان قد هزت الحميا منه قضيبا على كتيب
يعثر في ذيله فيحكي عشرة عينيه في القلوب
واقه لو نالت الثريا ما نال من بهجة وطيب
دنا إليها الهلال حتى قبل في كفها الخضيب

وقول ابن عبد ربه :

أدعو عليك فلا دعاء يسمع يا من يضر بناظريه ويسمع
للورد حين ليس يطلع دونه والورد عندك كل حين يطلع

وقوله :

يقولون في البستان للعين لذة وفي الخمر والماء الذي غير آسن
إذا شئت أن تلقى المحاسن كلها ففي وجه من تهوى جميع المحاسن
وقد فطن ذوو الذوق السليم بالفطرة إلى جمال التشبيه المقلوب وعلو
منزله في البيان .

فقال الأصمعي (١) : سمعت أعرابيا يقول إنكم معاشر أهل الحضرة ، لتخطئون المعنى ، إن أحدكم ليصف الرجل بالشجاعة فيقول : كأنه الأسد ويصف المرأة بالحسن فيقول : كأنها الشمس ، ولم لاتجعلون هذه الأشياء بهم أشبهه ! ثم قال والله لأنشدتك شعراً يكون لك إماماً ، ثم أنشدني :

إذا سألت الورى عن كل مكرمة لم تُلَفْ نسبتها إلا إلى الهول ،
 فتي جواداً أعار النيل نائله فالنيل يشكر منه كثرة النيل
 والموت يرهب أن يلقي منيته في شدة عند لف الخيل بالخيل
 لو عارض الشمس ألفي الشمس مظلمة أو زاحم الصمُّ أجاها إلى الميل
 أو بارز الليل غطته قواده دون الخوافي كمثل الليل بالليل
 أمضى من النجم إن نابته نائبة وعند أعدائه أجراً من السيل

وهذا الأعرابي دقيق في ملاحظته ، ولكنه لم يحسن الاختيار ، فالشعر غليظ ثقيل ، وأجود منه عند أبي هلال العسكري (٢) .
 قول الآخر :

علم الغيث الندى حتى إذا ما حكاه علم البأس الأسد
 فله الغيث مقر بالندى وله الليث مقر بالجلد

نظم التوبيخ المقلوب .

والحق أن أهل الحضرة لم يقصروا في هذا اللون من التشبيه ، ولم يخطئوا المعنى — كما زعم هذا الأعرابي — فحين استبحرت الحضارة في العصر العباسي ، وعم الترف ولان العيش ، أخذ الشعراء بحظ من المتع والمباهج ، وعلت ثقافتهم بما حصلوا عليه من معارف جديدة متنوعة ، فاتسعت أمامهم دائرة الابتداع ، وتزاحوا على أبواب الخلفاء والأمراء والوزراء بالمناكب ،

(١) نهاية الأرب — ٣ — ١٨٥ (٢) ديوان المعاني — ١ — ٢٥

اقتناصاً للجوائز والصلوات ، فغالوا في المدائح ، وافتنوا في الغزل ، ووشّوا شعرهم بألوان من الصنعة اللطيفة تساقط الطبع ولا تخطئ عليه ، كان منها هذا اللون من التشبيه الذي يعتمد المبالغة .

نعم إنه ليس بجديد عليهم ، فقد سبقوا به .

يقول قيس بن الخطيم — وهو من عاش في الجاهلية وأدرك الإسلام ولم يسلم — :

فما روضة من رياض القطا كأن المصاييح حوذانها^(١)

بأحسن منها ولا مزنة دلوح تكشف إيجانها
قال أبو الفرج الأصبهاني :

أراد : كأن حوذانها المصاييح فقلب ، والعرب تفعل ذلك .

قال الأعشى :

كأن الجمر مثل ترابها .

أراد : كأن ترابها مثل^(٢)

ويقول المرحوم تيمور باشا جاء البيت كما يأتي :

حتى إذا احتدمت وصا ر الجمر مثل ترابها
أي وصار ترابها مثل الجمر .

ثم يقول : وقد روى هذا البيت في الأضداد لأبي الطيب اللغوي .
وفي القرطين للسكناني .

والذي في الأضداد للسجستاني :

حتى يصير الجمر مثل ترابها

على أنه شطرييت فإن لم أجده في نسخة ديوان الأعشى التي بيدي ، ولعله

(١) القطا : من أرض البصرة والمحاذان بالفتح : نبات حلو طيب الطعم . والدلوح :

السكوب ، والإيجان : الظلام . (٢) الأغاني — ٢ — ٤٤٧ (ط . دار الكتب) .

لأعشى آخر ، إلا أن عادتهم إذا أطلقوا أرادوا الأعشى الأكبر ^(١) .
وكذلك ورد في القرآن الكريم مثلها حكاية — جل وعلا — عن مستحلي
الربا من قولهم : « إنما البيع مثل الربا ، في مقام : إنما الربا مثل البيع ، لأن
الكلام في الربا لا في البيع ، ذهابا منهم إلى جعل الربا في باب الحل أقوى
حالا ، وأعرف من البيع .

وقوله — تعالى — : « أفمن يخلق كمن لا يخلق ، لمزيد التوبيخ فيه دون
أن يقول : أفمن لا يخلق كمن يخلق مع اقتضاء المقام بظاهره إياه ، لكونه
إلزاما للذين عبدوا الأوثان وسموها آلهة تشبيها بالله — تعالى — فقد جعلوا
غير الخالق مثل الخالق ^(٢) .

وقد استشكل بعض العلماء هذا التشبيه ، وعدم هذه الآية مشككة ، لأن
قاعدة التشبيه تقتضي أن يقال : أفمن لا يخلق كمن يخلق ، ولا يقال : إنهم
كانوا يعظمون الأصنام أكثر ، لأنهم لم يقولوا ذلك ، وإنما قالوا ، إنما
نعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى ، بخلاف قوله — تعالى — : « أفنجعل
المسلمين كالجرمين » وقوله — تعالى — : « أم نجعل المتقين كالفجار » فإنهم
لما كانوا يقولون : نحن نسود في الآخرة كما سدننا في الدنيا ، جاء الجواب
على وفق معتقدهم : أنهم أعلى والمسلمون أدنى .

وأجاب بعضهم : بأن الخطاب لعباد الأوثان ، وهم بالغوا في عبادتها حتى
صارت عندهم أصلا في العبادة ، فجاء الإنكار على وفق ذلك ^(٣) .

ويقول السكاكي : وعندى أن الذى تقتضيه البلاغة القرآنية : هو أن
يكون المراد بمن لا يخلق : الحى القادر من الخلق لا الأصنام ، وأن يكون

(١) أو هام شعراء العرب ٧٦ — ٧٧

(٢) مفتاح العلوم — ١٨٤

(٣) المواهب الفتحية للشيخ حمزة فتح الله — ١ — ١٢٨

الإِنْكَارَ موجهًا إلى توهم تشبيهه الحى العالم القادر من الخلق به — تعالى
وتقدس عن ذلك علوًّا كبيراً — تعريضاً به عن أبلغ الإنكار لتشبيهه ما
ليس بحى عالم قادر به — تعالى — .

ويكون قوله : « أفلا تذكرون » تفييه توبيخ على مكان التعريض^(١) .
وكذا قوله — تعالى — « أفأرأيت من اتخذ إلهه هواه » من هذا النوع .
وقول رؤية :

وسمهم مغبرة أرجاؤه كأن لون أرضه سماؤه
فالأصل : كأن لون سمانه لون أرضه .

قالوا : والاعتبار اللطيف : هو المبالغة في وصف السماء بالمغبرة ، حتى
كانه صار بحيث يشبه به لون الأرض في ذلك مع أن الأرض أصل فيه^(٢) .
ومن آثار العصر الأموى قول ذى الرمة :
ورمل كأوراق العذارى البيت المتقدم ،
وقوله :

وليل كأثناء الزويزى جبهته بأربعة ، والشخص فى العين واحد
ويروى كجلباب العروس أدرعته .

والزويزى : هو الطيلسان ، وكل ذلك وصف له بالسواد ، لأن
الطيلسان أسود ، وجلباب العروس أخضر ، والعرب تجمع بين الخضرة
والسواد^(٣) .

وقول المجنون — وقد كثر القلب فى شعره — :

يا أخوى اللذين اليوم قد قنصا شهما ليلي بجبل ثم غلاها
إنى أرى اليوم فى أعطاف شاتكا مشابها أشبهت ليلي فحلاها

(١) مفتاح العلوم ١٨٤

(٢) أو هام شعراء العرب — ٦٨

(٣) أمالى المرتضى — ٣ — ١٣

وقوله :

أيا شبه ليلى لا تُراعى فإننى لك اليوم من وحشية لصديق
أقول وقد أطلقتها من وثاقها فأنت لليلى ما حبيت عتيق
ونحو قول المجنون : ما أنشده على بن سليمان الأخفش لعقوب بن
الريبع :

راحوا يصيدون الظباء وإننى لأرى تصيدها على حراما
أشبهن منك سوافنا ولو احظا فأرى على لها بذاك ذماما
أعزز على بأن أروع شبيها أو أن يذقن على يدى حماما
ولكن ما ورد من ذلك فى العهد الجاهلى والإسلامى ، كان أشبه بالقطر
يعقبه الوابل المنهمر ! بالنسبة لما حدث فى العصر العباسى الأول وكان فى
جملة ساذجا بدائيا خاليا من التألق والتحلية ، وأين يقع قول ذى الرمة فى
تشبيه الرمل بأوراك العذارى من قول البحرى :

فى طلعة البدر شئ من ملاحظتها وللقضيب نصيب من تشبهها
أين يقع الرمل والأوراك بما فيهما من غلظ وخشونة وجساسة وضخامة
مفرطة مضحكة من ملاحظة ، حاز البدر منها شيئا قليلا ، وتثن نال منه الغصن
حظا ضئيلا !

بل أين يقع هذا كله من قول خالد الكاتب :

رأت منه عيني منظرين كما رأت من الشمس والبدر المنير على الأرض
عشية حياني بورد كأنه خدود أضيفت بعضهم إلى بعض
ونازعنى كأسا كأن حبابها دموعى لما صد عن مقلتي غمضى
وراح وفعل الراح فى حركاته كفعل نسيم الريح بالغصن الغض

أرأيت إلى هذه الحدود التى أضيف بعضها إلى بعض ؟

إننى لا أدرى ما تأثير هذا فى نفسك ؟ ولكننى أدرى أن إبراهيم بن
المهدى حينما سمعها من الشاعر ، استخفه الطرب ! فزحف فى مقعده حتى
صار فى ثلث فراشه ! ثم هتف : يا قتي ، شبه الحدود بالورد ، وأنت شبهت
الورد بالحدود !

ثم أجازته بصلة سنية^(١) .

ومن الأمثلة الجميلة فى هذا العصر : قول ابن الرومى يصف الشقائق :
تصوغ لنا كف الربيع حدائقا كعقد عقيق بين سيمط لآلى
وفيه نوار الشقائق قد حكى حدود غوان نُقِطت بغوالى
وقول مسلم بن الوليد :

أجذك ما تدرين أن رب ليلة كأن دجاها من قرونك تنشر
وقول الحسين الخليع :

وصف البدر حسن وجهك حتى خلت أنى - وما أراك - أراك
وإذا ما تنفس النرجس الغض م توهمت به نسيم شذاكا
خدع للمنى تعللنى فيك م ياشراق ذا وبهجة ذاك
وقول أبى نواس يمدح الأمين - وهو ولى عهد - :

تنبه الشمس والقمر المنير إذا قلنا كأنهما الأمير
فإن يك أشبا منه قليلا فقد أخطأهما شبه كثير
لأن الشمس تغرب حين تسمى وأن البدر ينقصه المسير
ونور محمد أبدا تمام على وضوح الطريقة لايجور
وقوله فى الوصف :

لدى نرجس غصن القَظاف كأنه إذا ما منحناه العيون عيون
وقوله فى الغزل :

يا نظرة ساقى إلى ناظرى أسباب ما يدعو إلى حتفه

(١) زهر الآداب - ٤ - ١٣٩ - ثمرات الأوراق للحموى - ٢ - ٢٧٥ - على هامش المستطرف .

من حسن ظبي حسن دله يقصر الواصف عن وصفه ✓
 في البدر من صفحته لمحّة ولحّة في الظبي من طرفه
 مقاتل الأنفس في لحظه وفي ثناياه وفي كفه
 وقول علي بن الجهم — وهو أحسن ما قيل في معناه — :

أما ترى اليوم ما أحلى شمائله صحو وغيم وإبراق وإرعاد
 كأنه أنت يا من لست أذكره وصل وهجر وتقريب وإبعاد

ويذكرون : أن الشعراء اجتمعوا بباب المعتصم ^(١) ، ففقد لهم محمد بن
 عبد الملك الزيات ، فقال : إن أمير المؤمنين يقرأ عليكم السلام ، ويقول لكم
 من كان يحسن أن يقول مثل قول النمرى في الرشيد فليقل :

خليفة الله إن الجود أودية أحلك الله فيها حيث تجتمع
 إن أخلف القطر لم تخلف شمائله أو ضاق أمر ذكرناه فيقسع

فقال ابن وهيب : فينا من يقول مثله :

ثلاثة تشرق الدنيا بهجتها شمس الضحا وأبو إسحق والقمر
 تحكى أفاعيله في كل نائبة الغيث والليلث والصمصامة الذكر
 وقول البحترى :

إذا زهتها الصبا أبدت لها حبكا مثل الجواشن مصقولا حواشيا ^(٢)
 وقوله :

شقائى يحملان الندى فكأنه دموع التصابي في خدود الخرائد
 فإذا تعاقبت السنون وجاء العضر العباسى الثانى وما تلاه من العصور
 استحسنت هذه الصنعة وبلغت ذروتها ، ورأينا هذا اللون — أخيراً —

(١) ديوان المعاني للعسكري — ١ — ٢٨

(٢) زهتها : حركتها تحريكاً شديداً ، والجواشن الدروع.

يجرى مع المحسنات البديعية في مضارها الواسع ، فظهرت عليه سمة التكلف ،
وشابته المبالغة ، وامتزجت به فنون من الزخارف ألقت عليه ظلا ثقيلا ،
ولكن بعض الشعراء كان قوى الطبع ، صنع الفسك ، رهيف الذوق ،
جاء به آية في الخفة والرشاقة ، كقول ابن المعتز : — وهو من المسكثين
في ذلك — :

سقتني في ليل شبيه بشعرها شبيهة خديها بنصير رقيب
فأمسيت في ليلين بالشعر والدجي وشمسين من خمر وخذ حبيب
وقوله :

والأفحوان كالشاي الغر قد صُقلت أنواره بالقطر
وقوله :

وتوقد المريح بين نجومها كهارة في روضة من نرجس^(١)
وقوله :

والصبح في طرة ليل مسفر كأنه غرة مهر أشقر
وقوله يصف سحابة :

وساريه لا تمل البكا جرى دمعها في خدود الثرى
سرت تقدح الصبح في ليلها يبرق كهنديّة تلتضى
والتشبيهات في كل ذلك مقلوبة .

وقول الأمير تميم الفاطمي — وقد جاء على صيغة المراجعة — :
ما هجرت المدام والورد والبد ر بطوعي لكن برغم وكره
منعتني من الثلاثة من لو قتلتني لم أحك بالله من هي
قالت : الورد والمدامة والبد ر ضيائي ولون خدي ووجهي

(١) البهار : الأفحوان الأصفر عند بعضهم .

قلت بخلا بكل شيء ! فقالت
وقول الخالدي :

أهلا بشمس مدام من يدي قر
كان خمرته إذ قام يمزجها
إذا سقتك من الممزوج راحته
وقوله :

أما ترى الغيم يا من قلبه قاسي
قطر كدمي ، وبرق مثل نار جوي
وقوله :

الوجه ريحانة منه تراح لها
الترجس الغض عيناه وطرته
وقول عبد الجليل بن وهبون :

زعموا الغزال حكاه قلت لهم نعم
وكذا يقولون المدام كريقه
وقول آخر :

ومُقرطَقُ يُغني النديم بوجهه
فعل المدام ولونها ومذاقها
وكان من عادة عوام الفرس في النيروز ، رفع النار في ليلته ، ورش
الماء في صديحته ، فقال المعوج الشاعر يصف ذلك :

(١) راح له يراح : استشرف له وفرح . (٢) المقرطق بالقاف : لا بس القباء ،
وبعض الناس يظنه لا بس القرط ، والمقرطف بقاف وفاء : هو اللابس لثوب له خل ، والمقرط :
لا بس القرط .

كيف ابتهاجك بالنيروز ياسكنى وكل ما فيه يحكىنى ويحكىه
فناره كليب النار فى كبدى وماؤه كستوالى عبرتى فيه

ومما يلاحظ : أن المتأخرين أكثر ما أوقعوا التشبيه المقلوب فى الغزل
وأكثر ما استمدوا صوره من نتائج الطبيعة كالأنهار والغصون والأزهار
والثمار يشبهونها بأعضاء المحبوب .

كقول ابن سارة المغربى :

والنهر قد رقت غلائل صبغه وعليه من صبغ الأصيل طراز
تترقق الأمواج فيه كأنها عسكن البطون تهزها الأعجاز (١)

وقول الحسن بن الغليظ المالى من شعراء الذخيرة :

ولما تبدى الورد فوق غصونه وذكرنى بالورد فى صفحة الخند
ذكرت به من خده لى روضة تميم بها من حسنها روضة الورد

وقول القاضى الجرجانى :

أفدى الذى قال وفى كفه مثل الذى أشرب من فيه
الورد قد أነع فى وجنتى قلت : فى باللم يحنينه

وقول الصفدى :

عذارك والطرف يا قاتلى يحاكيهما الآس والزرجس
وقد صار بينهما نسبة فهذا يدبُّ وذنا ينعس

وقول الخالدى فى هدية عنب :

هدية شرفتنا من أخى ثقة نعم الهدية إذ وافتك من يده
نوعان من عنب جاءا على طبق كأن طيهما من طيب محتده

(١) العكن جمع عكنة بضم فسكون : ما نطوى وتثنى من لحم البطن سمنا .

وقول آخر في السفرجل :

سفرجلة صفراء تحكى بلونها حبا شجاء للجيب فراق
إذا شمها المشتاق شبه ريحها بریح حبيب لذ منه عناق
وطيبة عند تناول طعمها كريق حبيب طاب منه مذاق
ولآخر في الريحان :

قضب من الريحان شاكل لونه إذا ما بدأ للعين لون الزبرجد
فشبهته لما بدا متجعدا عذاراً تبدى في سوائف أغيد
ولآخر في أشجار النارج :

وأشجار نارج كأن ثمارها حقائق عقيق قد ملئت من الدر
يطالعه بين الغصون كأنها قدود عذارى في ملاحفها الخضر
وبلاحظ أن التفاح أكثر الفواكه حظاً من التشبيه عامة والمقلوب خاصة .

قال العسكري :

وتفاحة حمراء صفراء غضة كخد محب فوق خد حبيب
أحياناً طوراً وأشرب مثلها من الراح من كفى أغن ربيب
وقال ابن رشيق :

وتفاحة من كف ظبي أخذتها جناها من الغصن الذي مثل قده
حكمت لمس نهديه وطيب نسيمه وطعم ثناياه وحمرة خده
وقال ابن عباد :

ولما بدا التفاح أحمر مشرقا دعوت بكأسى وهى ملائى من الشفق
وقلت لساقها أدرها فإنها خدود عذارى قد مجمعن على طبق
ولآخر :

أهدى لنا التفاح من كفه من لم يزل نجنيه من خده

وخط بالمسك على بعضها قد عطف المولى على عبده
ولآخر في الرمان :

طعم الوصال يشوبه طعم النوى سبجان خالق ذا وذا من عود
فكأنها والخضر من أوراقها خضر الثياب على نهود الغيد
وقال فيه محمد بن عمر المقرئ السكاتب :

ورمان رقيق القشر يحكي ثدى الغيد في أثواب لا ذ^(٢)
إذا قشرته طلعت علينا فصوص من عقيق أو بجازی
وللصنوبرى - وهو من المبدعين في وصف الرياض - قطعة رائعة
يشبه فيها ماحواه الروض من محاسن بمحاسن الخرد الغيد ، حتى ليخيل إلينا
أن الروض مغرض من معارض الجمال قد تبرجت فيه عرائس سافرات
يعرضن مفاتهن على العيون ! ولم يكفه ذلك حتى علل حبنا للرياض تعليلا
طريفاً ، وهو تشبهها بالحبائب بما تجلوه علينا من جمالها وزينتها .

قال :

تشبه الروض بالحبائب قد زاد المحبين في محبتها
كم من قدود هناك من قضب تميل من لينها ونعمتها^(١)
كم وجنة خالها يلوح لنا سواده في صفاء حمرتها
وكم ثيابا تسيب بكتفها وكم عيون تسيب بلحظتها
كل صفات الجمال بمجملته بين تفاريقها وجمالها

(١) يريد بطعم الوصال : حبه ، و بطعم النوى : قشره .

(٢) اللاد : ثياب حر من الحرير كانت تنسج في الصين ، والبجازی : حجر فيه خرية

وأجوده ما اشتدت حرته وكثر بريقه .

(١) النعمة : بالفتح : التمتع .

وقد جاء التشبيه المقلوب في غير هذه المعاني التي ذكرناها ، كقول
أحمد بن أبي طاهر في تشبيه النار بنار العشق :

ونار كشار الشوق في قلب عاشق على أنه منها أحر وأوقد
ظلمت بها عند المبرد قائظا فما زلت في ألفاظه أتبرد

وقول أبي عبد الله الخليل لأحمد بن طولون يشبه النار بالسؤال : (٣)

والعار في مدحى لغيرك فاكفى بالجود منك تعرضى للعار
والنار عندي كالسؤال فهل ترى ألا تكلفني دخول النار

وقال آخر :

ذكرت سليمان وحر الوغى كقلبي سـاعـة فارقـها
فشبهت سمر القنا قدها وقد ملن نحوى فعمانقتها
وقال آخر في الشمعة :

حكمتني وقد أودى بي السقم شمعة وإن كنت صبا دونها متوجعا
ضنى وسهادا واصفرارا ورقة وصبراً وصمتاً واحتراقاً وأدمعا
وقال آخر في فتك العيون :

إن العيون النجل أمضى موقعا من كل همدى وكل يمانى
فضل العيون على السيوف لأنها قتلت ولم تخرج من الأجفان
والأصل فيه قول القائل :

بين السيوف وعينه مشاركة من أجلها قيل للأغماد أجفان

وقد يجتمع التشبيه المقلوب مع غيره في نسق واحد كقول
بعض الشعراء :

أهديت مشبه قدك المياس غصناً نضيراً ناعماً من آس
فكأنما يحكيك في حر كاته وكأنما تحكيه في الأنفاس

وقول العسكري :

حال بيني وبين بابك حالا ن وحول وقرب عهد عهد^(١)
فكان الوحول ليل محب وكان السماء كف جواد
وقول أبي جعفر الشطرنجي :^(٢)

أشبهك المسك وأشبهته قائمة في لونه قاعده
لا شك إذ لونكما واحد أنسكا من طينة واحده

وقول قطب الدين الحنفي من شعراء السلافة^(٣) :

لا وفرع كدجى الليل غسق وجبين ضوءه ضوء الفلق
ومحيا كف البدر به وحدود من حوالها شفق
ما أرى الغزلان إلا سرق منك جيداً والتفاتاً وحدق

ثم خافت فتولت شردا كيف لا يشرد خوفاً من سرق
ومن بديع ماورد منه في النثر قول أحمد بن أبي صالح — يصف جارية كاتبة — :
كان خطها أشكال صورتها ؛ وكان مدادها سواد شعرها ، وكان
قرطاسها أديم وجهها ، وكان قلبها بعض أناملها ، وكان يانها سحر مقلتها ،
وكان سكينها سيف لحظها ، وكان مقطها قلب عاشقها^(٤) .

وليس كل التشبيه المقلوب سواء في الحسن ، بل متفاوت في ذلك
تفاوتاً كبيراً بما يضاف إليه من أصباغ وألوان ، وبما يراعى فيه من دقة
وعمق ، وبما يجمله من أمور طريفة مخترعة ، وبما يلحظ فيه من دقة المشاكلة
في الوصف الجامع .

(١) الحول : القوة ، والعهد : أمطار الربيع الأولى جمع عهد .

(٢) نسبها القلقشندی إلى الزركشى في دنانير البرمكية . نهاية الأرب — ٢ — ٣٦

(٣) سلافة العصر أصدر الدين المذني — ٤٢٤

(٤) ديوان المعاني — ٢ — ٧٥

فقد جرى العرف مثلاً على تشبيه الخد بالتفاح ، ولكن لا يكفي أن تقلب التشبيه ، فتقول : تفاح كالخد ، حتى تكون أثبت بشيء بديع يعتد به في البلاغة ، غير أنك تستطيع أن تخلب القارىء وتثير إعجابه ، وتلهب شعوره ، وتقمعه أنك جالوت عليه صورة أنيقة فائنة إذا جئته بمثل قول ابن دريد :

وتفاحة من سوسن صيغ نصفها ومن جُلنار نصفها وشقائق
كأن النوى قد ضمَّ من بعد فرقة بها خد معشوق إلى خد عاشق

ذلك لأنه أعطاك هنا صورة دقيقة محكمة كاملة للتشبيه : تفاحة نصفها من سوسن ، ونصفها الآخر من جلنار وشقائق ، وكذلك التفاحة تتألف غالباً من لونين : أصفر وأحمر .

ثم نرى في الطرف الثانى المقابل خدين : أحدهما أحمر وهو خد المعشوق الذى يجول فيه ماء الشباب ، والآخر أصفر وهو خد العاشق الذى أذبلته اللوعة ووسمه الغرام بميسم الضنى ، فحدث هنا التلاؤم والانسجام والمشاكلة بين طرفى التشبيه .

ومن ذلك تدرك أن الجمع بين التفاح والخد مجردين ، لم ينظر فيه إلا إلى صفة واحدة وهى الخمرة فقط فى كليهما ، وشتان بين هذا التشبيه الناقص وبين ذلك التشبيه التام المستوعب .

هذا إلى ما حفلت به الصورة من أصباغ موفقة ساحرة فى السوسن والجلنار والشقائق ، تملك عليك حاسة البصر بما تستحضره لك من هذه الألوان المحببة ، ثم إلى ما يهز عاطفتك ، ويحرك فيك نوازع الشجى والطرب والعطف جميعاً من تصور اعتناق العاشق والمعشوق وتلاصق خديهما فى ظل الوصال بعد أن ضرب بينهما الفراق بضر باته !

وكم كان جميلا من الشاعر أن يصور لنا النوى — وهي مصدر البلاء
والشقاء — في صورة من رق للجديدين وعطف عليهما فساعفتها باللقاء !
فكيف بالله استحالة البخيل كريما والقاسي رحيمًا !
وكقول غالب الحجام في مليحة تلعب بتفاحة :

عابتها وبكفها تفاحة قد ألبست من وجنتها بردها
ترى بها في وجهها وتظنها من خدها سقطت فتبغى ردها
وكقول الآخر :

تفاحة جمعت لونين قد حكيا خدى حبيب ومحبوب قد التصقا
تعانقا فبدا واش فراعهما فاحمر ذا خجلا واصفر ذا فرقا
وكذلك يسهل عليك أن تقول كما قال ابن المعتز في الورد والحدود :
بياض في جوانبه احمرار كما احمرت من الخجل الحدود
وكما قال ابن الرومي في النرجس والعيون :

وأحسن ما في الوجوه العيون وأشبه به شيء بها النرجس
وكما قال آخر في الرمان والثدى :

رمانة مثل نهد السكائب الريم تزهى بشكل ولون غير مذموم
وكما قال شاعر عصرى في الشقائق والحدود :

وحدود تزهى بهن الغواني أين منها شقائق النعمان
ولكن ما قيمة هذه الصور الشاحبة الجامدة المجردة من وشى البلاغة
وعطرها المسكر ! بجانب هذه الصور التي يشع منها السحر وتنبض بها الحياة
في قول العسكري :

مر بنا يهتز في خطوه كالغصن غب العارض السارى
فشمت في وجنته وردة جاءت من المسك بأخبار
تلوح في حمرتها صفرة كالخند منقوطة بدينه — ار

وقول آخر :

كأنما الوردة لما بدت في كف من أهوى ويهوى
حمة خديه ، وفي وسطها صفرة لوني حين يلقاني
وقول أبي هلال :

حكى الرمان أول ما تبدى حقائق زبرجد يحشين درا
جاء الصيف يحشوه عقيقا ويكسوه مرور الصيف تبرا
ويحكي في الغصون ثدى حور شققن غلائلا عنهن خضرا
وقول الطغرائي :

وترى شقائقه خلال رياضها أوفت مطاردها على أزهارها^(١)
فكأنها والريح تصقل خدها والسحب تملؤها بصوت قطارها
أقداح يا قوت لطاف أترعت راحبات المسك سور قرارها
وكانها وجنات غيد أهدت بخدودها حمرا خطوط عذارها
وقول كشاجم :

فانظر بعينيك أغصان الشقائق في فروعها زهر في الحسن أمثال
من كل مشرقة الأوراق ناضرة لها على الغصن إيقاد وإشعال
حمرام من صبغة الباري ، بقدرته مصقولة لم ينلها قط صقال
كانها وجنات أربع جمعت فكل واحدة في صفحتها
وكذلك تجد ألوانا من هذا الفن الخصب الوثيق الصلة بالحياة ، والمجلو
في معارض زاهية من السحر والفتون في مثل قول ابن المعتز في النارج :
كأنما النارج لما بدت صفرة في حمرة كاللهيب
وجنة معشوق رأى عاشقا فاحمر ثم اصفر خوف الرقيب

(١) المطارد : أى رماحة واحدها مطرد كبير ، وهو الرمح القصير .

وقول التنوخي في الأقحوان والزرجس والشقيق :

أقحوان معانق لشقيق كشغور تعض ورد الحدود
وعيون من زرجس تتراءى كعيون موصولة التسديد
وكان الشقيق حين تبسدى ظلمة الصدغ في حدود الغيد

وقول ابن فرج صاحب كتاب الحقائق في الزرجس :

وزرجس تطرف أجفانه كمقلة قد دب فيها الوسن
كأنه من صفرة عاشق يلبس للبين ثياب الحزن

فهذه الأمثلة وما شاكلها لا ترى فيها القلب وحده ، بل ترى إلى جانبه ألواناً من الجمال وفنوناً من الحسن ، وضروباً من الوشى ، وترشحات لطاف خلاصة ، ومعاني دقاقة عميقة ، تؤلف جميعاً صورة متسقة مؤلفة تلهيك عن منزلة القلب نفسه ، فلا تكاد تحس به بل تصرفك إليها مباشرة لتستمتع بما حوته من سمات الجمال .

وما يلفت النظر أن التشبيه المقلوب لا يكاد يقع في غير التشبيهات الصريحة كما تدل عليه هذه الأمثلة المستفيضة التي أوردناها ، والذي وقع منه في التمثيل وقع في هذه الأمثلة التي نوهنا بما اتسمت به من دقة وحسن وطرافة وهي قليلة محدودة إذا قيسست إلى غيرها .

وقد عقد الإمام عبد القاهر موازنة بين تشبيه التمثيل ، خرج منها بالحكم على أن طريقة العكس لا تنجى في التمثيل على حدها في التشبيه الصريح ، إلا على ضرب من التأول والتخيل يخرج عن الظاهر خروجاً ، ويبعد عنه بعداً شديداً .

وقد أدار الموازنة على البيت المشهور :

وكان النجوم بين دجاها سنن لاح يبنهن ابتداع

وزبدة كلامه : أن تشبيه السنن بالنجوم تمثيل والشبه عقلي ، ثم إنه عكس فشبه النجوم بالسنن ، إلا أن ذلك لا يجري مجرى قولنا : كأن النجوم

مصاييح تارة ، وكان المصاييح نجوم أخرى ، ولا كقولنا : كأن السيوف بروق تومض ، وكان البروق سيوف تسل .

وذلك أن الوصف هناك لا يختلف من حيث الجنس والحقيقة ، وتجده العين في الموضعين ، وليس هو في هذا مشاهد محسوساً ، وفي الآخر معقولا متصوراً بالقلب ، تمتعاً فيه الإحساس ؛ فإنك تجد في السيوف لمعاناً ثم هيئة مخصوصة من الاستطالة وسرعة الحركة ، تجده بعينه أو قريباً منه في البروق فلو أن رجلاً رأى من بعيد بريق سيوف تلتضى من الغمود لم يعد أن يغلط فيحسب أن بروقا أو مضت .

ومحال أن يكون الأمر كذلك في التمثيل ؛ لأن السنن ليست بشيء يتراعى في العين فيشتبه بالنجوم ، ولا ههنا وصف من الأوصاف المشاهدة يجمع السنن والنجوم ، وإنما يقصد بالتشبيه في هذا الضرب ما تقدم من الأحكام المتأولة من طريق المقتضى ، فلما كانت الضلالة والبذعة وكل ما هو جهل يجعل صاحبها في حكم من يمشى في الظلمة فلا يهتدى إلى الطريق لزم عن ذلك أن تشبه بالظلمة ، ولزم عكس ذلك أن تشبه السنة والهدى والشريرة وكل ما هو علم بالنور .

فهذا ههنا كأنه ينظر إلى طريقة قوله : « وبدا الصباح كأن غرته ، في بناء التشبيه على تأويل هو غير الظاهر ، إلا أن التأويل هناك : أنه جعل في وجه الخليفة زيادة من النور والضياء يبلغ بها حال الصباح أو يزيد ، والتأويل هنا : أنه خيل ما ليس بمتلون كأنه متلون ثم بنى على ذلك (١) .

وقد اختلف العلماء في بيت أبي تمام الذي يصف به القلم من قصيدة يمدح بها ابن الزيات ، وهو :

لُعاب الأفاعي القاتلات لعابه وأرى الجنى اشتارته أبدعوا سل (٢)

(١) أسرار البلاغة - ١٨٢ (٢) هذا البيت أحد أبيات عشرة في وصف القلم ، وهي أحسن وأنعم ما قيل فيه ، والأرى : ما لصق من العسل في جوف الخلية ، واشتارته : استخرجته ، والعواسل جمع عاسلة مستخرجة العسل .

والرأى الراجح : أن لعبه مبتدأ مؤخر ، ولعاب الأفاعى خبر مقدم .
وأرى معطوف على الخبر عطف مفرد على مفرد ويكون لعاب القلم قد
شبه بشيئين وهما السم والعسل باعتبارين . فهو بالنسبة إلى الأعداء سم قاتل
وبالنسبة إلى الأولياء شفاء عاجل ، وبهذا الإعراب لا يكون من التشبيه
المقلوب .

ويجوز أن يكون ، لعاب الأفاعى ، مبتدأ ، ولعبه خبر ، وأرى الجنى
مبتدأ خبره محذوف تقديره ، لعبه ، أيضاً ، فيكون من التشبيه المقلوب
ويكون من عطف الجمل وفيه تسكلف .^(١)

وقد يقال : ولكن التقدير الأخير يذهب بشطر البلاغة في البيت ، وهو
القلب في التشبيه ، فالمعروف أن التشبيه المقلوب أبلغ من غيره لما تضمنه
من مزيد المبالغة .

وهذا الاعتراض شديد ووجيه في الظاهر ، ولكننا نقول : إن البلاغة
تبرأ من التعسف والتكلف ، وتجري على سنن الفطرة ، فإذا أخذنا بهذا
الرأى كنا كمن أخذ شيئاً وأضاع أشياء ، والتجرد من الشين خير من الجمع
بين الشين والزين ، وعدم التكلف أولى من التكلف ، وإلا فلاتقى الزيادة في
شئ ، بالنقص فيه من ناحية أخرى ، فالسلامة من العيوب يجب أن تكون
الغاية المنشودة أولاً ! وليس القلب بشئ إذا لم يقع موقعه اللائق به حتى
كأنه متعين فيه ، وكأن المقام ينادى عليه !

على أنه ليس كل تشبيه مقلوب يعد في نظر البليغ الأريب أفضل من الصريح
فهذا الحسن بن فارس يقول :

رب ليل كأنه فرع ليلي ما به كوكب يلوح لساى

ولا خلاف في أنه تشبيه جميل القلب ، وزاده هذا الجناس الرشيق بين
ليلة وليلة حسناً ، وليس في البيت شائبة تسكلف ولا غلظ ولا غموض ،

ولكن من الظلم أن نقيسه بقول ابن الرومي في هذا المعنى وقد خلا من القلب :

وفاحم وارد يُقْبَل مَشَا ه إذا اختال مُرْسِلَا عُذْرَه (١)
أقبل كالليل من مفارقة منحدرا لا يذم منحدره
حتى تناهى إلى مواطئه يلثم من كل موطن عفره
كأنه عاشق دنا شغفا حتى قضى من حبيبه وطره
ويقول شاعر يصف الثدى :

ورمانة شبهتها مذ رأيتها بنهد العذارى أو بقبة مرمر

ومع أن التشبيه جاء مقلوبا ، فإنه لا يساوى فتىلا إذا وزن بقول

عبد الله بن أبي السَّمُط بن مروان في حسنه ودقته وطرافته وتصويره
للواقع :

كأن الثدى إذا ما بدت وزان العقود بين النحورا
حقاق من العاج مكنونة يسعن من المسك شيئا يسيرا (٢)
وقول ابن المعتز :

قيح بمثلك أن تهجرى وأقبح من ذاك أن تهجرى
أقائلتي بفتور الجفون ورماتين على مرمر
كحقيين من لب كافورة برأسيهما نقطتا عنبر

وقول ابن الرومي :

مُلَقِمَات أطفالهن ثديا ناهدات كأحسن الرمان
مُفَعِّمَات كأنها حافلات وهى صفر من درة الألبان (٣)

(١) الوارد : الشعر الطويل المسترسل ، والغدر : خصل الشعر ، والعفر : التراب .

(٢) رواية القلقشندي : يسعن من الدر شيئا كثيرا . نهاية الأرب - ٢ - ٩٠ والأولى

أدق عندي . (٣) الدرة بالكسر : اللين أو كثرته .

وقد عذ الشهاب الخفاجي بيت المتنبي :

نحن ركب مانجن في زى ناس فوق طير لها شُخوص الجمال^(١)
من خلاف مقتضى الظاهر ، وجعله نوعاً من التنويع ، والتنويع فن
بديعي وهو ادعاء أن مسمى اللفظ نوعان : متعارف وغير متعارف على
طريق التخيل ، وهو يجرى في مواطن شتى منها التشبيه كالبيت المتقدم^(٢) .
وعده ابن جنى من التشبيه المقلوب فقال : وآخر من جاء به « شاعرنا »
يعنى أبا الطيب ، فجعل كونهم جنساً : أصلاً ، وجعل كونهم ناساً : فرعاً ،
وجعل كون مطاياهم طيراً : أصلاً ، وكونها جمالاً : فرعاً ، فشبه الحقيقة بالمجاز
في المعنى الذى أفاد المجاز من الحقيقة ما أفاد^(٣) .

وقد رده ابن سنان الخفاجي ، فقال : وهذا عندى تعسف من أبي الفتح
لا تقود إليه ضرورة .

ومراد أبي الطيب المبالغة على حسبها جرت به عادة الشعراء ، فيقول :
نحن قوم من الجن لجوبنا الفلاة والمهامه والقفار التى لا تسلك ، وقلة فرقنا
فيها ، إلا أننا في زى الإنس وهم على الحقيقة كذلك ، ونحن فوقها طير من
من سرعة إبلنا إلا أن شخوصها شخوص الجمال ولا شك في إيضاح ذلك^(٤) .
ويظهر أن ابن جنى — على علمه وفضله — كان يدق عليه أحياناً شعر
أبي الطيب ، فيسلك في فهمه مسالك غريبة لا تمت بصلة إلى الذوق الأدبي .
فقد شرح في كتابه الموسوم « بالمفسر » الذى ألفه في شعر أبي الطيب
قوله :

كل جريح تُرجى سلامته إلا فؤاداً رمته عيناه^(٥)

(١) وملجن : من الجن حذفت النون لالتقاء الساكنين حللاً لها على حروف العلة لمناسبتها
لها في الغنة . (٢) طراز المجالس — ٢٨ (٣) الخصائص — ١ — ٣٠٩
(٤) سر الفصاحة — ١٠٨

(٥) ويروى : إلا جريحاً ، وروى الواحدى : دهنه بدل « رمته » .

تبل خدي كلها ابتسمت من مطر برقه ثناياها
فقال : إنها كانت تبزق في وجهه .
فظن أن أبا الطيب أراد أنها كانت تبسم ، فيخرج الريق من فمها ويقع
على وجهه فشبهه بالمطر .
قال ابن الأثير : وما كنت أظن أن أحداً من الناس يذهب وهمه
وخاطره حيث ذهب وهم هذا الرجل وخاطره !
وإذا كان هذا قول إمام من أئمة العربية تشد إليه الرحال ، فما يقال في
غيره ! لكن فن الفصاحة والبلاغة غير فن النحو والإعراب (١) .
وإنما قصد أبو الطيب ، أنها كلها ابتسمت لمعت ثناياها كالبرق فبكي من
شغفه بها بدموع كالمطر تنحدر على خديه ، وقد جرت العادة أن المطر
يعقب البرق .

وقد جاء بهذا المعنى الخبز أرزى صريحا واضحا في قوله :
ومن طاعتي إياه يُمطر ناظري له حين يُبدى من ثناياه لي برقا
كأن دموعي تبصر الوصل هاربا فن أجل ذا تجرى لتدركه سبقا
وذكر الحصري أن أبا الحسن أنشد البيتين السابقين ، ثم قال : إن
المتنبى أخذ البيت الأول ، فقال : تبل خدي (٢) .
وإذا كان ابن الأثير قد عجب من فهم ابن جني لهذا البيت هذا الفهم
الغريب ، فإن من حققنا أن نعجب من قوله في التشبيه المقلوب : أن آخر من
جاء به شاعرنا !
وكيف فاته أن معاصريه من الشعراء قد جاءوا به ، وكيف يسلم له حكمه
أن عصره من العصور يخلو من هذا اللون على قرب تناوله من الخواطر .
فهذا السرى الرفاء ، وقد كان معاصراً للمتنبى ومنافساً له في بلاط سيف
الدولة يقول من قصيدة له يمدح بها القاضي الرقي .

وكم خرق الحجاب إلى مقام توارى الشمس فيه بالحجاب
 كأن سيوفه بين العوالى جداول يطردن خلال غاب
 وقوله من قصيدة يمدح بها الوزير المهلبى :

كأن سيوف الهند بين رماحه جداول فى غاب سما وتأشبا
 وذلك أن الأصل : أن تشبه الجداول والأنهار بالسيوف ؛ يراد بياض
 الماء الصافى وبصيصه مع شكل الاستطالة الذى هو شكل السيف ، كقول
 ذى الرمة :

فما انشق ضوء الصبح حتى تبينت جداول أمثال السيوف القواضب
 ومن الغريب أن ابن جنى نفسه قد أتى بالتشبيه المقلوب فى شعره وقد
 كان شاعراً وله ديوان — وهو قوله فى الغزل — (١) :

غزال غير وحشى حكى الوحشى مقلته
 رآه الورد يحنى الور د فاستكساه حلتته
 وشم بانفـه الريحا ن فاستهداه زهرته
 وذافت ريقه الصهبا م فاختلسته نكته

ولا يخلو شعر العصريين من هذا اللون وإن وسم بالقلة ، لأن روح
 العصر تمج المبالغة والتحويل ، وتجنح إلى الاتزان .
 فمن ذلك قول البارودى :

وأقول إن البرق يحكى بشره لو كان برق المزن غير خلوب
 وقوله :

ففى الغصن منها إن تثنت مشابه وفى البدر منها إن تجلت ملامح
 وقول حافظ يصف الفلاة :

كأن أديمها أحشاء صب قد التهب من الوجد الأليم

فهرس كساب

الفصل الأول

١٧-٤

صم البيان

البيان فى اللغة . أفعاله وما تفيدته مادته . البيان عند قدامة والجاحظ والفرق بينهما . دلالات الإشارة وأمائها . البيان فى الاصطلاح . معنى الاختلاف فى الوضوح . البيان ضد الخفاء . إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة . أمثال فى المدح بالسكرم ووصف الحال . قلة المعانى وكثرة الألفاظ لدى الأقدمين . اختلاف أساليب الأدباء قانون طبيعى . معنى الفصاحة والبلاغة والبيان والفرق بينهما . البيان بمعناه الأدبى . تعريفه عند جعفر البرمكى والرمانى . البيان بمعناه العلمى .

الفصل الثانى

٢٨-١٨

الدلالات

أقسام الدلالة اللفظية وتعريف كل منها . الدلالات عند السهروردى . تعريف عبد القاهر للدلالة الوضعية والعقلية . الدلالة المقصودة فى البيان وسبب ذلك . تكلف السكاكى حصر أبواب البيان . طرق أخرى فى الحصر لبعض البلاغيين . شعورهم بالحرج فى هذا الحصر . اختلافهم فى دلالة التشبيه والقول الفصل فى ذلك . دلالة المطابقة بتأتى بها الوضوح والخفاء كالعقلية . مبحث الدلالات مقحم على البيان . اعتذار السيوطى عن ذلك . تعريف العلوى للبيان يبعدنا عن مبحث الدلالات .

الفصل الثالث

٢٩-٣٣

مر التشبيه

معنى التشبيه لغة . اللغة لا تفرق بين التشبيه والتمثيل . آراء البلغاء في التشبيه والتمثيل . التشبيه اللغوي وما يندرج تحته . التجريد والتشبيه . تعريفات مختلفة للتشبيه في الاصطلاح ونقدها . تعريف العلوي للتشبيه وتحليله ونقده . تعريف قويم للتشبيه أورده الفيومي .

الفصل الرابع

٣٤-٤٢

التشبيه عند القدماء

عدم عناية القدماء بحد التشبيه . سبق الجاحظ إلى استنباط خصائص التشبيه . إيراد كثير من تشبيهات العرب . لمحاته الفنية الدقيقة في نقد التشبيه . رده المفجّم على شبه الملاحدة في تشبيهات القرآن الكريم ، فطنته إلى التشبيه الوهمي . التشبيه عند المبرد . تمثيله لأنواعه . اعتماده على الذوق والحاسة الفنية في تحليل التشبيهات وشرحها . التشبيه عند ابن المعتز . التشبيه عند قدامة وكلامه عنه في نقد النثر والشعر .

الفصل الخامس

٤٣-٤٧

التشبيه من الخصائص الطبيعية

التشبيه تعبير أنيق يمتاز . تشبيهات العوام ونماذج لها . التقاء العامة والخاصة في بعض التشبيهات البليغة . التشبيه أقدم صور البيان . الأساس النفسي الذي يقوم عليه التشبيه . التشبيه في حقيقته قياس . مقايسة الجماهيلية . قياس النابغة الديباني . كثرة التشبيه في كلام العرب .

الفصل السادس

٥٧-٤٨

مترلة التشبيه من البلغة

إشادة النقاد بفضل التشبيه . كلات لقدامة والعسكري وابن قتيبة
والبطين وعبد القاهر والسكاكي والخطيب . التشبيه والتعمق في الخيال .
صعوبة التشبيه . خصائص التشبيه والاستعارة . الفنون الثلاثة بكل منهما
الوصف بالروية والوصف بالسمع . التشبيه يختلف باختلاف حظ قائله
من البلاغة . أمثال للتشبيهات الرائعة ونقدها وتحليلها . وصف موقوف
لمغنية . بعد الاحباب . وصف الخمر لا يلبس . التشبيهات المتفاوتة والمزيلة .

الفصل السابع

٧٥-٥٨

فائرة التشبيه

التشبيه يفيد الإيجاز . عادة العرب في الإيجاز . أمثال بليغة لإيجاز
التشبيه وتحليلها . بيت التابعة : فإنك كالليل وأخذ الشعراء له . تفاوت
التشبيهات في الإيجاز وأمثال لذلك . تشبيه موجز يعجب به الرشيد .
التشبيه يفيد الوضوح وسر ذلك . أمثال للتشبيه الموضح ونقدها والتشبيه
يفيد المبالغة وسر ذلك . أمثال لتشبيه المبالغة وتحليلها : نقد بيت امرئ
القيس في وصف فرسه . أبو تمام رأس المبالغين . المتنبي وإفراطه في
المبالغة وأمثال ذلك . آراء النقاد في المبالغة وحججهم : التشبيه يفيد
التأكيد ! أمثال للتشبيه المؤكد .

الفصل الثامن

٩٣-٧٦

تقسيم التشبيه

مذاهب البلغاء في تقسيم التشبيه . إسراف بعضهم في التقسيم . رأى
بعض النقاد في طريقة عبد القاهر والسكاكي . تقسيم المبرد للتشبيه وطريقة

عرضه . تقسيم قدامة . تقسيم العسكري وإفراطه في ذلك . فضله في توسيع دائرته . تقسيم آخر لابن أبي الأصميع نقلا عنه كذلك . تقسيم السكاكي وتلاميذه . فائدة التقسيمات ووضع القوانين . تقسيم ابن الأثير وطرافته . تقسيم الحلبي .

الفصل التاسع

٩٤-١٠٢

أركان التشبيه

طرفا التشبيه ومنزلهما منه . ما يشترط فيهما مع التمثيل لذلك . الأصل في التشبيه إلحاق الناقص بالزائد ومرة ذلك . كلمات لابن الأثير والسكاكي والعلوى في هذا الأصل . ما يراعى في تشبيه المدح والذم والسلب . د لا ، بين طرفي التشبيه وما قيل في ذلك مع التمثيل . إفادة التشبيه معنيين مختلفين . رقي الحيات وبيضه البلد في التشبيه .

الفصل العاشر

١٠٢-١١٣

التعليق والتهكم

تشبيه الضدين والمختلفين . شرط الصحة لذلك . معنى التعليق لغة واصطلاحاً والتمثيل لذلك . امتناع العكس في التعليق والتهكم . وقوعهما متفرقين ومجتمعين في التشبيه ورأى العلماء في ذلك . كيف يفرق بين التعليق والتهكم . وجه الشبه فيهما وتوضيح ذلك . وجه الشبه فيهما عند البغدادى وابن السبكي . التعليق هو التعليق عند ابن السبكي . معارضة البلغاء له والتوفيق بين الرأيين . معرفة العرب للتعليق وأمثال ذلك . الفرق بين التهكم والهزل المبطن بالجد . نوادر بعض الهازلين . القاتح لباب الهزل المراد به الجد المرشحون لهذا الفن . تقييد طرفي التشبيه وإطلاقهما . المراد بالقييد فيهما . أنواع القيود . معنى الواو في مثل : إني وتزييني بمدحى معشراً . . . الفرق بين المفرد والمقيد والمركب . صعوبة التفريق بين تشبيه المركب بالمركب والمفرد بالمفرد . طريقة التفريق بينهما .

الفصل الحادي عشر

١٢٥—١١٤

وجه الشبه

تعريف وجه الشبه . تحتم وجوده في التشبيه . وجه الشبه المتحقق والمنتخيل . تمثيل للتشبيه الخالي من الوجه . نقاش طريف في تشبيه مشهور . تصوير الأعضاء بحنى ويؤخذ بعضها بذنب بعض . اختلال التشبيه باختلال الجامع بين الطرفين والتثيل لذلك . فائدة الدموع ونقد ما قيل في ذلك . وجه الشبه في قولهم . النحو في الكلام ... كراهة الخوازمي لكثرة الإعراب وتأويل ذاك . متى يستظرف اللحن . قيمة النحو في البيان ورأى بعض البلغاء في ذلك

الفصل الثاني عشر

١٢٦—١٢٦

أقسام وجه الشبه

أقسام وجه الشبه وأمثالها . أقسام الوجه المركب مع التمثيل لها . نظر العرب إلى وجه الشبه . تقسيم آخر طريف لوجه الشبه . وجه الشبه في تشبيه المحسوس بالمحسوس . الوصف المعقول أعم من المحسوس وتعليل ذلك . ما يشترط في وجه الشبه . امتناع الخفاء في وجه الشبه . ما يجب أن يتحقق في المشابهة .

الفصل الثالث عشر

١٢٧—١٢٣

مراعاة جهة التشبيه

الاختلاف والاتفاق في وجه الشبه . قيمة مراعاة جهة التشبيه . أحسن التشبيه عند قدامة . ما تنحقق به جودة التشبيه . أمثال دقيقة لمراعاة جهة التشبيه . الألقوان والشغور . استيعاب جهة التشبيه . تشبيه العالم والأديب . القصد في التشبيه من كل شيء إلى شيء .

الطاووس في التشبيه . التشبيه يقع على الأعراس لا الجواهر . موازنة في تشبيه النيلوفر . أمثال مراعاة الجملة في نظر الأقدمين . أمثال لما انحرف عن المراعاة ونقدها . توالى العطف بالقاء وحسنه مع التثيل له . براعة و شوق ، في توالى العطف بالقاء . ذهول الشعراء عن تناسب الطرفين حيناً .

الفصل الرابع عشر

١٦٤ — ١٧٤

التشبيه المجهل والمفصل

تعريف المجهل واشتقاقه . ظهوره وخفاؤه . الوصف بالحلقة المفرغة وتحليله . أمثال مأثورة للعرب في تساوى الشئيين : ركبنا البعير . حمارا العبادى . عكبا العير . جانباً هرشى . الفرقدان . اللؤاؤ والياقوت . الجديان الحار والبارد . أقسام المجهل وأمثالها . ترشيح التشبيه ومتى يحسن . هربارت سبنسر وترشيح التشبيه . شهرة أمرسون الأمريكى به . موقع الجملة بعد المشبه به . وصف المشبه وعدم تمثيلهم له وعلّة ذلك . المفصل والتثيل له . معنى المفصل عند بعض البلغاء .

الفصل الخامس عشر

١٧٥ — ١٩٩

أدوات التشبيه

ما يندرج تحت أداة التشبيه . لا بد للتشبيه من أداة . أشهر أدوات التشبيه . الكاف وما تدخل عليه . موالاتها للتشبيه به لفظاً وتقديراً . متى يليها غير المشبه به . كأن والقول في بساطتها وتركيبها متى تغيد التشبيه ومذاهب العلماء في ذلك والقول المفصل فيه . معنى قولهم : **كانك** بالدنيا لم تكن ، وكأنما على رؤوسهم الطير . الفرق بين **كان** و **الكاف** . أدوات أخرى للتشبيه : لعل . سواء . مثلك لا يفعل كذا . مثل . بالفتح ، ومتى تقع . استعمال . المتنبى ،

وما في التشبيه ورأى البلغاء في ذلك . أفعل التفضيل في التشبيه
وأمثال طريفة لها ونقدها وتحليلها . الأفعال التي تنفي عن التشبيه .
ما تفيد . وهكذا . وما قيل فيها . توالى ادوات التشبيه وسر ذلك .
أمثال لها من روائع الشعر . تكرير «شوقي» لأداة التشبيه . متى يحسن
الاستغناء عن تكرير الأداة . التشبيه الإنشائي والخبري .

الفصل الثاني عشر

٢٠٠-٢١٢

الغرض من التشبيه

لا بد في التشبيه من غرض . عودة الغرض إلى المشبه والمشبه به .
بيان حال المشبه ومتى يكون . أثره في الإيضاح والإيضاح . كثرة
وقوعه في كلام الناس . أمثاله من النثر والشعر البليغ . بيان مقداره
وشرط وقوعه وفائدته مع التمثيل له . تضمنه معنى الخاص بعد العام .
تقرير حاله وفائدته . أمثال طريفة له . وقوعه بكثرة في تشبيه المعنى
بالصورة . متى يقع في تشبيه الصورة بالصورة . العلة في استرواح
النفس إليه . التدليل على ذلك من علم النفس . قوة التمثيل بالقول مع
الإشارة الحسية . موازنة بين أثر القول وأثر الإشارة . قيمة تقرير
حال المشبه ومنزلته البلاغية . الفرق بين تقرير الحال وبيان المقدار .

الفصل السابع عشر

٢١٣-٢٢٢

بيان اصطلاح المشبه

المقصود من بيان الإمكان . مواضع وقوعه . بيان الإمكان
دعوى تحتاج إلى برهان . الفرق بين بيان الإمكان وغيره من الأغراض .
نبذ من التمثيل البارع له . كثرة وقوع هذا النوع في شعر المتنبي وسببه .
تحليل بيت المتنبي : فإن تفق الأنام وأنت منهم . . . ولوعه بهذا المعنى
وتكريره له كثيرا . الخلاف في اختراعه هذا المعنى . نسكته ملوكية
لسيف الدولة في بيته المتقدم . تقليد الشعراء للمتنبي في ذلك التشبيه .

بيان الإمكان تشبيهه ضمنى مكنى عنه . اختلاف البلغاء فى تفسير ذلك .
وجه الشبه فى بيان الحال والمقدار والإمكان والتقرير وما قبل فى ذلك .
نقد البحرى فى تشبيه الليل بالمداد ، وابن قلافس فى تشبيه الصبح بالسقط
ورد ذلك . أبيات للشعراء فى هذه المعانى . رأى التفتازانى فى أنتمية
وجه الشبه وأشهره .

الفصل الثامن عشر

٢٢٣ — ٢٣٦

تحسين المصنوع أو تقييد

طريق التحسين والتقييد والعلة النفسية فى ذلك . سحر البيان
وخلابته . أقسام التحسين والتثيل لذلك . السواد وما جاء فى مدحه .
تقدم ابن الرومى على جميع الشعراء فى ذلك . مدح السمرة والشقرة
والصفرة . تحسين ما لاربيسة فى قبحه وأمثال ذلك . التغزل بذوى
العاهات . تقييد ما اتفق على استحسنائه . ذم الشمس والقمر والورد
والزرجس والبياض .

الفصل التاسع عشر

٢٣٧ — ٢٤٤

التلطف

معنى التلطف عند أهل البديع . وروده فى شعر العرب . التلطف
وقياس المناطقة . تحمين الموت والفرار وإفشاء السر إلخ . كلام بليغ
فى تعزية منزم . مدح الحقد وذمه . ذم الصبر نثرا وشعرا . لا يؤخذ
التناقض على الشعراء . كثرة مدح ابن الرومى للأشياء وذمها وتعليل
ذلك . حسن البلاغة فى نظر بعض النقاد . استخدام التشبيه فى التهذيب
والترية مع التمثيل لذلك .

الفصل العشرون

٢٥٩-٢٤٥

الاستطراف

معنى الاستطراف والاستطراف . صلاحية كل منهما للبصود . وسائل الاستطراف وسببه . وجه التشبه في الاستطراف . تشبيه البنفسج بأوائل النار في أطراف الكبريت وتحليله . سر استطراف هذا التشبيه عند عبد القاهر . رأى العسكري في أن المراد الحرم لا البنفسج وتعليل ذلك . ما يزيد في قيمة الاستطراف . الطرافة وهل تستوجب الحسن دائما ؟ مذهب قدامة في ذلك والقول الحق فيه . أمثال للتشبيهات المستطرفة في مناح مختلفة . ما قيل في دزأزراره على القمر . . ماذا يجب إذا كان الغرض نفس المحاكاة .

الفصل الحادي والعشرون

٢٩٩-٢٦٠

التشبيه المقلوب

بغية الشعراء من قلب التشبيه . التشبيه على إطلاقه لم يرض نزع الشعراء . كيف عبر الشعراء عن هذه المغالاة ؟ تنازع شاعرين في بيت . لم يمنع الشعراء بالمبالغة في التشبيه المقلوب . كثير من الأوصاف التشبيهية استعملت تقليداً . استهجان بعض النقاد لتشبيهات تعالم الناس استحسانها . الإنسان في الواقع أشجع من الأسد وأجمل من البدر والظبي إلخ . أسماء التشبيه المقلوب عند علماء البلاغة وسر التسمية . الغرض من التشبيه المقلوب عند أهل البيان ومعنى القلب . تحليل نفس التشبيه المقلوب . وصف ابن جني للتشبيه المقلوب . التشبيه المقلوب من تدرج اللغة . لا يحسن قلب التشبيه دائما وتعليل ذلك . المعاني التي لا قلب مع التمثيل . نقاش دقيق في تشبيه مقلوب . القرينة في التشبيه المقلوب . بيان وجه المبالغة في التشبيه المقلوب . العلاقة بين الوجه والريغف

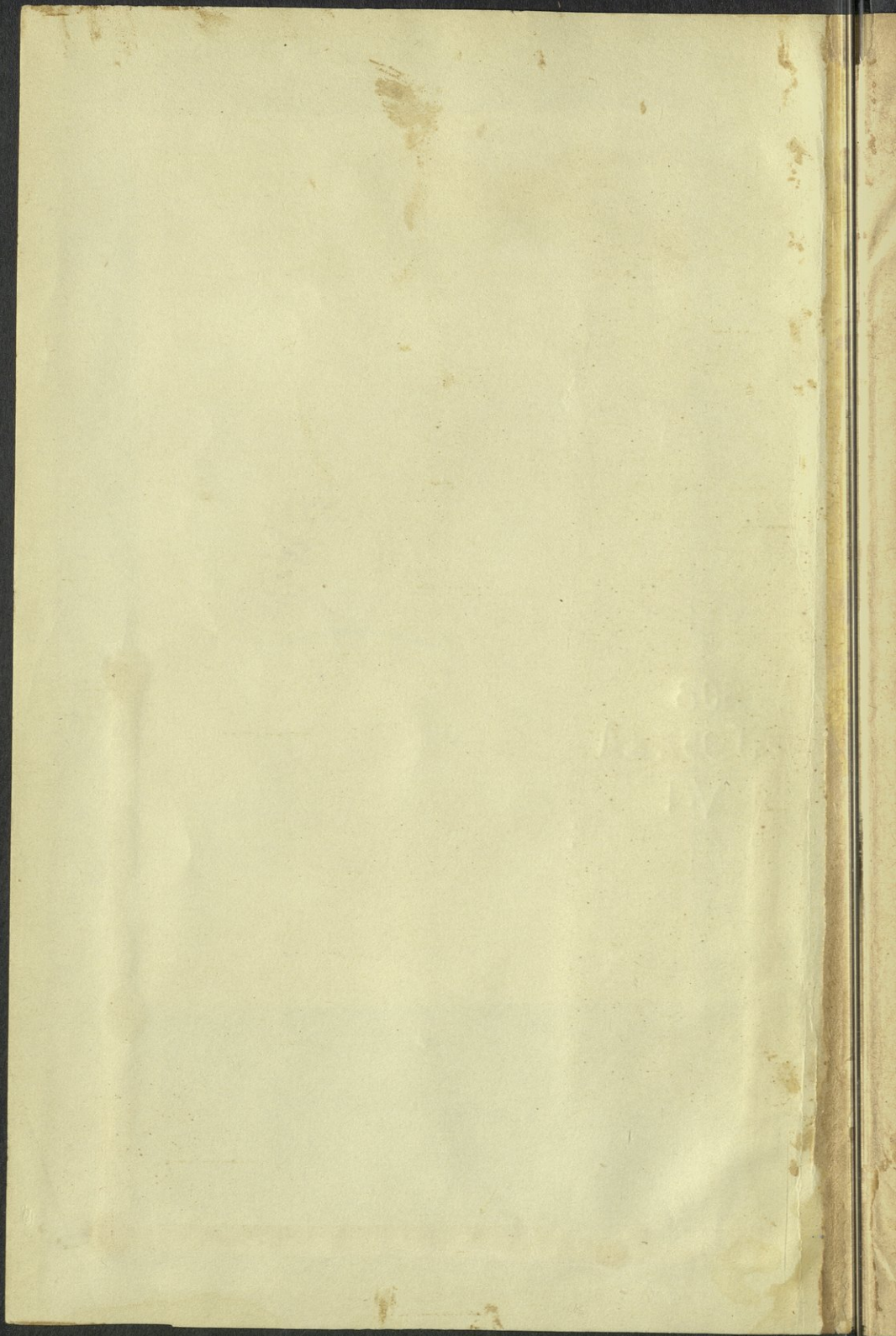
والقمر . التشبيهات المادية وكيف ينظر إليها . اختلاف الأمزجة
وأثرها في الهمم . أثر الصناعة والرؤية وأثرها في التشبيه . إشادة
البلغاء بالتشبيه المقلوب . موازنة بين التشبيه المقلوب وغيره . فطنة
العرب إلى التشبيه المقلوب .

الفصل الثاني والعشرون

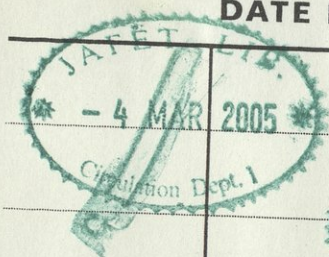
قيمة التشبيه المقلوب ونظيره ٣٠٠ — ٣٢٦

أثر الحضارة في المبالغة . التشبيه المقلوب في العهد الجاهلي والاموي
وأمثاله . التشبيه المقلوب في القرآن الكريم . التشبيه المقلوب في
العصر العباسي الأول وأمثاله . التشبيه المقلوب في العصور المتأخرة
وأمثاله . مادة التشبيه المقلوب عند المتأخرين . التشبيه المقلوب
المستمد من الأزهار والأثمار . اجتماع المقلوب وغيره في نسق واحد .
تفاوت التشبيه المقلوب في الحسن مع التمثيل والنقد والموازنة . التشبيه
المقلوب والتمثيل . اختلاف البلقاء في بيت أبي تمام . لعاب الأفاعي . . .
وبيت المتنبي: نحن ركب ملجن . . . خطأ ابن جني في فهم بيت المتنبي .

تم الجزء الأول والحمد لله



DATE DUE



808:J952aA:v.1:c.1

الجندي، علي

فن التشبيه: بلاغة، ادب، نقد

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01030772

